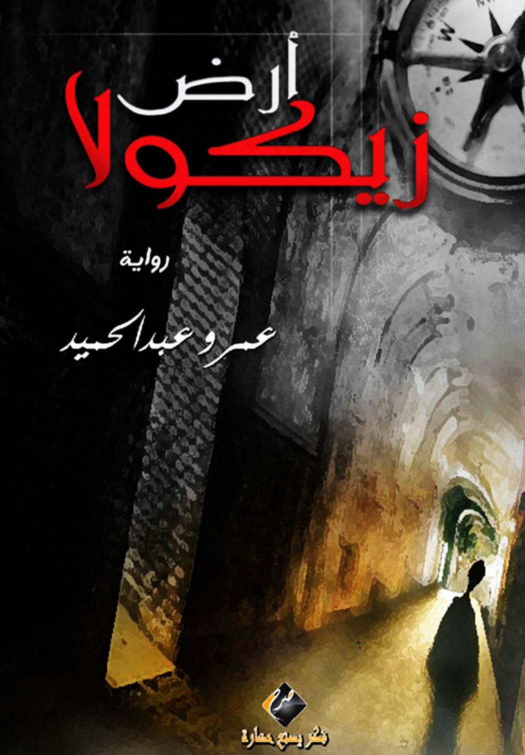

أرض
زيكولا
رواية
عمرو عبدالحميد
فكر يصنع حضارة

الكتاب: أرض زيكولا / عمرو عبد الحميد

المؤلف:عبد الحميد ، عمرو

النوع: القصص العربية

تصميم الغلاف: محمد المحيطيب

إخـــراج داخلي: بثينة عزام

الطبعة: الأولى/ القاهرة ٢٠١١

عـــدد الصفحات: ٤٤٠ صفحة

المقـــاس: ١٤×٢٠

تدمك:

صرح للنشر والتوزيع

المدير العام: عبود مصطفى عبود

كورنيش المعادي، بجوار مستشفى السلام الدولي، أبراج المهندســـين (أ) بـــرج (٢) الدور العاشر.

ت: (٢٥٢٤٠١٦٦)(٢+)

البريد الإليكتروني: darsarh@gmail.com

الموقع الإليكتروني: www.dar-sarh.com

رقـــم الإيداع: ٢٠١٠/١٩٨٣٤

الترقيم الدولي: 978-977-6382-39-8

ديوي٨٠٣

أرض زيكولا

روايـة

تـأليف

عمرو عبد الحميد



الإهداء

إلى

أسرتي الطيبة، وأمي ميرفت شلبي

إلى

أعضاء فريقي العزيز (نت أمان دقهلية) ومُشرِفِيه، ذلك الفريق الذي

طالما عشت معه لحظات نجاح

إلى

صديقيّ العزيزين الدسوقي عبد الحميد، ومحمود عز الدين



(١)

يقولـون: الحــب أعمــى.. وهــو يقــول: «أصــابني العمــى حــين أحببت».. ولكن ماذا يفعل؟.. ها هـو قـد أحـب وحـدث مـا حـدث.. وها هو يجلس كل يوم في حجرته ليكتب مجددًا..

«أنـا خالـد حـسني.. ثمانيـة وعـشرون عامًـا.. خـريج كليـة تجـارة القـاهرة منـذ سـتة أعـوام.. بلـدي يُـسمى «البهوفريـك» تـابع لمحافظـة الدقهلية.. واليوم قد رُفـض زواجـي بحبيبتـي للمـرة الثامنـة.. ولـنفس السبب.. »

ثم نظر إلى الحائط.. وقد قام بتعليـق الورقـة بجـوار سـبع ورقـات أخرى، يبدو أنها عُلقت في أوقات سابقة..

الورقـة الأولى مكتـوب بهـا اسـمه، وسـنه، وبلـده، وبهـا: «رُفِـض زواجي بحبيبتي اليوم»، وبجوارها ورقـة ثانيـة، وبهـا: «رفـضت للمـرة الثانية».. والورقة الثالثة بها رفضه للمرة الثالثة.. وهكـذا حتـى الورقـة السابعة..

بعدها أسند ظهره إلى الخلف ونظر إلى أعلى، وعادت به ذكرياته إلى ماقبل ستة أعوام مضت حين كان يدرس بالسنة الأخيرة بالجامعة.. وشاءتِ الأقدار أن يتعرف على «منى» ابنة بلدته صدفة في طريقهما من البلدة إلى جامعته بالقاهرة.. وزادت فرحته حين علم أنها تدرس بنفس الكلية في عامها الأول بالجامعة.. ومن يومها وقد تعددت صدف لقائهما كثيرًا سواء بقصد أو دون قصد..

حتى أفاق من ذكرياته، وزفر زفرة قوية حين نظر إلى ورقة كبيرة علّقها على الحائط أسفل الثماني ورقات، وقد كتب عليها: «رفضت لنفس السبب».. السبب.. والد «منى» المجنون..

***

كان «خالد» إن سمع كلمة مجنون فدائمًا يتذكّر والد «منى».. ولا أعتقد أنه «خالد» فقط، بل جميع أهل البلدة.. ولكن «خالد» أكثر من عرف ذلك المجنون.. فمنذ أن أنهى دراسته، وعزم على أن يتقدم للزواج من «منى» حتى فوجئ بأبيها -في أول زيارة لخطبتها- ينظر إليه بغرابة:

-أنت عاوز تتجوز «منى»؟!

خالد: - أيوه

- والد «منى» وقد ارتفع حاجباه: وأنت عملت أيه في حياتك؟!

ازداد وجه خالد احمرارًا، واضطرب قليلًا.. وكأن السؤال صاعقة لم يتوقّعها.. حتى رد:

- عملت أيه في حياتي!.. الحقيقة أنا مش فاهم قصد حضرتك بالسؤال.. بس أنا خريج كلية تجارة جامعة القاهرة.. وحضرتك عارف إن والدايّ توفاهم الله، وعايش مع جدي من صغري.. ومعفي من الجيش.. وحاليًا بدوّر على وظيفة مناسبة..

رد الرجل:

- وتفرق أيه عن غيرك عشان أجوّزك بنتي؟!!.. ثم أنهى المقابلة بالرفض..

***

اعتقد خالد وقتها أن سبب رفضه للمرة الأولى أنه لم يجدِ الوظيفة المناسبة.. ولكنه تأكّد أن السبب ربما يكون غير ذلك تمامًا، حين وجد عملًا وتوجّه لخطبة «منى» مجددًا .. حتى قوبل بالرفض للمرة الثانية ونفس سؤال الأب: «ماذا فعلت في حياتك؟» .. وبم تختلف عن

غيرك.. هذا السؤال الذي لم يجد إجابة وافية لأبيها حتى المرة الثامنة لطلبه الزواج، ولم يراع في كل مرة حب خالد لابنته أوحب ابنته له.. حتى فاض بخالد الكيل في تلك المرّة فصاح به:

- أنا معملتش حاجة في حياتي.. أعمل أيه يعني؟!!.. عارف إنك كنت بطل في حرب ٧٣.. شايف إن ده سبب يخليك تذلّنا؟!.. يعني أنت عاوز بطل لبنتك.. قولّي أبقى بطل ازاي.. أروح أحارب في العراق عشان تنبسط؟!!.. ثم نظر إليه وقد ظهر الغضب في عينيه:

- هأتجوّز «منى» يعنى هأتجوِّزها.. غصب عنك هأتجوّزها..

***

البلدة كلّها تعرف أن هذا الرجل غريب الأطوار.. يريد أن يزوج ابنته الوحيدة لشخص فريد من نوعه.. أيُّ فريد هذا؟!.. لا أحد يعلم.. الكل يعلم أن مصير ابنته العنوسة لا غير.. طالما أبوها ذلك الرجل.. ومع هذا لم يطرق الاستسلام قلب «خالد» أبدًا، ولم يعد بباله سوى ذلك الشيء الذي يجعله فريدًا من نوعه.. يجعله يستحق «منى» كما يريد أبوها.. ولكن ما هذا الشيء.. هل يسرق أحد البنوك ويصبح من

الأثرياء؟.. هل يبحث عن كنز ما؟.. لا يعلم.. فلم يجد سوى أن يتوجه بالدعاء إلى الله أن يأخذ أباها..

رغم أن «خالد» كان يتسم بخفة الظل.. وروحه المبهجة دائمًا، إلا أن حبه لـ«منى» ورفض أبيها الدائم له جعل الحزن وشاحًا دائمًا على وجهه.. حتى لاحظ جدُّه -والذي كان يقترب من عامه الثمانين وكانا يعيشا معًا منذ وفاة والدي «خالد»- حزنه الشديد بعد رفضه تلك المرة، وقد اقترب منه وسأله:

-أنت لسه زعلان؟..أنت المفروض خلاص اتعوّدت..

رد «خالد» في حزن:- أنا بحبها ومش متخيل أني أشوفها لحد غيري.. ومش عارف أبوها عاوز أيه!.. مش عارف إن زمن المعجزات انتهى..

رد جده:- وأنت هتقعد جنبي كده، حاطط إيدك على خدّك؟!

«خالد»:- طب هعمل أيه؟..

ضحك الجد وحاول أن يداعبه كي يخفف عنه حزنه:

- لا..أنت أحسنلك تدفن نفسك في سرداب..

لمعت عينا «خالد».. وكأنه تذكّر شيئًا ما:

- سرداب.. السرداب..

ثم أكمل:

- جدي..أنت فاكر لما كنت صغير، وكنت لما أعيّط تحكيلي عن قصة السرداب الموجود تحت بلدنا.. وإنك نزلته من أكتر من خمسين سنة.

رد الجد مبتسمًا: - أيوه، طبعًا فاكر، لما كنت بتعيط.. تحب أفكّرك بأيامك..

ضحك «خالد»: - لأ..عايزك تحكيلي عن السرداب.. ونزولكم له.. ابتسم الجدّ وصمت كأنه يتذكّر:

- يااه.. دي أيام فاتت من زمان.. مش فاكر منها إلا القليل.. كنّا أربع شُبّان بنحب الشقاوة والمغامرة.. وسمعنا كلام كتير بيقول إن فيه كنز موجود في سرداب بيعدي تحت بلدنا.. وإن السرداب ده كان زمان مخزن كبير للأغنياء وقت أي غزو..

- الكل كان عارف إن السرداب ده موجود فعلًا.. بس محدّش جرّب ينزله؛ لأن معروف إنه مسكون عفاريت، وأي حد هينزله مش

هيخرج منه، بس احنا رمينا الكلام ده ورا ضهرنا.. وقلنا لازم ننزله.. يمكن نلاقي الكنز ده، ونخرج البلد من حالة الفقر اللي كانت فيها..

قاطعه «خالد» وقد ظهر استمتاعه على وجهه:- كمّل..

- كنا عارفين إن باب السرداب موجود في بيت مهجور في البلد.. بيت محاط بسور كبير.. وإن هناك صخرة كبيرة موجودة على الباب ده.. وفي ليلة توكّلنا على الله.. ورحنا للبيت ده في السر، وقدرنا نحرّك الصخرة وبدأنا ننزل واحد ورا التاني.. ومع كل واحد فينا لمبة جاز.. وبعد ما نزلنا سلم طويييل ولقينا نفسنا في نفق متساوي.. ومشينا كام خطوة في النفق ده لحد مالقينا نفسنا مش قادرين ناخد نَفَسْنا.. وفجأة انطفت لمبات الجاز كلّها في وقت واحد.. وصرخ واحد فينا.. عفريت طفي لمبتي.. وبعدها كل واحد فينا خد ديله في سنانه.. ورجعنا جري على برّة.. وركبنا بتخبط في بعضها.. ومن وقتها ومحدش فكّر إنه ينزل تاني..

ضحك «خالد»:- .. بس هتفضل ذكرى حلوة.. وإنكم قدرتوا تتغلّبوا على خوفكم.. حتى لوأخدتوا ديلكم في سنانكم.. ثم ضحك جده مداعبًا له:- متقولش لحد حكاية ديلنا دى..

بعدها عاد «خالد» إلى حجرته.. وقد حاول أن ينام، ولكن هيهات أن يغمض له جفن.. يفكر كثيرًا فيما أخبره به جده.. هويعلم أن ما سمعه يبدو أسطورة.. ولكن السرداب موجود بالفعل، وجده لا يكذب قط.. ثم نظر إلى الورقة المكتوب بها سبب رفض والد «منى».. إنه يريد شخصًا فريدًا.. شخص يُرضي جنونه.. يحدّث نفسه.. إنه لن يتزوج غير «منى»، وإلا فلن يتزوج.. ثم تحدّث إلى نفسه مجددًا بصوت عالٍ:

فيها أيه لو نزلت السرداب.. افرض كان فيه كنز موجود فعلًا..

ثم صمت وتحدَّث لنفسه وكأن شخصًا آخر يحدّثه..

كنز أيه.. ده كلام مجانين.. ومتنساش إن السرداب ده مسكون عفاريت، وأشباح.. وأنا أكتر واحد عارفك..أنت في بعض الأوقات بتخاف من خيالك.. ثم عاد مجددًا:

لوكنت جبان يبقى متستحقش «منى»..أنت عاجباك حياتك كده.. خريج كلية تجارة وشغلك ملوش أى صلة بالتجارة.. درست أربع سنين عشان تخرج تشتغل في مخزن أدوية.. ولولا إنك ساكن لوحدك مع جدك كان زمان مرتبك خلصان في نص الشهر..

ثم أكمل:

لوكنت بتحب «منى» فعلًا.. مت شجاع عشان حبها.. أثبت لنفسك ولها أنك بتحبها فعلا.. ولو لقيت الكنز ده هتكون أشهر واحد في البلد دي.. لا في مصر.. لا في العلم كلّه.. حتى لوملقتوش، كفاية إنك تحاول في سبيل حبك..

ثم انتفض من على سريره.. وأخرج صورة لـ«منى».. ونظر إليها وكأنه يحدثها:

أنا هنزل السرداب ده.. هنزل مهما حصل.. وإن كان أبوكي مجنون.. فأنا أوقات كتيرة بكون الجنون نفسه..

***

(٢)

كان «خالد» يظن أنه يتحدث إلى نفسه وحيدًا.. ولكنه لم يكن يعلم أن هناك من يسمع حديثه إلى نفسه بصوت عالٍ خارج الحجرة.. حيث كان يقف جده مجاورًا لباب الحجرة، ويستمع إلى ذلك الحديث وصياحه إلى صورة «منى».. ورغم هذا لم تَبدُ على وجه جده أى نوع من أنواع الدهشة، وكأن ما سمعه -من حديثه عن نزوله السرداب- أمر لا يمثل له أي اختلاف، بل يبدو وكأنه أمر يتوقع حدوثه.. وظل واقفًا هكذا حتى صمت «خالد»، وأُغلقَت أنوار حجرته، وساد الهدوء المكان، ولم يقطع هذا الهدوء إلا ذلك الصوت المميز الذى يعلمه جده جيدًا حين ينام «خالد»..

***

بعدها غادر هو الآخر مُتكئًا على عصاه إلى حجرته حيث جلس صامتًا على أريكته بعضًا من الوقت لم يتجاوز دقائق، وكأنه يفكر فيما سمعه من حديث «خالد» إلى نفسه، ثم حرّك عصاه ليجذب بها صندوقًا خشبيًا صغيرًا يبدو عتيقًا، حتى فتحه فأخرج منه (ألبوم) قديمًا

للصور، غُطي بالكثير من الأتربة.. وبعدما أزاح الأتربة عنه بدأ يقلّب في صفحاته صفحة تلو الأخرى، ويشاهد ما بها من صور.. حتى توقّف كثيرًا عند إحدى الصور..

***

في اليوم التالي استيقظ كل من «خالد» وجدّه مبكّرًا كما تعودا دائمًا.. فـ«خالد» لديه عمله المبكر، وجده لا ينام بعد صلاة الفجر، ويظل يقرأ في كتاب الله حتى ينهض «خالد» فيتناولا إفطارهما معًا.. والذي تُعدُّه لهما فتاة تسكن بجوارهما قد اعتادت على ذلك منذ سنوات.. حتى جلس «خالد» وكان ينظر إلى جده بين الحين والآخر وكأنه يريد أن يخبره بشيء.. حتى قطع صمته وسأل جده:

- عبده (كما كان يحب أن يناديه)..أنت تقدر تعيش لوحدك؟

نظر جده إليه.. وأظهر أنه لا يفقه سؤاله:

-أنت عاوز تسافر ولا أيه؟!

صمت «خالد».. ثم نظر إليه مجددًا:

- لو سافرت لفترة قليلة.. تقدر تعيش لوحدك؟ ثم أكمل وكأنه يوضح كلامه:

- أنا عارف إن كلامي صدمة لك.. بس أنا قررت إني أسيب البلد لفترة.. وأقسم لك إني هرجع في أسرع وقت.. ومش هتحسّ بغيابي أبدًا.. ثم حاول أن يجد مُبررًا لحديثه:

- أنا هسافر أي مكان ألاقي فيه نفسي.. أحس فيه بوجودي..أنت عارف ابن ابنك خريج كلية التجارة بيشتغل أيه؟

رد جده:- آه.. شغّال في مخزن أدوية..

رد «خالد» وأظهر حزنه:- ابن ابنك شغال شيال في مخزن أدوية.. شيال.. هات الكرتونة دي، حُطّها هنا.. خُد الكرتونة دي ودّيها هناك

ثم همّ بالوقوف ليغادر.. وقال لجدّه:

- هسافر فترة مش طويلة.. ثم التفت خارجًا، حتى أوقفته كلمات جده:

-أنت ليه بتكدب يا «خالد»؟!..أنت ليه مش عاوز تعرّفني إنك عاوز تنزل السرداب؟!

كانت تلك الكلمات كالصاعقة التي وُجِّهت إلى «خالد».. فقد اختلق رغبته في السفر لفترة كي لا يعلم جدّه بذلك، ويظن أنه أصيب بالجنون.. ولا يعلم كيف عرف جده بنِيَّته.. حتى نظر إليه:

- سرداب؟!.. أنت عرفت منين؟!!.. أقصد سرداب أيه.. وكلام فاضي أيه..

أكمل جده:

- عرفت من زمان.. من زمان جدًّا .. ثم أمره بالجلوس مجددًا.. وسأله في جدّيّة:

-أنت عاوز تنزل السرداب ليه؟

صمت «خالد».. ثم تحدث وحاول أن يجعل الحديث مزحة:

-أنت ليه مصمم على حكاية السرداب دي.. أنا بقولّك أنا هسافر..

أعاد جده نفس سؤاله:- «خالد»..أنت عاوز تنزل السرداب ليه؟

لم يجد «خالد» مفرًّا من الحديث سوى أن يخبره بالحقيقة.. فقال بعد أن زفر زفيرًا طويلًا:

- عاوز أنزل عشان أثبت لـ«منى» وأبوها إني بطل.. إني مختلف عن غيري..

فسأله جدّه:- بس!

أجاب «خالد» في تعجب من سؤاله:

- أيوه بس.. ثم أكمل:

- ومين عارف، يمكن ألاقي الكنز اللي نزلتوا له قبل كدة..

كرر جده:- بس!...

«خالد»:- أيوه

تحدث جده في جدّية:-أنت مش عاوز تنزل عشان كده.. نظر إليه «خالد».. ولاحظ الجدّية التي لم يَرَها على وجه جده من قبل.. حتى أكمل جده:

- افرض إن «منى» اتجوّزت حد تاني، هتنزل السرداب ولا لأ؟

صمت «خالد» مفكّرًا لبعض الوقت.. وقد أكمل جده مجددًا:

- عمري ما هصدّق إنك عاوز تنزل عشان «منى».. أنت عاوز تنزل لسبب تاني تمامًا.. سبب نزولي ونزول غيري.. السبب اللي بيجري في دمّنا.. دمي، ودمك، ودم أبوك.. السبب هو حبنا للمجهول.. حبنا للتمرّد.. حبنا لاكتشاف حاجة جديدة.. حبنا للاختلاف..

- أردف:

- لما كنت صغيّر كنت بحكيلك عن السرداب وأنت بتعيّط.. ويمكن كنت بتبص لها إنها مجرد حكاية عشان اسكّتك بيها، ومتعرفش إني كنت بنمّي فيك السبب ده.. وصدّقني كنت عارف إن هيجي يوم

وتكبر وأحكيلك من تانى عن السرداب.. مجرّد حكاية صغيرة عنه وهتنتفض من جوّاك..

- ثم تابع حديثه:

- ماأنت ياما رفضك أبو «منى».. وكنت عارف سبب رفضه.. إشمعنى المرة دي اللي حبّيت تعمل بطل.. لحد ما جه اليوم ده امبارح، وحصل لك نفس اللي حصل لأبوك يوم ما حكيت له عن السرداب.. بس الفرق إني عرفت إنك عاوز تنزله، أما هو راح فجأة..

- «خالد» في دهشة كبيرة:

- أبويا نزل السرداب؟!

رد جده:- مش أبوك لوحده.. أبوك وأخد أمك معاه.. كانوا فاكرين إنهم هيروحوا رحلة صغيرة ويرجعوا.. عشان كدة سابوك وأنت ابن سنتين.. وقالوا راجعين بعد أيام.. لكن الأيام بقت شهور، والشهور بقت سنين، والسنين فاتت ومرجعوش.. والبلد كلّها عرفت إنهم ماتوا في حادثة.. والكل شكر ربنا إنك مكنتش معاهم ونجيت من الحادثة دي.. ولكن الحقيقة إنهم نزلوا السرداب..

ثم تنهّد وأكمل:- عمري ما أنّبتُهم على كدة.. بقول لنفسي ماأنت كمان نزلت السرداب، وكنت فخور بنفسك.. بس الفرق إن ربنا نجّاك، ثم نظر إلى «خالد»:- وعشان كده عمري ما هزعل إنك كمان تنزل السرداب.. حتى لوكنت عارف إن قرارك ده ممكن يبعدك عني.. بس لازم تكون متأكّد إنك نازل من جوّاك أنت.. مش نازل لسبب وهمي حاطه لنفسك هو «منى».. ثم همّ بالوقوف.. ومشى بضع خطوات معطيًا «خالد» ظهره:

- ساعة ماتقرر قولّي.. لأن لسة كلام كتير عن سرداب (فوريك) حد غيرى عاوز يقوله لك..

***

بعدها غادر «خالد»، ولم يتجه إلى عمله كما كان يذهب كل يوم، بل توجه لمقابلة «منى» بعدما هاتفَتْهُ وطلبت مقابلته بأحد الأماكن داخل جامعة المنصورة.. حيث كانا يلتقيان هناك دائمًا.. وفي طريقه إلى هناك لم يشغل باله سوى حديث جده إليه.. وهل يرغب في نزول السرداب حبًّا لـ«منى»، أم أن حُبَّ المغامرة هو ما يدفعه لذلك.. ثم تذكّر حديث جده عن والديه اللذَيْن لا يعلم عن هيئتهما أي شيء..

فقد وجد نفسه منذ طفولته مع جده، ولم يَرَ صورة واحدة لأبيه أو أُمِّه.. لم يساعده على تخيُّلهما إلا كلمات بعض أقاربه.. أنه طويل مثل أبيه، فقد كان -تقريبًا- في مثل طول أبيه الذى يبلغ أكثر من مائة وثمانين من السنتيمترات -كما كانوا يقولون له- وكتفيه العريضين والبينة القوية.. هذه أشياء يقولون إنه شابه أباه فيها.. أما أقارب أمه فطالما أخبروه أن شعره الأسود الداكن، وابتسامته الدائمة يَظلّان شبهًا دائمًا بينه وبين أمه.. وضحك حين تذكر تلك الجملة التى كان يخجل منها حين كان صغيرًا.. جميل شبه أمه..

***

بعدها عاد بتفكيره إلى ذلك الرجل الذى أخبره جده أن لديه كلامًا كثيرًا عن السرداب.. وعن ذلك الاسم الذي سمعه لأول مرة.. سرداب (فوريك).. وظل تفكيره منشغلًا هكذا، حتى وصل إلى ذلك المكان الذى كان يقصده لملاقاة «منى»..

***

وجد «خالد» «منى» في انتظاره بحجابها المميز وألوانها المتعددة، وعباءتها السمراء التي كان يداعبها دائمًا، ويخبرها أنه يتشاءم حين تقابله بتلك العباءة.. فنظر إليها بابتسامة:

- إزيك يا موني.. (كما كان يحب أن يناديها)..

لم تبتسم «منى» كعادتها.. ولكنها نظرت إليه في حزن:

- أنا متأسفة إن بابا عمل معاك كده للمرة التامنة..

ضحك «خالد»:

- «لا . أنا خلاص اتعوّدت.. أنا بقيت مفضوح في البلد أساسًا.. الناس بقت بتقول عليا إني ضربت الرقم القياسي في رفض جوازك بيا وإني المفروض أدخل موسوعة جينيس.. » قال تلك الكلمات كي يخرجها من حالة الحزن التي وجدها بها ولكن دون فائدة..

أكملت «منى»:- أنا كنت مفكّرة زيّك إن بابا عاوز حد مختلف.. بس للأسف بابا اتغيّر فجأة..

اندهش «خالد»:- يعنى أيه اتغير؟!!

أكملت «منى»:- فيه دكتور اتقدّم لبابا عشان يتجوّزني.. وطبعا أنا كنت متاكدة إن بابا هيرفض.. بس فوجئت إنه وافق..

«خالد» وقد صاح بها:

- أيه.. وافق؟!!

«منى»:-آه.. وافق ومصّر إني اتجوّزه... ثم تساقطت بعض دموعها..

«خالد» وكأنه غير مصدق:- وأنا؟!

«منى»:- حاولت اتكلّم معاه بخصوص حبي ليك.. فوجئت إنه ضربني على وشّي.. وقال إنه عارف مصلحتي أكتر مني.. وإن مستقبلي مضمون مع الدكتور.. وإني هتعب معاك..

***

كانت «منى» تتحدث، واختلط حديثها بدموعها.. و «خالد» ينصت لها، وكأنه لا يصدق ما تسمعه أذناه.. ماذا يريد ذلك الأب المجنون؟. كان يخبره بأنه يريد شخصًا لابنته فريدًا من نوعه.. ولكن يبدو أنه كان يريد أيَّ شخص.. إلا «خالد حسنى».. أنا.. هل يضيع حب تلك السنوات ما بين عشية وضحاها؟!.. إنه لم يحب في حياته مثلما أحب «منى».. ولماذا لم تعترض «منى» على قرار أبيها؟!.. هل استسلمت خوفًا من عنوستها؟.. كلّها أسئلة دارت في ذهنه، بينما كانت

تتحدث «منى»، حتى طلبت منه الرحيل كي لا تتأخر في عودتها إلى منزلها.. وكأنها تهرب من لقائه..

ابتسم «خالد» ساخرًا مشيرًا إليها بيده أن ترحل دون أن يتحدث.. وكانتِ المرة الأولى التي يتركها ترحل بمفردها.. وجلس في مكانه ينظر إليها وهي تغادر، وكأنها المرة الأخيرة التي يراها بها، ويخنقه ذلك الضيق الذي يشعر به.. تلك هي المرة الأولى التي يشعر فيها بالهزيمة.. إحساس لم يَجْتَحْهُ من قبل.. لم يَنْتَبِهْ في أيّة مرة تقدّم إليها لخطبتها ورُفض فيها.. كان يعلم أن هناك ما يُدعَى (الأمل) الذي يجعله يتقدم إليها ولو مائة مرة حتى يقبل أبوها..

يتذكر تحمله لنظرات الناس إليه، وسخريتهم منه حين كان يخبرهم بأنه سيتزوجها ذات يوم، وستبقى قصة حب يخلّدها التاريخ.. كان يظن نفسه أحمقَ حين طلب منها ذات مرة أن يتزوجها دون معرفة أبيها حتى رفضت، ودام خصامهما لمدة طويلة حتى اعتذر منها مجددًا.. ولكنه أكثر حماقة الآن.. «إنها ستوافق على ذلك الطبيب كما وافق أبوها ربما أرادت أن تقابلني تلك المرة كي ترضي ضميرها فقط لا غير».. هكذا حدّث نفسه.. حب سنوات يذوب كقطعة جليد في ثوانٍ قليلة..

حتى قطع تفكيره صوت رنين هاتفه الخلوي.. وحين قام بالرد وجد صاحب العمل الذى يعمل لديه يعنفه لتغيبه، فلم يتمالك «خالد» أعصابه، وأخبره أنه لن يعمل لديه مجددًا.. وأغلق الخط على الفور..

***

بعدها عاد «خالد» إلى بلدته . كان يمشى في شوارعها مطأطأ الرأس.. يشعر بطعم الهزيمة في حلقه.. لا يريد أن يتحدث إلى أحد.. حتى وصل إلى بيته ، ودخل غرفته ثم نظر إلى حوائطها المليئة بتلك الأوراق التى كان يعلقها دائمًا.. أوراق طلبه للزواج من «منى» ورفضه في الثماني مرّات ..

وقف أمام كل ورقة على حدة، ونظر إليها وهويسخر من نفسه.. ويضحك بصوت عالٍ كأنه أصابه الجنون.. حتى قام بتمزيقها كلها.. ثم جلس على أرضية الغرفة واضعًا رأسه بين يديه.. يسبح بين ذكرياته مجددًا، حتى انتفض ذاهبًا إلى حجرة جده.. رفيق حياته..حتى وجده قد أنهى صلاته.. فسأله على الفور:

- أنت قلت لي إن فيه حد عنده كلام كتير عن السرداب..

رد جده في هدوء:-أنت خلاص قررت؟

«خالد»:- أيوه.. أنا عاوز أنزل السرداب..

جده:- عشان «منى»؟!!

تمالك «خالد» نفسه:- «منى» خلاص راحت من إيدي .. وخلاص سبت شغلي.. ولازم أنزل..

ثم أكمل:

- لازم ألاقي حاجة واحدة في حياتي أقدر أحكيها لولادي من بعدي.. عاوز أحس مرة واحدة إني بطل قدّام نفسي.. إحساسي بفشلي بيقتلني..

سأله جده مجددًا:

- مش خايف إنك مترجعش زي أبوك وأمك؟

رد «خالد»:- صدقني.. الحاجة الوحيدة اللي كنت خايف عليها.. إني أسيبك لوحدك، لكن طالما أنت بتشجعني، مفيش مكان لأي خوف في قلبي..

ابتسم جده:- والعفاريت.. والأشباح.. وإنه مسكون؟

«خالد»:- معتقدش إني هلاقي عفريت أصعب من بني آدم.. أنا خلاص قررت إني هنزل.. وكان عندك حق لما قلت لي إن «منى» مش

هي السبب.. بالعكس بعد ما «منى» راحت من إيدي بلحظات، زاد حبي للنزول أكتر من الأول..

ثم أكمل:- يمكن ألاقي في السرداب الذكرى اللي تخليني أقدر أنسى إهانة ست سنوات لنفسي.. ثم نظر إلى جده:

- مين الراجل ده.. وفين ألاقيه.. فابتسم جده:

- اطّمن.. هو سمع كل كلامنا.. ويمكن اتأكد إنك عاوز تنزل السرداب فعلًا..

***

نظر «خالد» في دهشة إلى جده.. وكأنه لا يفهم شيئًا، حتى دخل عليهما رجل عجوز يقترب في سنه من جده.. وعلى الفور تحدث جده وأشار إلى العجوز:

- أعرّفك.. ده مجنون السرداب.. أكيد تعرفه..

نظر إليه «خالد»:

- أيوه طبعًا.. الحاج «مصطفي أصلان» .. ولا أنت مفكّرني من بلد تانية؟

أكمل جده:

«مصطفي» كان أوّل واحد فكّر إنه ينزل السرداب من خمسين سنة.. وكنا مسمينه مجنون السرداب.. وكان دايمًا يقول إن عنده معلومات محدّش يعرفها عن السرداب غيره، ومستنّي اليوم اللي يقرر فيه حد ينزله.. بعد ما أبوك وأمك مرجعوش. ثم تركهما كي يكملا حديثهما بمفردهما..

***

نظر «خالد» إلى ذلك العجوز.. وتعجب مما قاله جده، فإنه يعرفه منذ سنوات عدة.. ولكنه لم يكن يعلم أنه مجنون السرداب الذي طالما سمع جده يتحدث عنه وهو صغير.. حتى قاطع صمته العجوز:

-جدك حكى لي أد أيه أنت عاوز تنزل «سرداب فوريك».. وأنا اتأكدت دلوقتي..

رد «خالد»:- أيوه.. بس أنا أول مرة أسمع إن السرداب اسمه «سرداب فوريك»..تابع العجوز حديثه:

- هو ده الاسم الحقيقي للسرداب.. ولو بحثت عن الاسم ده في أي مكان استحالة تلاقي أي معلومة عنه..

ثـم تنهّـد وأكمـل:- يمكـن النـاس بتفكّرنـا أنـا وجـدّك في عـداد المجانين.. ومش مصدّقين إننا مـن خمسين سـنة نزلنـا السرداب فعـلًا.. بس دي عندهم حق فيها..

انطبعت الدهشة على وجه «خالد» مجددًا حتى سأله:

- أيه؟.. عندهم حق.. يعنى أيه؟

أكمل العجوز:- أيـوه.. عنـدهم حـق.. يمكـن دي معلومـة أنـا الوحيـد الـلي أعرفهـا.. إن مـن خمسين سـنة لمـا نزلنـا احنـا الأربعـة.. منزلناش سرداب فوريك.. ويمكـن عـشان كـده طلبـت مـن جـدك إنـه يسيبنا لوحدنا.. لإني مش عاوز أحطم نقطة فخره بنفسه..

قاطعه «خالد» -ومازال مندهشًا-:- أمّال النفق اللي نزلتوه ده كان أيه؟

العجوز:- النفق ده مجرد طريق لسرداب فوريـك.. والـدليل عـلى كلامي إن النفق على عمق مش كبير.. وله مسافة معينة، والدليل الأكبر إن لمبات الجاز انطفت بعد دقايق من نزولنا..

ابتسم «خالد»:- آه .. العفاريت..

ضحك الرجل:

- لأ.. تقصد التهوية.. النفق غير السرداب.. الأكسجين في النفق قليل.. وتقريبًا ممكن ميكونش موجود لو باب النزول اتقفل.. ووقتها لما لمبات الجاز انطفت أنا قلت عفريت.. والكل خاف وجري.. بس بعد كده اكتشفت إنه كان خيال حد فينا.. ومن جوايا كانت سعادتي ملهاش وصف.. لإني حسّيت إني حطّيت رجلي على أوّل طريق السرداب.. وفضلت حاطط أمل لنفسي إني هوصل للسرداب في يوم.. بس السنين فاتت، والمرض حاصرني، وفضلت مستني اليوم اللي ينزل فيه حد غيري السرداب.. ويحقق حلمي.. ثم أخرج كتابًا قديمًا كان معه.. وأكمل:

- الكتاب ده من نسخة واحدة.. اللي كتبه شخص نزل السرداب قبل كده.. لقيته بالصدفة في كتب والدي لما كنت شاب.. لكن للأسف عامل الزمن أثّر عليه قبل ما ألاقيه .. فكان السليم منه تقريبًا عشر ورقات بتتكلم عن سرداب فوريك.. ثم أعطى الكتاب لـ«خالد».. وأشار إليه أن يقرأ سطور الكتاب بصوت عالٍ..

***

أخذ «خالد» الكتاب ليقرأ وريقاته.. بينما جلس العجوز ليستمع إليه، ويحتسي كوب الشاي الذى برد بالفعل.. وبدأ «خالد» في قراءة سطوره المكتوبة بخط اليد.. والذى تحدث عن «فوريك» أحد الأثرياء الذين تواجدوا في العصر المملوكي.. وقد كان يمتلك تلك المنطقة التي يوجد بها بلده -البهو فريك- .. والتي كانت تسمى وقتها.. «بهو فوريك» .. وما يحيطها من بلدان، وقد أمر أن يتم حفر ذلك السرداب على عمق كبير كي يكون ملاذًا له ولأهل مدينته إن تعرضت بلاده لأي غزو.. واستغرق حفره وتشييده أكثر من خمسة عشر عامًا.. وقد خُزِّنت به ثروات كثيرة منذ ذلك الزمن..

ثم تحدث -من قام بكتابة هذا الكتاب- عن رحلته للسرداب.. وعن ذلك النفق الذى لا توجد به تهوية.. ولابد من تجاوزه في أسرع وقت إلى السلم الحقيقى للسرداب .. والذى يمتد لأكثر من ثلاثين مترًا تحت الأرض.. ومنذ تلك اللحظة فلن توجد أدنى مشكلة بالتهوية.. فقد صُمِّم ذلك السرداب بكل براعة.. لا يُعرَف كيف تمت تهويته بتلك الطريقة.. أما تعجُّب «خالد» فقد ازداد حين قرأ أن السرداب لا يكون مظلمًا يوم يكتمل البدر في السماء رغم وجوده تحت الأرض.. إنهم

مهندسو الماضي.. يا لها من براعة.. حتى انتهت العشر ورقات حين كتب صاحبه:

- «كنت أظن أن الكنز الحقيقي هي الثروات التى خُزِّنت به.. ولكني اكتشفت ما هو أثمن من ذلك بكثير، وأعظم من كنوز فوريك.. إنني اكتشفت...» حتى انتهت العشر ورقات دون أن تكتمل الجملة!!

***

نظر «خالد» إلى العجوز في لهفة:

- اكتشف أيه؟

فأخبره العجوز أنه لا يعلم.. إنه وجد الكتاب على تلك الحالة.. ويظل السؤال قائمًا «ما الذي اكتشفه صاحب هذا الكتاب؟» والذي ظل يشغله طوال خمسين عامًا..ثم نظر إلى «خالد»:

- لو كنت عاوز تكتشف اللي اكتشفه.. لازم تكون في السرداب الليلة دي..

«خالد»:- الليلة دي؟!!

العجوز:- أيوه.. الليلة دي القمر بدر.. وده التوقيت اللي بيكون فيه السرداب فيه إضاءة على حسب كلام الكتاب..

صمت «خالد» قليلًا.. ثم نظر إليه..

-وأنا مستعد أنزل.. مستعد لفرصة حياتي..

***

كانت الساعة تقترب من السادسة حين تركه العجوز وغادر.. وترك معه ذلك الكتاب الذى تصفّحه لأكثر من مرة.. ومع كل مرة تزداد رغبته في نزول السرداب.. يدفعه ذلك الفضول إلى معرفة ما اكتشفه كاتبه.. يشعر أنه يمتلك سرًّا من أسرار الزمان.. ويسأل نفسه.. هل اكتشف كنوزًا لا حصر لها؟.. هل توجد آثار بالأسفل، وأكون أنا مكتشف القرن الحادي والعشرين؟.. وظل هائمًا في أحلام اليقظة..

***

اقتربتِ الشمس من المغيب فصعد أعلى بيته.. ونظر إلى بلدته.. ينظر إلى تلك الأراضي الزراعية.. وإلى الأشجار العالية، والطيور التي تزيّنها.. ينظر إلى البيوت المجاورة وكأنه يراها لآخر مرة.. يستنشق نسيم بلده العَطِر، ويتحدّث إليه.. ربما يكون آخر نهار لي هنا.. أتمنى ألا يكون.. حتى عاد إلى حجرته ليتم استعداده لرحلته..

***

مر الوقت، ودخل الليل، وزُيِّنتِ السماء بالبدر.. وها هو ينتظر حتى يسكن الهدوء البلدة.. وهو يعلم أنه لن ينتظر كثيرًا.. فعادةً ما يدبُّ الهدوء البلدة بحلول العاشرة مساءً على الأكثر.. لا يتأخّر بها سوى صديقه دكتور «ماجد منير»، والذي يغلق صيدليته في وقت قد يتجاوز الثانية عشرة.. إنه لا يريد أن يراه أحد وهو متّجه إلى ذلك البيت المهجور في أطراف البلدة..

حتى دقتِ الساعة الواحدة صباحًا.. واستعد للرحيل، ونظر إلى جده مبتسمًا ومودِّعًا له:

- إن شاء الله هرجع..

ابتسم جده:

- أكيد هترجع إن شاء الله.. أنا ابن ابني بطل.. ثم طلب منه أن ينتظر لحظة.. وقد أخرج ذلك الصندوق الخشبى.. وأخرج منه ذلك (الألبوم) القديم.. فسأله «خالد»:

- أيه ده؟!!

قام جده بتقليب بعض صفحاته، ثم وقف على تلك الصورة التي توقف أمامها من قبل وتحدّث إليه:

- عارف مين دول؟

نظر «خالد» ومازالتِ الدهشة تتملكه .. حتى أكمل جده:

- دى صورة أبوك وأمك.. كانت آخر صورة لهم قبل ما يسيبوني.. ثم دمعت عيناه..

نظر «خالد» إلى الصورة.. ودمعت عيناه هوالآخر.. وظل متأمِّلًا بها لفترة:

- أول مرة أشوف صورتهم..

أكمل جده:- كنت مستني اليوم ده.. وفضلت معذِّب نفسي عشان اليوم ده.. ثم أعطاه الصورة، ومسح بيده دموع «خالد»، واحتضنه.. فهمس «خالد» في أذنه:

- هرجع لك يا «عبده».. هرجع.. ثم غادر..

***

كان الهدوء يسود البلدة.. ولم يكن يسير بشوارعها أحد سوى «خالد» والذي كان يحمل شنطة في كتفه، بها من الطعام ما يكفيه لعدة أيام، ومصباح للإنارة، والكتاب الذي أعطاه له العجوز، وبعض

الأوراق والأقلام، اعتقاد منه أن هناك ما يحتاج لتدوينه.. وقد وجد عدم حاجته لكاميرا تصوير؛ فوجود هاتفه الخلوي يغنيه عن ذلك..

كان يسير مسرعًا إلى أطراف البلدة حيث ذلك البيت المهجور.. وما أن اقترب منه ومن سوره العالي حتى عزم على تجاوز ذلك السور..

***

أما جده فكان يجلس وحيدًا يقرأ في كتاب الله، ويدعو ربه أن يعود به سالمًا.. حتى سمع طرقات على باب بيته.. وقد ظن أن «خالدًا» عاد من جديد.. وما إن قام ليفتح الباب حتى وجد «منى» في وجهه.. وقد اندهش حين وجدها أمامه في ذلك الوقت المتأخر من الليل.. حتى سألته:

- فين «خالد»..؟!! ومش بيرد على تليفونه ليه؟!

رد جده:- ليه؟!

أجابت «منى» في فرحة:

- خلاص يا جدو..قدرت أقنع بابا إننا نتجوز أنا و«خالد» .. ومش قادرة استنى للصبح عشان أقولّه.. خايفة يكون لسة زعلان من الصبح، فابتسم العجوز ثم صمت..

تجاوز «خالد» سور البيت المهجور.. وقد أنار مصباحه حين وصل إلى مكان الصخرة الذى وصفه له جده بالتفصيل.. والتي كان يصعب أن يصل إليها دون وصف جده له.. حتى حاول إزاحتها فلم يستطع في البداية رغم قوته البدنية.. فحاول مرة أخرى دون أن يستطيع.. فصاح بنفسه أنه لن يستسلم.. وعاد للمحاولة مرة ثم مرة ثم مرة .. وقد سال العرق من جبينه، ولكن دون جدوى..

حتى وجد لوحًا من الخشب ففكر أن يكون وسيلة لإزاحة الصخرة.. وبدأ يحاول من جديد ويصرخ مجددًا لن استسلم.. ويدفع بقوة، ويضغط أسنانه ببعضها.. ويدفع مجددًا اللوح الخشبي.. ويصيح، ويدفع.. حتى تحركتِ الصخرة بعض الشيء تبعها سقوطه على الأرض.

ما إن تحركتِ الصخرة تلك الحركة الضئيلة حتى سَهُل تحريكها بعد ذلك.. ودفعها رويدًا رويدًا.. بعيدًا عن ذلك الباب الحديدي الذي كان يرقد أسفلها.. حتى سقط على ركبتيه.. وقد ازدادت ضربات قلبه، وزادت سرعة تنفُّسه.. ويقول مبتسمًا لنفسه:

- اجمد يا بطل .. احنا لسه في البداية..

بعـدها نظـر إلى البـاب الحديـدي الـذى كـان جـزءًا مربَّعًـا مـن الأرضية.. وقد سمى الله.. وقام بفتحه، فلم يكن موصدًا بأي نوع من الأقفال سوى الصخرة.. وما إن فتحه، وأحدث صوتًا يدل على غلقه لمدة طويلة.. ووجه ضوء المصباح بداخله حتى وجد سلّمًا عموديًا إلى الأسفل.. وتحدث إلى نفسه مجددًا ومشجعًا لها:

- بسم الله نبدأ طريقنا إلى السرداب..

بعدها بلحظات بدأ نزول ذلك السُّلّم.. وما إن نزل حتى فوجئ بالباب ينغلق مجددًا.. وكأنه حُبس.. فعلم أن اللوح الخشبيَّ الذى كان يدعم فتح الباب قد كُسِر.. ولكنه لم يهتمَّ بذلك.. ما شغل باله هو أن يتجاوز النفق في أسرع وقت.. وتابع نزوله دون أن ينظر لأسفل.. بل يخطو درجة وراء الأخرى.. حتى وجد نفسه داخل ذلك النفق المظلم.. ولا يوجد به ضوء سوى ضوء مصباحه.. فتحرّك بضع خطوات يتحسس طريقه.. يمسك المصباح بيده اليمنى، ويزيح شباك العنكبوت الكثيفة بيده اليسرى.. حتى سار لعدة أمتار فبدأ يشعر بسرعة ضربات قلبه.. يحاول أن يرى نهاية ذلك النفق.. ولكن دون جدوى، فشباك العنكبوت حالت دون ذلك..

تقدم «خالد» في الظلام أكثر وأكثر.. وحاول أن يُسرع.. يبحث عن سلم السرداب الذي أخبره به العجوز.. حتى شعر بضيق صدره.. فأسرع في تحركه..حتى قلّ الهواء بصورة شديدة.. وبدأ يضع يده على رقبته من الاختناق.. الاختناق يزداد .. ولا يجد ذلك الطريق إلى السرداب.. يجري كالمجنون وقد خرت قواه.. يتحسسُ حوائط النفق بيده.. يبحث عن أية فجوة بها.. ولكن لا فائدة.. يسأل نفسه.. أين أنت أيها الطريق؟.. يعلم أنه لن يستطيع حتى العودة إلى سلم النفق.. فقد يموت مختنقًا قبل أن يعود إليه.. يسرع في طريقه إلى الأمام.. يبحث في كل مكان.. على الجانبين، وأعلى، وأسفل.. ولكنه لا يجد شيئًا.. حتى سقط على الأرض.. وسقط بجانبه مصباحه، وصرخ بصوت واهن:

- لا يوجد سرداب.. لا يوجد..

ثم صمت .. وأمال رأسه جانبًا.. وكاد يغمض عينيه مستسلمًا.. حتى نظر بعيدًا إلى بقعةٍ أضاءها مصباحه الملقى بجواره.. فابتسم ابتسامة يشوبها إعياء شديد، وتحدّث بصوت خافت:

- سرداب فوريك.. ثم أغمض عينيه للحظات حتى فتحها مرة أخرى .. ونظر مجددًا إلى ألواح خشبية متراصَّة ظهرت في بقعة الضوء، وكأنها بابٌ صغيرٌ يوجد بأحد جانبي النفق..

***

(٣)

كان الباب الخشبي يبعد عن «خالد» عدة أقدام.. ومازال «خالد» مُلقًى على ظهره من شدة الإعياء حتى انتفض مجددًا، وتحرّك بجسده تجاه ذلك الباب.. ويزحف كأنه إحدى الزواحف.. لا يقوى أن يقف على قدميه، وينازع اختناقه كمن ينازع الغرق.. يتحرّك بجسده، ويدفع بقدميه، ويستعين بذراعيه.. وقد وضع مصباحه بين فكّيه..

يقاوم أكثر وأكثر.. ويحّدث نفسه أنه الأمل، إنه سرداب فوريك.. حيث الهواء.. حيث الحياة، يهذي بكلمات يقوّي بها نفسه.. ويقترب أكثر وأكثر من الباب.. ويدفع بقدميه في قوة.. حتى توقّف جسده مرّة أخرى بعدما خرت قواه مجددًا، ولم يكن يتبقى سوى أقل من قدمين نحو الباب، ولم يَعُد يقوى على المقاومة..

تنظر عيناه إلى الباب.. ويحاول أن يَمُدَّ ذراعه إليه لكنها لا تلمسه وكأنها استسلمت.. حتى صرخ صرخة قوية، وكأنه يجمع ما تبقى لديه من قوّة، وقذف بجسده تجاه الباب كصخرة اندفعت نحو باب خشبي قديم قد أذابه الزمن.. حتى انكسرت ألواحه.. واندفع «خالد» بداخله

ليجد جسده يهوي على سلم خشبي مغمضًا عينيه.. ويتدحرج كما تتدحرج الكرة حين تسقط على درجات سلم.. ولم يستطعِ السيطرة على جسده على الإطلاق.. ويرتطم بين الحين والآخر.. ويزداد سقوطه أكثر وأكثر.. ثم هدأ ارتطامه قليلًا حتى توقّف.. وقد فتح عينيه ليجد نفسه في مكان مختلف على الإطلاق..

***

فتح «خالد» عينيه.. فوجد نفسه ملقًى على إحدى درجات السلم العريضة.. وقد انتعش صدره بالهواء، وكأنه ارتوى ببئر من الماء بعد ظمأ شديد.. وزاد سروره حين وجد نفسه يرى كل شيء دون الاستعانة بمصباحه، وقد زال ظلام النفق.. حتى وقف على قدميه وصرخ:

- أنا في سرداب فوريك.. أنا في سرداب فوريك..

بعدها نظر إلى أسفل حيث لم ينته السلم بعد .. وقد أسرع إلى أسفل، يخطو درجاته في أمل.. لا تعوقه آلام ارتطامه حين سقط.. يريد أن يكتشف كل شيء في وقتٍ قليل قبل أن يختفي البدر.. ويتحدّث إلى نفسه؛ إن كل ما ذكره الكتاب حتى الآن قد وجده.. فالهواء موجود بالفعل، وإضاءة البدر تنير له طريقه، وكأنها جُمِعَت لتزداد قوّة إضاءتها

داخل السرداب.. يالها من براعة هندسيّة.. ولكن يظل سؤاله إلى نفسه.. «ماذا اكتشف صاحب الكتاب؟!».. حتى انتهى السلم.. ووصل إلى نهايته، فوجد نفسه في السرداب..

***

وجد «خالد» نفسه أمام نفق كبير أكبر كثيرًا من النفق الذي مرّ به سابقًا.. فارتفاعه يقترب من عشر أمتار.. واتساعه يبلغ مثل ارتفاعه.. حتى سار به، وينظر إلى جدرانه الضخمة في دهشة.. وكأنه في مزار سياحي.. وقد أخرج قلمه وأوراقه.. وأخذ يكتب بعض السطور عما يراه.. ويتقدم أكثر وأكثر، ويسأل نفسه كيف يوجد هذا السرداب الضخم أسفل بلده ولا يعلم أحد شيئًا عنه سوى صاحب الكتاب المجهول، وبعض الأشخاص الذين لن يصدِّقهم أحد؟!!.. إنه قد يكون أعظم اكتشاف في العصر الحديث.. وقد يجعل من بلده مزارًا سياحيًا.. يبدو أن الكاتب قصد باكتشافه السرداب نفسه.. ويسير منبهرًا ويتقدّم.. ويضحك بهستيرية، لقد انتهى الألم.. ولعله يجد أحد الكنوز الآن..

***

يبحث في كل جوانب السرداب.. لا يريد أن يترك شبرًا واحدًا يفوته.. حتى ارتطمت قدماه بشيء ما.. وما إن نظر إليه حتى انتفض قلبه حين وجده هيكلًا عظميًا لأحد الأشخاص.. وقد كانتِ المرة الأولى التي يرى فيها مثل هذا الهيكل، ولكنها لم تكنِ الأخيرة.. فكلما تقدم وجد أكثر وأكثر.. حتى بدأ الخوف يتسرب إلى قلبه.. وكأن تلك الهياكل تتحدث إليه، وأنها مصير كل من دخل هذا السرداب.. وحدّث نفسه.. ربما يكون أحد تلك الهياكل لأبيه أو أمه.. ولكنه تمنّى أن تكون الحقيقة غير ذلك..

***

بعدها شعر «خالد» أن الإضاءة تقلّ شيئًا فشيئًا من خلفه.. فنظر إلى ساعة يده فوجدها قاربت الخامسة فجرًا.. وعلم أن البدر قد بدأ في زواله.. ولا يعلم ماذا سيحدث بعد ذلك.. ما ذكره الكتاب أن السرداب يظل مضاءً وقت وجود البدر.. ولم يذكر شيئًا آخر، وتمنّى أنه لو كان يمتلك الكتاب كلّه..

حتى مر بعض الوقت.. وتلاشت معه إضاءة السرداب تدريجيًا.. ولكنه لم يعط اهتمامًا لذلك.. وتقدم أكثر وأكثر.. حتى وجد صورة

لشخص.. تبدو على ملامحه الشراء.. منقوشة على أحد جداري السرداب ، فتحدث إلى الصورة مبتسمًا:

- أكيد أنت «فوريك».. أحب أعرفك بنفسي.. أنا «خالد حسني»، مكتشف سردابك العظيم.. واللي بسببك هيعيش أحلى أيام حياته..

ثم ضحك.. وأخرج هاتفه الخلوي ليلتقط له صورة.. وما إن التقط هاتفه الصورة حتى شعر بهزة عنيفة تحت قدميه تزامنت مع بدء الظلام من خلفه.. حتى نظر خلفه فجأة فوجد جدران السرداب تنهار.. ويقترب الانهيار منه بشدة، فعاد بظهره للخلف بضع خطوات.. بعدها لم يجد أمامه سوى أن يلتف ويجري للأمام..

***

يجري «خالد» سريعًا.. وانهيار الجدران يسرع خلفه، وكأنه فريسة يلاحقها أسدٌ مفترس.. لا يصدق عينيه.. يشعر بأنه في حلم ما، ويسرع.. وتسمع أذناه صوت ارتطام صخور الجدران الضخمة.. لو أصابته صخرة واحدة لقتلته...حتى سقطت شنطة كتفه وما بها.. ولكنه لم يعبأ بذلك.. وواصل عدوه...تساعده قدماه الطويلتان وخطواته

الواسعة.. ويجري إلى حيث لا يعرف مصيره..يجرى إلى المجهول.. ويصرخ بداخل نفسه.. كيف يعود إلى بلده مجددًا؟!.. إنه الهلاك .. إن السرداب ينهار.. ماذا حدث بالأعلى..هل هناك زلزال ما ضرب الأرض بالأعلى؟!..

حتى وجد نفسه أمام طريقين قد انقسم إليهما السرداب... واندفع إلى أحدهما دون رغبته.. بل دُفِع إليه بعدما انهار الطريق الآخر قبل أن يصل إليه.. وكأن الانهيار يتحكم في مساره.. حتى فوجئ بنفسه يجري إلى منحدر يتجه إلى أعلى.. ويلاحقه الانهيار أسرع وأسرع يريد أن يبتلعه..

يحاول أن يقاوم صعوبة الصعود.. ويتقدم، ومازال النور أمامه والظلام من خلفه.. ويخطو بقدميه سريعًا.. حتى وجد نورًا شديدًا على مرمى بصره، وكأنه نور النهار الذى يعرفه جيّدًا حين كان يفتح نافذة حجرته صباحًا.. فأسرع إليه.. «إنها النجاة مجددًا .. لابد وأنه مخرج آخر للسرداب.» هكذا حدَّث نفسه.. وما زال الظلام والانهيار يلاحقه حتى أسرع، وقد اقترب من الفتحة وقفز خارجًا منها لتنهار هي من أسفله.. وتغلق وكأن الأرض قذفته خارجها..

وجد «خالد» نفسه ملقى على الأرض.. ورأسه منغمس في رمال.. فرفع رأسه، وأزال الرمال عن وجهه، وعن عينيه.. ونظر إلى السماء وضحك.. وشكر الله بعدما ظن أنه عاد مرة أخرى إلى أعلى.. وأنه قد نجا من انهيار ذلك السرداب الذي يبدو ملعونًا.. حتى نظر إلى السماء مجددًا.. ولاحظ زرقتها وصفاءها إلى درجة لم يرها من قبل.. ثم نظر حوله فوجد رمالًا في كل مكان، وعلى مرمى بصره، وكأنها صحراء.. حتى قام وقد دار بجسده ليرى ما حوله.. فلم يجد سوى صحراء واسعة تظلها سماء في غاية الصفاء.. حتى ضرب رأسه بيده، وتحدّث بصوت عالٍ:

- فوق يا «خالد» ..أنت بتحلم ولا أيه.. أنت فين ؟!.. وأيه اللي جاب الصحرا دي هنا..

ثم نظر حوله مجددًا .. ولا يجد بها إلا نفسه.. ولا يصدق ما يراه.. وسأل نفسه مجددًا أين هو.. ثم سار بعض الخطوات في كل اتجاه.. ولكن دون جدوى.. إنها صحراء لا يوجد بها أحد .. حتى جلس مكانه في دهشة.. ونظر إلى فتحة السرداب التى خرج منها فوجدها وكأنها لم تكن.. فضحك ساخرًا.. وتحدّث في خيبة أمل:

- باين السرداب ده كان معمول عشان نعمّر الصحرا.. والكنز وفوريك ده كان مقلب.. ويا ترى أنا في الصحرا الشرقية.. ولاّ الغربية..ولاّ في سينا؟!!.. ولا أكون عبرت الحدود .. ورحت ليبيا.. أوالسعودية.. ثم صرخ وكأنّه أصابه الجنون:

- أنا فين؟!!!..

***

مرت ساعات على جلوسه هكذا.. يجلس لا يعلم أين يذهب.. وقد خلع قميصه، ووضعه فوق رأسه كي يقيه حرارة الشمس..وقد اندهش حين نظر إلى ساعة يده فوجد عقاربها توقفت عن الحركة .. ولم يفكر بهذا الأمر كثيرًا حيث فوجئ برجلين يجريان في الصحراء بعيدًا عنه.. فأسرع إليهما على الفور.. وبدأ الأمل يدب في قلبه، وحدّث نفسه وهو في اتجاهه إليهما:

- أكيد دول عارفين احنا فين وهرجع لبلدي تاني..

حتى اقترب منهما.. ولاحظ زِيَّهُما الغريب وشدة إعيائهما، وكأنهما مريضان بمرض مزمن شديد..ومازالا يجريان بسرعة.. حتى أوقفهما.. وسألهما:

:- لوسمحتوا، أنا محتاج مساعدتكم..

ولكنهما تركاه.. وواصلا جريهما، فأسرع خلفهما ليوقفهما مجددًا:

- أنتو بتجروا ليه؟!.. فنظر إليه أحدهما:

- ألا ترى ما نحن به؟!

تعجب «خالد» من لهجتهما الغريبة.. وابتسم ساخرًا وكأنه يقلده:

- أجل أرى يا سيدى.. ثم سأله:

- احنا في السعودية ، صح؟!

نظر إليه الرجل متعجِّبًا:

- ماذا تعنى السعودية؟!!

ابتسم «خالد».. وقد زفر زفيرًا طويلًا.. وتحدّث إلى نفسه:

- دول في الضياع..

ثم سأله الرجل الآخر:

- ءأنت غريب؟

فأجابه «خالد» على الفور:

- أيوة أنا غريب .. ثم أكمل..

:- احنا فين؟.. وانتو مين؟..

أجابه أحدهما:

- إننا فقراء.. وقد هربنا إلى الصحراء.. ألا يوجد معك طعام؟!

أجابه «خالد»:- لا للأسف.. كان معايا بس ضاع مع الشنطة..ثم وضع يده في جيبه، وأخرج ورقة من فئة العشرة جنيهات.. وأكمل:

- أنا معايا فلوس ممكن تشتروا أكل لو قلتوا لي احنا فين.. وازاي أرجع بلدي..

خطف أحدهما ما أخرجه «خالد» من نقود.. ثم وضعها بفمه وأكلها.. فاندهش «خالد» ، وسأله متعجِّبًا:

-أنت جعان للدرجة دي؟.. أنت أكلت الفلوس !!

فأجابه ذلك الذي سأله عن السعودية:

- ماذا تعنى بالنقود.. إنها ورقة..وقد أكلها صديقي الجائع، ثم أكمل:

- يبدو لي أنك كريم، ولهذا تأكّدت أنك غريب عن هنا.. وأشعر بأنك غني للغاية..

***

ضحك «خالد».. ونظر إلى نفسه، وملابسه البالية والتي غطّاها تراب النفق والسرداب، وحالته التي يُرثَى لها.. وسأل نفسه.. أي غِنًى

يتحدث عنه ذلك الأبله؟.. عشرة جنيهات رآها شعر بأنني غني.. ثم تجاوب معهما وكأنهما مجنونان..وسألهما مجددًا، وقد ضاق صدره:

- دلوقتي أنا عاوز أعرف أنتو هتعيشوا ازاي في الصحرا دي؟! ، وهربانين من أيه؟...وسؤالي الأهم.. احنا فين أساسًا؟..

أجابه الذي أكل النقود في تعب:

- إننا فقراء، وستكون الصحراء أفضل لنا كثيرًا من أرض زيكولا.. حتى لا يأتي يومنا كمن سبقونا.. لعل الحظ ساعدنا، وهربنا بأعجوبة وتركنا من نحب قبل هذا اليوم..

اندهش «خالد» من الاسم :

- أرض زيكولا؟!!

سأله الرجل الآخر:

- ألا تعرف أرض زيكولا؟!

أجابه «خالد»:- لا.. فين زيكولا دي؟.. أنا مش شايف إلا صحرا في كل مكان..

فأكمل الرجل:

- يبدو أنك غريب عن الدنيا كلها..من يوجد في هذا الزمان ولا يعرف أرض زيكولا ؟! ثم أكمل الآخر محدِّثا صديقه:

- إنهم الأغنياء، يسخرون منا دائمًا هكذا.. ثم أشار إلى «خالد» أن يتحرك عدة أمتار في اتجاه يده:- إنها هناك بالأسفل.. أيها الغني..

ثم تركاه وواصلا جريهما في الصحراء.. وقد تحرّك «خالد» إلى الاتجاه الذى أشار اليه الرجل.. محدِّثا نفسه:

- دول مجانين رسمي..بس لازم أسمع كلامهم، مفيش حل تاني..وواصل تحرُّكه.. حتى وجد نفسه على حافّة هضبة عالية، فنظر إلى أسفل حتى وجد مدينة كبيرة ذات منظر بديع من أعلى.. بها مبانٍ شتَّى، وتتخلّلها مساحات خضراء وكأنها أراضٍ زراعيَّة، ومسطحات من الماء..

***

(٤)

اتسعت عينا «خالد» من الدهشة، وسأل نفسه كيف توجد تلك المدينة بجوار تلك الصحراء الجرداء؟!..حتى قاطع تفكيره صياح أحد الرجلين إليه مُجدِّدًا:

- إياك أن تذهب إلى زيكولا.. إياك.. وواصل جريه مع صاحبه..

***

لم يُعطِ «خالد» اهتمامًا لذلك المجنون، كما سمَّاه.. وظل ينظر إلى تلك المدينة من أعلى..ويسأل نفسه مجددًا، أين هو من العالم؟..وأين توجد أرض زيكولا تلك؟.. حتى ابتسم حين نظر بعيدًا إلى أسفل فوجد طريقًا طويلًا مُمهَّدًا إلى تلك المدينة..به كثير من التعرُّجات ومرتفعًا إلى أعلى، حيث يمرّ بالقرب من تلك الهضبة التي يقف عليها.. فلم يجد أمامه سوى أن يسرع باحثًا عن ذلك الطريق.. يريد أن يذهب إلى المدينة في أسرع وقت بعدما حلَّ به الجوع والعطش، وبعدها يحاول أن يعرف أين هو..

***

بعدها سار «خالد» في الصحراء متجهًا إلى ذلك الطريق الذي شاهدته عيناه.. وقد ظنّ في البداية أنه قريب منه، ولكنه اكتشف غير ذلك تمامًا.. وكُلّما تقدم لم يجد شيئًا حتى اعتقد أنه سراب.. ولكنه تحقّق من وجوده حين وجد عربة يجرّها حصان، وتسير على مقربة منه.. فأسرع في اتجاهها فوجد أمامه ذلك الطريق الذي شاهده من أعلى.. ولكن سائق العربة لم يلحظ وجوده وابتعد بها عن «خالد» الذي واصل تحركه في نفس الاتجاه الذي سلكته العربة..

***

مرَّ الوقت وقد أصبحتِ الشمس عمودية.. وزادت حرارتها، وحلّ الإرهاق والتعب على «خالد».. وبدأت آلام ارتطامه في السرداب تحل عليه مجددًا .. ولكنه تابع مسيره رغم أنه يعلم أن هذا الطريق طويل للغاية، ولابد له من نَيْل قسط من الراحة.. يريد أن يصل إلى هناك في أسرع وقت.. يشعر أن هناك أملًا ما في انتظاره.. حتى سمع صوتًا من خلفه.. وحين التفّ وجد عربة يجرها حصان فأشار إلى سائقها أن أقف.. فأوقف السائق حصانه بالفعل.. فنظر إليه «خالد» في تعب:

- أنا عاوز أروح أرض زيكولا..

فنظر إليه السائق:

- وكم تدفع؟

فوضع «خالد» يده في جيبه.. وأخرج بعض النقود الورقية.. وأشار إلى السائق أن يأخذها.. فنظر إليه السائق في غضب:

- ورق؟!

ثم ألقاها في وجهه.. وتركه وغادر.. و«خالد» لا يفقه شيئًا مجددًا.. وحدّث نفسه بصوت مسموع:

- أيه حكاية الورق دي؟.. البلد دي كلها مجانين ولا أيه؟!

وواصل تحرُّكه مرة أخرى.. فجاءت عربة أخرى وحدث معها مثلما حدث مع العربة السابقة تمامًا.. وتركه سائقها وغادر.. فابتسم «خالد» ابتسامة بها خيبة أمل كبيرة.. «إنها زيكولا أرض المجانين» هكذا حدّث نفسه.. وسار مسافة أخرى وازداد تعبه.. حتى سمع من جديد صوت عربة، ولكنه حين نظر خلفه وجدها عربة ضخمة.. يبدو عليها الثراء، وقد اختلفت عن العربات السابقة من حيث تصميمها وأناقتها.. فرأى أن يوفِّر تعبه.. ولا يشير إليها، ويكمل مسيرته..حتى مرّت بجواره فوجد شابًّا في مثل عمره متشبثًا بمؤخرتها دون أن يراه

سائقها.. وحين وجد «خالد» أشار إليه بيده أن يسرع إلى العربة.. فأسرع «خالد» إلى مؤخرة العربة هوالآخر.. وقد تشبث بها.. ونظر إلى ذلك الشاب في بسمة:- شكرًا.. فهمس الشاب إلى «خالد» ، وقد وضع يده على فم «خالد»:

- اصمت .. كي لا يسمعنا أحد..

***

سارتِ العربة في طريقها إلى زيكولا.. ويصيح سائقها إلى حصانه أن يسرع .. و«خالد» ومن معه ما زالا متشبِّثَين بمؤخِّرتها.. و«خالد» ينظر إلى ذلك الشاب في دهشة من ملابسه.. وأيضًا شعر «خالد» بدهشة ذلك الشاب التي بدت واضحة على وجهه.. حتى اقتربتِ العربة من سور ضخم.. فأشار الشاب إلى «خالد» أن يقفز معه تاركين العربة.. فقفزا.. وما إن نظر «خالد» أمامه حتى وجد سورًا ضخمًا يبدو أنه يحيط بالمدينة.. ويصل ارتفاعه إلى ما يقرب من خمسة طوابقَ، وتزينه نقوش غاية في الجمال.. وبه باب ضخم للغاية، إنه باب زيكولا.. وقد كان مفتوحًا على مصراعيه.. تمر منه العربات مجيئًا وذهابًا.. حتى نظر «خالد» إلى الشاب:

- أنا بشكرك جدًا..

رد الشاب:- لا تشكرني يا أخي.. إننى مثلك تمامًا كادت تقتلني حرارة الشمس..

سأله «خالد»:-أنت من زيكولا؟

رد الشاب:- نعم .. وأنت تبدوغريبًا..

ضحك «خالد»:- أيوه.. أنا من البهوفريك .. بلد جنب المنصورة..

ارتسمت الدهشة على وجه الشاب:- ماذا؟!!

أسرع «خالد» وكأنه يصحح حديثه:

- أقصد مصر .. أنا من مصر..

لم تختف دهشة الشاب:

- ماذا تقصد بمصر؟!.. هل هي في الشمال؟

رد «خالد» في غرابة:

-أنت مش عارف مصر أم الدنيا؟

رد الشاب:- نعم أخي.. لا أعرفها..

صمت «خالد» مفكرًا ثم أجابه وكأنه يريح نفسه من غرابة هؤلاء الناس الذين يقابلهم:

- أيوه مصر في الشمال..ثم سأله:

- احنا فين؟..

رد الشاب:- ألا ترى يا أخي.. إننا في زيكولا.. أرض الذكاء..

لم يتمالك «خالد» نفسه من الضحك:

- أرض الذكاء؟!.. لا فعلًا الذكاء واضح على كل اللي قابلتهم، ثم سأله:

- يعنى تبع دولة أيه؟.. قارة أيه؟

رد الشاب متعجِّلًا:- لا أفهم قصدك.. إنها زيكولا فقط.. والآن لابد أن أتركك.. إنني أضعت اليوم وقتًا من العمل.. ولابد لي أن أقوم بتعويضه..

وقد مد يده مودِّعًا «خالد».. فابتسم «خالد»:

- أنا اسمي «خالد»..

رد الشاب:

- وأنا «يامن».. حظًا سعيدًا في أرض زيكولا.. ثم تركه وغادر..

***

كان «خالد» مازال واقفًا أمام ذلك الباب الضخم للمدينة.. حتى تقدم إليه وما إن مرّ خلاله حتى شعر برعشة قويّة تسرى بجسده، وألم شديد برأسه وكأنه يقتله.. حتى سقط على ركبتيه ممسكًا رأسه بيديه من الألم الذي لم يشعر بمثله في حياته.. وظل هكذا لعدة دقائق حتى بدأ الألم يتلاشى شيئًا فشيئًا، وكأنه لم يحدث ثم تابع مسيره إلى داخل المدينة..

***

سار «خالد» بالمدينة وكأنه يسير بمدينة الأحلام.. ينظر إلى وجوه الناس وتعبيراتهم المختلفة.. منهم من ترتسم البسمة على وجهه، ومنهم من انطبع الحزن على جبينه.. وإلى زِيِّهم الذي انقسم إلى أقسام عدة.. فمنهم من يرتدي جلبابًا وعلى رأسه عمامة، وقد كانوا كبار السن.. أما الشباب والصغار فقد كانوا يرتدون بنطالًا واسعًا من أعلى وضيقًا من أسفل.. وكأنه زِيُّ الصيادين الذى اعتاد أن يراه ولكنه أكثر أناقة.. ومن أعلى يرتدون قميصًا واسعًا مصنوعًا ببراعة من جلود الحيوانات أو من القماش .. أما النساء فقد وجدهن يرتدين فساتين فضفاضة ذات ألوان برّاقة.. وجميعهن لا يضعن شيئًا فوق رؤوسهن.. وقد لاحظ جمال

الكثير من النساء في تلك المدينة.. ولكنه خشي أن ينظر إلى إحداهن .. وهو لا يعلم كيف ستكون ردة الفعل في تلك المدينة..

ويعجبه ذلك التنوّع في الزي.. وتلك الأناقة التي بدت على كل فتى وفتاة بالمدينة.. ويسير بشوارعها منبهرًا بتلك المباني المتلاصقة.. والتي بدت عليها المهارة المعمارية، كانت تمتلك ارتفاعًا واحدًا لا يتجاوز الثلاثة طوابق.. وقد بُنيت من الطوب المحروق والأخشاب

***

أكمل «خالد» مسيره حتى وجد مكانًا يُقدِّم طعامًا.. فسمع أصوات بطنه تناديه، وتُذكِّره بالجوع.. حتى اقترب من ذلك المكان.. وجلس به.. وطلب طعامًا .. ثم جاءه رجل بطعام من الخبز واللحم .. وقال له:

- شكرا لتشريفك لنا أيها الغني..

فابتسم «خالد»:

- تاني غني!!...

ثم أكل وامتلأت بطنه.. وانتظر أن يأتي الرجل ليأخذ نقوده فلم يأتِ ..حتى أكل ومشى.. وقد عادت إليه قوّته مجددًا .. وأكمل سيره في

المدينة حتى وجد مكانًا آخر لصناعة الملابس وبيعها.. فنظر «خالد» إلى نفسه.. ووجد أن يشتري لنفسه زيًّا.. كي لا يكون زِيُّه مختلفًا عن باقي أهل المدينة ..حتى يعرف أين هو.. وقد دخل ذلك المكان.. فسأله من به:

- لست من زيكولا..

فرد «خالد»:

- أيوه..

فأعطاه الرجل زيًّا مناسبًا .. بنطالًا واسعًا.. وقميصًا واسعًا من القطن.. ولم يأخذ منه نقود .. وقال له مثلما قال صاحب المطعم:

- شكرًا لتشريفك لنا أيها الغني..

فابتسم «خالد».. وتذكّر كلام من قابلهما بالصحراء.. وأنه غريب لأنه كريم.. وقال لنفسه إنهما مجنونان بالفعل.. فما وجده من أهل المدينة حتى الآن كرم مبالغ فيه.. حقًّا إنهما مجنونان..

***

يسير بالمدينة بزيّه الجديد.. ويقلب عينيه هنا وهناك..وقد لاحظ شيئًا لم يفهمه، وهو أن كل مكان للبيع والشراء يجد مكتوبا عليه أرقام

ووحدات .. عشرة وحدات أو خمس.. أيَّة وحدات تلك.. لا يفهم.. حتى أكمل مسيره وقد حلّ الليل.. ففوجئ بأن تلك المدينة رغم ما يبدو عليها من الثراء إلا أنها لم يصلها الكهرباء بعد.. ولكنه اندهش حين أضيئت المدينة بالنيران .. وانتشر الضياء في كل مكان .. ولا تختلف إضاءتها عن المصابيح التى يعرفها.. تلك هي الأخرى براعة هندسية..

حتى جلس على جانب أحد الشوارع .. وكاد يغلبه النعاس.. حتى فوجئ بأهل المدينة يستعدون وكأنهم يحتفلون بشيء ما .. الجميع يلعبون ويمرحون.. والأطفال يرقصون.. ويسأل نفسه هل هناك عيدٌ ما.. يبدو كذلك.. وقد فرح بذلك.. فجميع أهل المدينة خارج منازلهم.. وسيؤنس ذلك وحدته دون مسكن.. حتى اقترب منه فتى فسأله «خالد» لماذا يحتفل الناس هكذا .. فأجابه الفتى فرحًا:

- إن الاحتفال لم يبدأ بعد..

ضحك «خالد» مداعبًا الفتى:- أمّال هيبدأ امتى؟

تعجب الفتى:

- لماذا لهجتك غريبة؟

رد «خالد»:- أنا من الشمال.. إنني غريب..

رد الفتى:- تقصد كنت غريبًا.. أما الآن أنت من أهل زيكولا..

ابتسم «خالد» ووضع يده على رأس الفتى:

- عارف أن زيكولا أرض الكرم بس كمِّل..

أكمل الفتى:- اليوم الكل يستعد للاحتفال.. أما الاحتفال الحقيقي سيكون غدًا .. إنه أعظم احتفال في الكون.. والكثيرون من البلاد البعيدة يأتون للهضبة المجاورة..ويقفون بها لمشاهدة احتفالاتنا..

تعجب «خالد» وسأل الفتى:

- وأيه سبب الاحتفال؟

ظهر التعجب على وجه الفتى:

- إننى كنت أظنك غنيًا.. أرجوك لا تدعني أشك في قدراتى بمعرفة الأغنياء.. ثم أكمل:

- إن احتفالاتنا ستبدأ غدًا.. احتفالًا بيوم زيكولا .. اليوم الذي يجعل من زيكولا أشهر مدينة بالتاريخ.. اليوم الذي يسعد به كل أهل زيكولا..

ثم صمت قليلًا.. وأكمل:

- ماعدا شخص واحد بالطبع..

سأله «خالد» في لهفة:

- مين الشخص ده؟

ضحك الفتى:

- يبدو أنك لا تعرف كثيرًا عن زيكولا.. ثم تنهّد ونظر إلى «خالد»:

- سيدي، إن يوم زيكولا يُذبَحُ فيه أفقر شخص يوجد بالمدينة..



(٥)

شعر «خالد» بالصدمة حين أخبره الفتى أن يوم زيكولا يذبح به أفقر من يوجد بالمدينة.. وحدّث نفسه بأنه أفقر من بالمدينة.. وما معه من نقود لا تفيد بعدما تأكّد من مواقفه السابقة أنهم لا يعترفون بتلك النقود.. وإن كان حديث الفتى صحيحًا سيكون هو الضحية.. حتى قاطع تفكيره الفتى وأكمل:

- في يوم زيكولا تُجرَى منافسة بين أفقر ثلاثة أشخاص بالمدينة.. أما غدًا -للأسف- فلن تكون هناك منافسة .. وسيذبح الشخص مباشرة بعدما نجح الآخران في الهَرب.. آهٍ لو رأيتهما بعينيّ.. تذكّر «خالد» من قابلهما بالصحراء.. وقال بصوت عالٍ:

- المجانين؟!!

فنظر إليه الفتى حتى تدارك «خالد» قوله.. وحدّث الفتى:

- تقصد إن الفقير تم اختياره فعلًا ..

رد الفتى:- نعم..

هنا تنفّس «خالد» الصعداء .. وأخرج زفيرًا طويلًا .. وشكر ربه في سره.. حتى أكمل الفتى:

- المعتاد في زيكولا أن يتم حبس الفقراء الثلاثة قبلها بأيام.. ثم تقوم بينهم منافسة الغِنَى والفقر.. الزيكولا.. ومن يخسر منهم يذبح .. وبالطبع طالما هرب الاثنان سيذبح الشخص الثالث.. ثم أشار إلى بيت مجاور:

- إنه من منطقتنا.. فنظر «خالد» إلى البيت وتعجّب:

- ازاي ده بيت فقير..

بعدها تركه الفتى، ومضى ليلعب مع من معه..

***

جلس «خالد» مرة أخرى في مكانه.. يفكر فيما يحدث له، ويتذكّر ماذا حدث له منذ أن وجد نفسه بالصحراء.. وزاد إلحاحُ سؤاله الذى تعمد تجاهله دائمًا.. أين هو؟.. وأين زيكولا تلك التي لم يسمع عنها من قبل.. وعن أهلها المثيرين للدهشة؟.. بعضهم يبدو عاقلًا.. والكثيرون لاينتمون للعقلاء بشيء.. ثم انتفض جسده حين سأل نفسه ماذا لو انتقل به الزمن عبر السرداب إلى الماضي كما كان يقرأ دائمًا في

الأدب الأجنبي.. ماذا؟.. هل هذا صحيح؟! «لا.. لا.. إنه خيال.. إنني لم أسمع عن زيكولا.. ولم أقرأ عنها من قبل».. هكذا حدّث نفسه.. ثم علا صوته:

- بس ليه لأ؟

- الأحصنة اللي بتجر العربات.. ولبس الناس هنا.. مش معقول يكون لبس حد في القرن الواحد والعشرين.. الحاجات دي فات عليها قرون..

ثم عاد إلى نفسه:

- ممكن تكون دي بلد معزولةأنت مسمعتش عنها.. وده زِيّهم الوطني فعلًا..

- صاح إلى نفسه مجددًا:

- بلد أيه..كل اللي مشيته في السرداب حوالى كيلوواحد أواتنين بالكتير..

- أكيد أنا انتقلت في الزمن.. والدليل إنهم بيتكلّمو عربي وميعرفوش مصر.. هو فيه منطقة بتتكلم عربي في العالم كلّه إلا الوطن العربي..

- ثم أمسك رأسه بيديه:

- أنا حاسس إني مش قادر أفكّر.. أنا كنت أذكى من كده.. ثم نظر بعيدًا:

- بس.. ده الدليل إني انتقلت للماضي..

قال ذلك حين وجد جماعة يحملون سيوفًا ودروعًا وكأنهم جنود، ويسيرون في صف واحد.. وقد وقف على قدميه.. واتجه مسرعًا إلى الفتى الذي كان يمرح مع أصدقائه.. وجذبه من يده:

- أنا عاوز اسألك سؤال واحد.. احنا في سنة كام؟

فأجابه الفتى متعجِّلًا:

- يبدو أنك تشرب الكثير من الخمر.. إننا في نهاية العام التاسع بعد الألفين يا سيّدي..

فعاد «خالد» بقدمه للخلف.. ودارت به رأسه حتى سقط وكأنه فقد وعيه.. فضحك الفتى وتحدّث إليه:

- نعم سيّدي، أرى أن النوم قد يفيدك.. ثم تركه ومضى..

***

في صباح اليوم التالي فتح «خالد» عينيه على صوت ضوضاء شديدة.. فوجد نفسه مُلقًى على جانب أحد الشوارع فنهض مسرعًا..

وحاول أن يصلح من هيأته، وأزال الغبار عن ملابسه.. حتى نظر أمامه وفرك شعره حين وجد ذلك الكم الهائل من الناس يسيرون بانتظام في اتجاه معين.. والجميع يرتدون ملابس تبدو جديدة..

الرجال يمسكون بأيدي النساء.. والفِتيَان يمسكون بأيدي الفتيات اللاتي بدا عليهن الجمال الشديد.. يسيرون في فرحة كبيرة، ويضع كل منهم حول رقبته عقدًا من الورد.. وتظلهم موسيقى لم يسمعها من قبل، ولم يسمع ما يماثلها في جمالها.. ويعزفها مجموعة من الأشخاص أصحاب زيٍّ مختلف، ويحملون طبولًا ووتريّات وآلات نفخ لم ير مثلها، ولكنها تُخرج صوتًا بديعًا.. ويسيرون وسط ذلك الحشد من الناس.. ثم وجد بعض الشباب يمتطون أحصنتهم.. وخلف كل شاب توجد فتاته تلف يدها اليسرى حول خَصره، واليمنى تمسك بها الورد وتلوح بها.. فابتسم «خالد» وقال:

- أنا عرفت ليه الكل مستني اليوم ده..

ثم أعجبته تلك الحركات البهلوانية التي كان يقوم بها البعض.. حتى فوجئ بالعربة الثرية -التي كان قد تشبَّث بها هو و«يامن» حينما كان في الصحراء- تسير وسط الحشد، وقد خرجت منها فتاة في غاية

الجمال، وما إن خرجت حتى صاح البعض فرحًا وزاد سرورهم.. وبدأت تُلقي بالكثير من الورد، والكل يتهافت ويتسابق على أخذه.. حتى بدأت تقذف الورد لأعلى وما إن تسقط حتى يرتطم الشباب بعضهم ببعض.. وتزداد بسمتها الرقيقة.. و«خالد» يشاهد ذلك في سعادة كبيرة.. وينظر مجددًا إلى تلك الفتاة وقد شعر براحة نفسة كبيرة.. حتى وجد إحدى الفتيات تقترب منه وتسأله:

- لماذا تقف بمفردك؟.. يمكنني أن اصطحبك اليوم مجانًا.. فنظر إليها «خالد».. ثم نظر إلى فتاة العربة مرة أخرى:

- لا، شكرًا ..

ثم نظر بعيدًا .. فوجد «يامن» فأسرع إليه وسط ذلك الزحام .. حتى وصل إليه بصعوبة وحدّثه:

- «يامن»..أنت فاكرني؟

فابتسم إليه «يامن»:

- نعم.. أهلًا بك يا صديق.. ثم نظر إلى زيّه:

- مبارك عليك الزي الجديد .. ثم سأله:

- كيف كان يومك الأول بزيكولا؟

كانت الأصوات عالية من حولهم فاضطر «خالد» أن يرفع من صوته:

- يومي الأول؟.. مش فاهم لحد دلوقتي أيه اللي بيحصل لي..

ضحك «يامن»:

- ربما لأننا في أعياد زيكولا.. ما إن تنتهي الأعياد حتى تعود الحياة مرة أخرى إلى الطبيعة.. إنها أيام استثنائية ليست كباقي الأيام..

فابتسم «خالد»:- ياريت.. ثم سأله:

- أمّال فين الـمُزّة بتاعتك؟

اندهش «يامن»: ماذا؟!

ضحك «خالد»:- أقصد حبيبتك.. أنا شايف معظم الشباب معاهم بنات..

ابتسم «يامن»:- آه.. لا، إنني لم أرتبط حتى الآن..

نظر «خالد» إلى الأمام ثم سأله:- هو احنا رايحين فين؟

«يامن»:- ماذا تقصد بـ (رايحين)؟

رد خالد:- أقصد ذاهبين؟

ضحك «يامن»:

- إننا ذاهبون إلى أرض الاحتفال حيث يلتقي هناك كل أهل زيكولا..
وسيُذبح شخصٌ ما..

ضحك «خالد»:

- آه، عرفت.. الفقير..ثم صمت، وأكملا مسيرهما مع السائرين..
حتى سأله «خالد» مجددًا:

- «يامن».. هي مين دي؟ ثم أشار إلى الفتاة التي ترمي بالورد من العربة..

رد «يامن»:

- إنها «أسيل».. طبيبة زيكولا..

«خالد» وقد همس إلى نفسه:

- «أسيل».. طبيبة؟ ثم وجدها تقذف بوردة إلى أعلى وتسقط تجاهه.. وتصارع الشباب معه حتى قفز مستغلًا طوله، وقد أمسكها ونظر إليها مبتسمًا فابتسمت له ابتسامة جعلته هائمًا للحظات..

الجميع يسيرون، و«خالد» يعجبه ذلك الاحتفال.. والموسيقى الرائعة التي تحلّق في كل مكان، ورائحة الورد التي أنعشت صدره حتى تناسى أسئلته لنفسه عن أرض زيكولا.. وسار بجوار «يامن» وهو

ينظر إلى العربة وإلى «أسيل» التي تبتسم كلما أمسك أحد بوردة قذفتها.. ثم ينظر نظرة مختلفة تمامًا مقوّسًا حاجبيه إلى الفتاة الأخرى التى رفض أن يسير معها.. والتي لم تُزِح نظرها عنه طول الوقت، وما إن تصطدم عيناه بها حتى تُخرِجَ له لسانها في غضب.. فينظر مجددًا إلى «أسيل»، ويستنشق رحيق الوردة التي أمسكها ويبتسم.. وتابع سيره معهم حتى وصلوا إلى أرض واسعة.. وقد فوجئ بوجود كم هائل من الناس قد يتعدى الخمسين ألفًا.. حتى اندهش وسأل «يامن» على الفور:

- إيه الناس دي كلّها؟!

رد «يامن»:- إنهم أهل زيكولا.. جاءوا من مناطقها الكثيرة.. إننا جئنا من منطقة واحدة، وباقي الناس جاءوا من المناطق الأخرى ..

حتى ابتسم فرحًا حين اقترب منه شاب آخر.. واحتضنه كثيرًا ثم نظر إلى «خالد»:

- إنه صديق عمري «إياد».. ثم نظر إلى صديقه:

- إنه «خالد» .. صديقي الجديد .. وتبدو عليه الشهامة، وسيكون صديقك بالطبع..

صافح «خالد» «إياد»، وقال مبتسمًا:

- أيوه.. هنكون أصدقاء لغاية ما أرحل قريبًا..

ضحك «إياد» بصوت عالٍ:

- ترحل؟!! ثم نظر إلى «يامن»:

- صديقك يريد أن يرحل!!..ثم ضحك مجددًا فغضب «خالد» من سخريته.. ونظر إلى «يامن»:

- هو غريب إني أرحل ولا أيه؟

***

كاد «يامن» يجيبه ولكنه أشار إليه أن يصمت بعدما دقت الطبول كثيرًا.. وقد صمت الجميع، وصمتتِ الموسيقى.. بعدها صعد رجل ضخم إلى منصّة عالية وبيده سيف طويل.. فأدرك «خالد» أن الذبح سيتم.. وأن الفتى كان صادقًا معه حين أخبره بذلك.. وبعدها صعد رجلان أقوياء، ويجرّان رجلًا حليق الرأس يبدو عليه المرض رغم شبابه.. والصمت يخيم على الجميع.. حتى دقتِ الطبول مرة أخرى فنزل أهل المدينة كلهم على رُكَبِهم ما عدا «خالد».. فجذبه «يامن» حتى نزل هو الآخر على ركبتيه بجواره هو و«إياد» .. ونظر إلى تلك المنصة حيث سقط الفقير هو الآخر على ركبتيه، ويداه مقيّدتان بالخلف.. وبعد

لحظات وخزه السياف في ظهره حتى شهق برأسه فأطاح برقبته.. وتناثرت دماؤه على المنصة.. فصاح أهل المدينة فرحًا.. ودقتِ الموسيقى مرة أخرى.. وبدأوا يرقصون ويمرحون.. وبدأتِ الألعاب البهلوانية مجددًا..

أما «خالد» فقد سرت في جسده رعشة مما رآه.. وانتفض قلبه بقوة، وتسارعت أنفاسه وهو ينظر إلى ذلك الجسد المنزوع الرأس.. وجسده يرتعد، إنه لم ير مثل ذلك من قبل.. يتحسس وجهه، ويسأل نفسه هل يحلم أم أنها حقيقة؟.. ويسأل نفسه مجددًا.. لماذا ذبحوا ذلك الفقير؟.. إننا في مجتمعنا نساعدهم.. إنهم قوم بلا قلب.. حتى صاح بـ«يامن»:

- «يامن».. احنا في سنة كام؟

رد «يامن»:- إننا في نهاية العام التاسع بعد الألفين..

صاح «خالد»:- ٢٠٠٩ .. إزاي؟

ابتسم «يامن» كي يمتص غضبه:

- إنه الزمن يا صديقي.. هل بيدنا أن نغير الزمن؟!.. ثم صاح «خالد» بـ«إياد» في عصبية:

- وإيه الغريب إني أرحل وأسيب زيكولا؟!

رد «إياد»:

- يا صديقي.. إن باب زيكولا قد أغلق بنهاية أمس.. إنه لا يفتح إلا قبل يوم زيكولا بيوم واحد.. ثم يغلق مجددًا حتى يوم زيكولا في العام الذى يليه.. ولا يستطيع أحد مغادرة زيكولا حتى ذلك اليوم..

أكمل «يامن» ، ونظر إلى «خالد»:

- إنه اليوم الذي دخلت فيه إلى زيكولا.. ثم سأله متعجبًا:

- لماذا تريد أن ترحل وأنت لست فقيرًا؟

جن جنون «خالد».. وقد فاض به :

- مين اللي قالك إني مش فقير؟!.. لأ، أنا فقير.. أنا ممتلكش أي حاجة..

اندهش «إياد»:- كيف هذا؟!.. ألا تشعر بنفسك؟

رد «خالد» غاضبًا:- أشعر بأيه؟!.. دي حتى الفلوس اللي كانت معايا، وحمدت ربنا إنها كانت معايا بالصدفة قلتوا عليها ورق وملهاش أي قيمة..

ابتسم «يامن»:- ولماذا تحتاجها يا صديقي؟

رد «خالد»:- دي فلوس.. يعنى اشتري بيها اللي أنا محتاجه..

اندهش «يامن»:

- تقصد العملة؟!

«خالد»:- أيوه..

صمت «يامن» ثم تحدّث مجددًا:

- أها.. الآن عرفت لماذا زاد ارتباكك إلى هذا الحد حين وجدت ذلك الفقير يذبح.. إنك خفت أن تكون فقيرًا وتذبح مثله.. ثم نظر إلى «خالد»:

- يا صديقي إن عملتنا مختلفة تمامًا.. إن عملة أرض زيكولا هي وحدات الذكاء.. ومن يكون ذكيًا هو الغني.. أما الفقير فهو الأقل ذكاءً .. هنا نعمل ونأخذ أجرتنا ذكاء.. ونبتاع وندفع من ذكائنا.. ونأكل مقابل وحدات أخرى من الذكاء.. ثم صمت برهة و أكمل:

- لا أعلم من أين جئت.. ولكننا ولدنا فوجدنا أنفسنا هكذا.. علينا أن نحافظ على ذكائنا.. وأنت منذ دخولك إلى أرض زيكولا أصبحت مثلنا.. وعليك أن تحافظ على ذكائك، وأن تنمّيه.. كي لا يأتي

يوم زيكولا وقد قلّ ذكاؤك؛ فيكون هذا مصيرك.. ثم أشار إلى جثة الذبيح فنظر إليه «خالد» متعجِّبًا .. وكأنه لا يفهم شيئًا:

- «يامن».. أنا كنت بقول عليك عاقل..

رد «يامن»:- أعلم أنك تظننا بُلهاء.. ولكننا -أهل زيكولا- نختلف عن باقي بقاع الدنيا.. والكل يعلم ذلك.. ويخشون أن يدخلوا إلينا حتى لا تسرى رعشة زيكولا بجسدهم ويصبحون مثلنا..

هنا تذكر «خالد» تلك الرعشة.. وذلك الألم الشديد الذي حلّ برأسه حين مرّ من باب زيكولا.. وقد أكمل «يامن»:

- عليك أن تصدقنا.. وأن تحافظ على ذكائك لأن اعتقادك بأننا بلهاء لن يفيدك بشيء..أنت لن تستطيع أن تغادر زيكولا مهما حدث.. وإن جاء يوم زيكولا وكنت الأقل ذكاءً فسيحدث لك مثلما أخبرتك، ثم تابع:

- إنه عام.. ستحتاج إلى طعام، وإلى شراب، وإلى ملبس ومسكن.. وهنا في زيكولا لا يعطي أحد شيئًا بالمجّان.. سوى يوم زيكولا فقط.. اليوم.. يكون يومًا بلا عمل.. وقد تكون هناك أشياء قليلة للغاية دون مقابل..

- عليك أن تعمل وتأخذ أجرك من الذكاء تعوّض ما تفقده لسد احتياجاتك.. صديقي، هنا في زيكولا ثروتك هي ذكاؤك..

مازالتِ الدهشة منطبعة على وجه «خالد».. وبدأ يشك بذلك، ويشعر بأن ذكاءه قد قلّ بالفعل منذ دخوله إلى تلك المدينة، وأن قدرته على التفكير قد قلّت قليلًا.. ولا يعرف السبب.. ولكن ما يقوله «يامن» لا يصدقه عاقل حتى تذكر شيئًا.. وتحدّث إلى «يامن»:

- كلامك مش صحيح .. أنا أكلت وشربت واشتريت هدومي من غير مقابل..

ابتسم «يامن»:

- صديقى..هل لاحظت وجود الأسعار بالوحدات في تلك الأماكن؟

تذكر «خالد» تلك الوحدات.. والتى سأل نفسه عنها من قبل:

- أيوه..

أكمل «يامن»:

- وحدات الذكاء لا تدفع باليد.. إنها تنتقل تلقائيًا بيننا.. وطالما رأيت تلك الوحدات.. أقصد الأسعار، وتواجدت في تلك الأماكن.. هذا يعنى أنك موافق على الشراء وعلى الأسعار التي رأيتها.. وينتقل

منك ثمن ما أكلته أو اشتريته إلى صاحب هذا المكان دون إرادتك..

الغرباء يسمونها لعنة زيكولا.. قاطعه «خالد» هائمًا:

- أنا أكلت كتير.. والزِّي ده كان مكتوب عليه أكبر وحدات..

وصاحبه قال إنه أغلى زِيّ عنده.. وشكرني لأنني غني..

رد «يامن»:- بالفعل يا صديقي.. لقد لاحظت اليوم اختلافك قليلًا

عن المرة الأولى التي رأيتك بها..

ثم نظر إلى «إياد»:

- يبدو أن صديقنا قد فقد جزءًا ليس بالقليل من ثروته...

***

(٦)

تساءل «خالد» في لهفة:

-وأنت عرفت ازاي؟

فابتسم «يامن»:- إن وجهك أصبح شاحبًا بعض الشيء يا صديقي.. ثم أكمل:

- كلما قلّ ذكاؤك زاد شحوب وجهك، وبدى المرض عليك.. وهكذا نعرف من هو الغني ومن هوالفقير.. كلما تكسب ثروة تكون طبيعي بل يزداد شبابك.. أما حين تخسر فستجد المرض يتسرب إلى جسدك.. وهكذا حتى يقترب يوم زيكولا فيقوم الجنود بجمع الأكثر مرضًا بالمدينة.. ويعرضون على «أسيل».. الطبيبة...وهي من تحدد المريض حقًا والمريض بالفقر.. وبعدها تختار الثلاثة الأشد فقرًا..

فقاطعه «خالد» قبل أن يكمل حديثه:

- لا دي بلد مجانين..أنا لازم أسيب البلد دي..ثم تركهما وجرى..

***

ترك «خالد» «يامن» و«إياد» وجرى مسرعًا.. وقلبه يدق خوفًا.. يخشى أن يكون ما قالاه واقعيًّا.. وأكمل جريه هائمًا وسط الزحام.. وأهل المدينة يرقصون ويمرحون والموسيقى في ذروتها.. و«خالد» يتحرك بصعوبة بينهم، ويحاول أن يخرج من هذا الزحام.. ويصطدم بالفتيان والفتيات دون أن يعتذر.. ما يشغل باله أن يخرج إلى باب زيكولا.. وواصل جريه بعيدًا عن أرض الاحتفال.. ويحدّث نفسه:

- مش معقول يكون ده صحيح.. مش معقول..

وتعدو قدماه مسرعتين.. حتى اقترب من باب زيكولا، وقد ظهر العرق الغزير على جبينه.. فوجده قد أغلق بالفعل وتواجد أمامه الكثير من الحرّاس.. فاقترب «خالد» من أحدهم وقد كان ضخم الجثة.. وحدّثه:

- أنا عاوز أخرج..

فضحك الحارس ساخرًا:

- تخرج؟!!

فصاح «خالد»: أيوه.. أخرج

فضحك الحارس مجددًا.. ثم نظر إلى حارس آخر وحدّثه:

- إننا نترك احتفالات زيكولا ونقف هنا حتى يأتي السكارى.. ويعبثون معنا..

فصاح «خالد» مجددًا:

- أنا مش سكران .. أنا هخرج.. ثم دفع الحارس بيده..

فظهر الغضب على وجه الحارس ثم لكم «خالد» لكمة قوية أعادته خطوات للخلف..حتى سقط على الأرض وقد سالتِ الدماء من حاجبه الأيسر..فنهض «خالد» على الفور ثم عاد ووقف أمام الحارس مرة أخرى..ولكنه نظر إلى الدرع الذي يحمله.. وكان لامعًا كالمرآة..وأمعن النظر به، ونظر إلى صورته المنعكسة..لا يخشى أن يلكمه الحارس مجددًا.. ولا تشغله الدماء التي تسيل على وجهه..بل يتحسس وجهه بيديه..وما بدى عليه من شحوب.. وينظر إليه وقد اتسعت عيناه من الدهشة والخوف.. وتسارعت أنفاسه وخفق قلبه بقوة.. حتى قاطع تفكيره صوت الحارس الغليظ:

- عد إلى حيث كنت وإلا سيكون السجن مصيرك..

فنظر إليه «خالد» في خيبة أمل واضعًا يده على حاجبه .. يريد أن يوقف دماءه .. وقد أدرك أن الباب لن يفتح كما أخبره «إياد».. وأن حديث «يامن» إليه ما هو إلا الحقيقة التي خَشِيها..

***

بعدها عاد «خالد» إلى شوارع المدينة.. يسير هائمًا، ويفكر كيف سيعيش عامًا في تلك المدينة الملعونة.. ويسأل نفسه: عام؟!.. إنه لم يستطع أن يعيش يومًا واحدًا.. فكيف له أن يعيش عامًا كاملًا، ثم عاد بتفكيره.. ماذا لو مر العام وكنت أفقر مَن بالمدينة.. ماذا لو كنت الأغنى.. ثم علا صوته.. وسأل نفسه:

- وجَدِّي؟!

- هل هيقدر يعيش سنة من غيري.. أنا كنت بقول يومين أوتلاتة وأرجع له..

- ياترى فكّرني مت زي أبويا وأمي؟

- سنة؟!! هعيش هنا سنة؟!

وظل هائمًا هكذا حتى أفاق حين صدمه حصان ما.. وقد كان الحصان الذى يجر العربة الثريّة.. عربة «أسيل».. فصاح به سائق العربة

يعنفه.. ثـم توقفتِ العربـة، ونزلـت منهـا «أسـيل» عـلى الفـور لتطمـئن عليه.. ولكن «خالد» قد غادر هائمًا.. ورغم ندائها إليه كثيرًا فقد أكمل مسيره دون أن يلتفت وكأنه يتجاهلها.. فعادت إلى العربة مرة أخـرى.. وحدّثت نفسها:

- لوكان شخصًا آخر.. لطلب تعويضًا على ذلك.. ثم أمرتِ السائق أن يتحرك من جديد..

***

مرت ساعات و«خالد» مازال يسير بالمدينة.. ولم يتوقّف عقله عن التفكير.. حتى وجد نفسه يقترب من بحيرة واسعة.. فأسرع إليها وحين تذوق ماءها وجده عذبًا .. فابتسم وشرب منها كثيرًا .. ثم أسند ظهره على شجرة بجوار البحيرة.. وضحك حين جال بخاطره أن يأتي والد «منى» إلى تلك المدينة.. وأقسم أنه سيذبح على الفور.. حتى «منى» لو جاءت ستذبح هي الأخرى.. يتذكر أصدقاءه وأنهم لا يمتلكون من الذكاء شيئًا، بل سيذبحون كلهم.. ثم ضحك وحدّث نفسه ساخرًا:

- عاوز آكل مقابل وحدتين ذكاء..

ثم ضحك مجددًا حين تذكّر أحد أصدقائه.. وكان سمينًا للغاية ويأكل كثيرًا.. وأنه لو كان بزيكولا لفقد ثروته كلّها مقابل أن يأكل.. ثم تحدث إلى نفسه:

- بتضحك يا «خالد».. فعلًا مصري ابن مصري.. نضحك في أشد أوقات الكرب.. ثم سأل نفسه:

- هتعمل إيه يا «خالد»؟

- فأجاب نفسه.. وكأنه شخصًا آخر.. وقد أغلظ من صوته:

- هعيش زي الناس هنا..أنت قدامك حل تاني؟ فردّ كأنه الشخص الأول:

- لا..

- فابتسم.. وجعل صوته غليظًا مرة أخرى:

- يبقى تكيّف مع الوضع.. وأهلًا بك في زيكولا..

بعدها نظر إلى السماء التي خيّم عليها الليل.. وانتشر السكون حتى اختفى مرّة أخرى حين وجد ألعابًا نارية غريبة عما يعرفها تزين سماء زيكولا.. ولم تتوقف للحظة فابتسم:

- يوم زيكولا.. ثم أكمل بعد برهة من الصمت:

- كلّها ساعات وينتهي.. وأشوف زيكولا على طبيعتها..

ثم نظر إلى البحيرة، إلى شاطئها فلم يجد أحدًا غيره.. فوجدها فرصة أن يستحم.. وما إن تجرد من ثيابه..وكاد يكون عاريًا تمامًا حتى شعر بحركة غريبة.. وسمع همسًا وبعض الضحكات فالتفت فوجد فتاتين تنظران إليه..فارتدى ملابسه على الفور، ثم أسرع عائدًا إلى الشجرة مرة أخرى، وأسند إليها ظهره من جديد..وضحك وحدّث نفسه:

- لا.. أنا بقول أنام أحسن..

***

مرّ الليل ، وقد أشرقتِ الشمس..و«خالد» نائم بجوار شجرة على شاطئ البحيرة.. حتى انتفض حين سمع صرخات.. وحين نظر بعيدًا وجد سيدة تصرخ بأن ابنها يغرق في البحيرة.. فأسرع «خالد» إلى البحيرة بملابسه.. يريد أن يصل إلى ذلك الفتى، والذي كان بعيدًا بعض الشيء.. ولم يتخيل أن تكون البحيرة عميقة هكذا.. حتى اقترب منه فجذبه تجاهه، وعاد به مرة أخرى إلى الشاطئ.. وقد فقد الفتى وعيه، ومازالت أمه تصرخ..أما «خالد» فقد أنام الفتى على ظهره ..

وبدأ يضغط بيده على صدره.. يريد أن ينعش قلبه.. يضغط بعض الضغطات ثم يضع فمه على فم الفتى ويملأ صدره بالهواء.. ثم يعود ليضغط بعض الضغطات مرة أخرى.. وقد اجتمع الناس من حوله، ومن بينهم «أسيل» التي أسرعت إلى الفتى وطلبت من «خالد» أن يبتعد عنه.. ولكن «خالد» لم ينظر إليها ولم يرفع نظره عن الفتى.. ومازال يضغط على صدره ويعطيه من الهواء.. حتى شهق الفتى.. وبدأ «خالد» يشعر بنبضات حين وضع أصبعيه على رقبته..فحمد الله ثم نظر إلى أمه:

- الحمد لله..هوبخير.. فنظرت إليه الأم باكية، وقد احتضنت ابنها:

- شكرًا لك.. ثم سالته:

- كم تريد مقابل هذا؟

فتعجب «خالد» ثم أجابها:

- أنا مش عاوز حاجة..أي حد مكاني كان هيعمل كده..خدي بالك منه بعد كده..والناس ينظرون إليه في غرابة.. حتى سألته «أسيل»:

- كيف فعلت هذا؟!.. ولماذا لم تتركني أساعدك؟!

فرفع «خالد» رأسه.. ونظر إليها، وكانت المرة الأولى التي ينظر إليها بعدما لم يترك نَظَرُه الفتى حين كان ينقذه.. حتى فوجئ بأنها

صاحبة الصوت الذي طلب منه أن يتركه..فشعر بقلبه يخفق سريعًا حين وجدها قريبة منه إلى ذلك الحد.. لا تفصلهما سوى أقل من خطوة.. وحدّث نفسه في سره.. إنها جميلة جمال لا حدود له.. ينظر إلى شعرها الأسود الطويل، وعينيها الضيّقتين، ورموشهما السمراء الطويلة..ويتذكر ضحكتها حين كانت ترمى الورد، وتضيق عيناها كلما ضحكت فتعطيها جمالًا خاصًا، ولاسيّما مع شفتيها الرقيقتين..حتى نطق هامسًا:

- «أسيل»!!..

ففوجئت هي الأخرى بأنه من تجاهلها، ومضى حين اصطدم حصان عربتها به.. ثم سألته مجددًا:

- كيف فعلت هذا؟

ضحك «خالد»:

- أول مرة أحس إني اتعلمت حاجة مفيدة.. دى دورة إسعافات أولية كنت اتعلمتها في القاهرة..ثم أسرع، وأخرج وردة من ملابسه المبتلة..والتى قد التقطها في اليوم السابق..ونظر إليها مبتسمًا:

- دي وردتك.. أنا محتفظ بيها..

فتجاهلت «أسيل» حديثه عن تلك الوردة.. وسألته:

- لماذا لهجتك غريبة؟.. ثم أكملت:

وأين القاهرة تلك؟

فابتسم «خالد»:

- دى قصة غريبة جدًّا .. وأكيد مش هتعرفي القاهرة.. أنا مش من زيكولا.. ثم أراد أن يتحدث إليها بلهجتهم:

- لست من زيكولا..وقد دخلت إلى زيكولا أول أمس..ولم أكن أعرف أن بابها سيغلق..

- فصمتت «أسيل»..وكأنها تتذكر شيئًا ما..ثم نظرت إليه:

- مثلي تمامًا..

(٧)

رد «خالد» في لهفة:

- مثلك؟!!

ردّت «أسيل»:- نعم مثلي..أنا أيضًا لم أكن من أهل زيكولا ثم نظرت إلى حاجبه الذى لم يلتئم جرحه بعد:

- أنا آسفة..

اندهش «خالد»:- على أيه؟

«أسيل»:- أرى أن اصطدام حصان عربتي بك قد أصاب حاجبك ..

فابتسم «خالد»: أي حصان؟

فأجابت: حصاني بالأمس..

فتذكر «خالد»:- لا.. لا.. مش الحصان .. أنا المفروض اللي اعتذر ليكي لإنى امبارح مكنتش في حالتي الطبيعية بعد ما شفت الفقير اللي دبحتوه..بس أرجوكي كمّلي حكايتك، وازاي أنتي مش من زيكولا..

***

انـصرف النـاس، وحملـتِ الأم ولـدها وانـصرفت.. وجلـست «أسيل» بجوار «خالد» على شاطئ البحيرة والتي بدأت تتحدث:

- كانـت هنـاك حـروب كثيرة منـذ سـنوات طويلـة بـين زيكـولا والبلاد الأخرى.. ومن بينهم بلـدي (بيجانا) .. فكـان جيش زيكـولا يخرج يوم زيكولا، ولا يعود إلا يوم زيكولا الذى يليه.. حتى جاء يـوم منذ أربعة عشر عامًا.. واستطاعت زيكـولا أن تهلـك بلـدتي.. وأخـذت الكثير منّا عبيدًا لهم.. وقد كنت منهم.. كنت ابنة عشرة أعوام وقتها..

قاطعها «خالد» في دهشة:

- عبيد؟!

أكملت:- نعم.. كان الرق يتواجد في زيكولا حتى أعوام قليلة.. ولكنه لم يعد متواجدًا الآن..

«خالد»:- ماشي.. كمّلي..

أكملـتْ:- دخلنـا إلى زيكـولا.. وبـالطبع كـما حـدث لـك حـين دخلـت إلى هنـا، أصـابتنا لعنـة زيكـولا.. وأصـبحنا مـثلهم.. تعاملنـا بوحدات الذكاء، والأفقر يُذبح.. ولكني كنت أوفر حظًا مـن غـيري.. فقد اشـتراني رجـل حكـيم كـان ذا قلـب رحـيم.. وكـان يـدرس الطـب

والحكمة..وأعطاني الكثير من علمه، ثم أعطاني حريتي قبل أن يموت.. وأعطاني ما هو أهم..أعطاني كتبه عن الطب والحياة .. فتعلمت منها الكثير، وأصبحت طبيبة زيكولا..وعاملتهم بطريقتهم أداويهم مقابل جزء من ذكائهم..وهنا يمرضون كثيرًا، وأنا أجني الكثير..فأصبحت من أثرياء زيكولا، وأنا ابنة الرابعة والعشرين..

قاطعها «خالد» مجددًا:

- ومفكَّرتيش تخرجي من زيكولا.. وترجعي لبلدك؟

ابتسمت وأكملتْ:

- كنت في البداية انتظر اليوم الذي أعود فيه إلى بلدي، وأن أخرج من هنا.. ولكن بعد أربعة عشر عامًا أصبحت زيكولا حياتي.. أحببت الحياة هنا.. قد أذهب أحيانًا إلى بلدى القديمة يوم يفتح باب زيكولا.. ولكني لا ألبث أن أعود إلى هنا سريعًا قبل أن يغلق الباب مجددًا..

سألها «خالد»:

- لأنكِ غنية؟

أجابت:- ربما يكون هذا سببًا .. ولكن السبب الأكبر أنني أحب زيكولا لأنها قوية.. رغم ما بها من مساوئ، ولكنها الأقوى بين

البلدان.. لا تستطيع البلاد الأخرى الاقتراب منها.. ستعرف مع وجودك هنا ما الذي يعطي زيكولا تلك القوة.. وأعتقد أنك ستحبها مثلما أحببتها..

صمت «خالد» قليلًا مفكرًا في حديثها.. ثم سألها:

- زيكولا.. وبلدك اسمها بيجانا.. احنا فين من العالم؟

ولكنه لم يلبث أن يسأل سؤاله حتى جاءت فتاة مسرعة إلى «أسيل» تخبرها بأن هناك مريضًا في حاجة إليها.. ولابد أن تسرع.. فنظرت إلى «خالد»:

- أنني أريد أن أعرف حكايتك أيضًا.. أين أجدك مجددًا؟

ضحك «خالد»:

- هنا.. هنا مسكني.. بجوار شجرة البحيرة..

«أسيل»:- حسنًا أتمنى أن نكمل حديثنا لاحقًا.. ثم ابتسمتْ:

- هنا.. بجوار البحيرة..

غادرت «أسيل».. وقد تعجّب «خالد» من حديثها، وسأل نفسه:

-يمكن تكون زيكولا مدينة غريبة.. لكن واضح إنه عالم غريب بالكامل.. فين بيجانا دي هي التانية.. وازاي بيتعاملو فيها.. ثم ابتسم

وحدّث نفسه: - كده بقى فيه اللي ظروفه زي ظروفي، ومين؟.. دي «أسيل».. ممكن أكون من أغنى الأغنياء هنا؟.. ممكن أكون زَيّها؟.. ثم أفاق:

- لا.. أنا مش عايز أبقى أغنى الأغنياء.. أنا عايز أمشي من البلد دي.. ولكن هروح فين.. وازاي هرجع بلدي مرة تانية حتى لو خرجت من زيكولا..

- المهم إني أمشي من زيكولا الأول، وبعدها أفكّر إزاي أرجع بلدي.. ولكن علشان أمشي لازم أفضل عايش..

ثم نهض مجددًا ، وقد بدأت ملابسه تجف محدثًا نفسه: لازم ألاقي شغل..

***

اتجه «خالد» إلى شوارع المدينة.. وقد عزم على أن يجد عملًا يساعده أجره على البقاء حيًّا في تلك المدينة.. ولكنه ما إن ذهب إلى أحد ليسأله عن عمل حتى يرفض طلبه.. فيذهب لآخر فيرفض هو الآخر.. وظل هكذا يبحث ويبحث حتى تعبت قدماه.. وجلس إلى جانب أحد الشوارع .. ففوجئ بـ«يامن» يقترب منه ، ويصافحه:

- أين أنت يا صديقي؟..

ابتسم «خالد»:- أهلًا «يامن».. «يامن» ، أنا عاوز اشتغل.. وحاولت ألاقي شغل بس الكل رفض يشغّلني..

سأله «يامن»:- أين بحثت عن العمل؟

رد «خالد»:- في المنطقة دي.. المطاعم ومحلات البيع..

«يامن»:- إنك أخطأت في بحثك.. هنا يريدون أن يوفروا مكسبًا كبيرًا، وعملك معهم سيفقدهم جزءًا من مكسبهم.. ستعرف كل شيء عن حياة زيكولا مع مرور الأيام..ثم تابع:

- إن المدينة مليئة بأماكن العمل.. هل تريد أن تعمل معي؟

رد «خالد»:- أيوه..

«يامن»:- دون أن تعرف ماذا أعمل؟

اندهش «خالد» وسأله:

- هو عمل حرام ولا أيه؟

«يامن»:- ماذا تعنى بحرام؟

رد «خالد»:- أقصد عمل مش كويّس..

أسرع «يامن»:- لا، لا.. إنه عمل مشرِّف.. إننا نعمل بجد.. عملنا يحتاج إلى الأقوياء مثلك.. ربما يكون أجره قليل ولكنه يكفي لاحتياجاتنا..

«خالد»:- وفين العمل ده؟

ابتسم «يامن»:- حسنًا .. تعال معي..

***

انطلق «خالد» مع «يامن» ، وسارا إلى أطراف المدينة حيث منطقة جبلية.. حتى فوجئ «خالد» بعدد هائل من الفتيان والفتيات يعملون كأسراب النمل.. وقد اندهش من ذلك الكم الهائل.. وسأل «يامن»:

- كل الناس دي بتشتغل؟

«يامن»:- نعم يا صديقي.. وهناك الآلاف يعملون في مناطق أخرى.. إن الصناعة هنا مربحة..

ثم أشار إلى مكان ما:

- هنا نقطّع الأحجار من الجبال ثم نصنع منه طوبا يصلح لبناء المساكن.. وكل هؤلاء الناس يعملون، ويأخذون أجرهم يومًا بيوم..

وأنت وأنا سنكون بينهم.. أجرنا سبع وحدات ذكاء باليوم، هل يناسبك؟

ابتسم «خالد» ثم تابع «يامن»:

- هيا.. عليك أن تثبت أنك جدير بالعمل..

***

بدأ «خالد» عمله مع «يامن» والآخرين...يقطّعون الصخور والأحجار بالآلات اليدوية.. وربما كان عملًا يحتاج إلى قوة بدنية ولكن هذا ما كان يمتلكه «خالد» تمامًا.. وبدأ يعمل، يرفع الفأس بيديه ويهوي بها على الصخور.. وما إن تحطمت أول صخرة حتى نظر إلى «يامن»: لقد بدأنا العمل بالفعل.. ويحدّث نفسه ساخرًا .. بكالوريوس تجارة إلى مخزن أدوية إلى تقطيع حجارة.. ويتابع عمله.. والجميع ينظر إليه في إعجاب، وخاصة بعدما طلب من «يامن» أن ينافسه.. من يقطّع الحجارة أسرع.. وقد تخلص من قميصه وربطه حول خصره.. وغطى العرق جسده فجعله لامعًا مبرزًا عضلاته..

الجميع يعملون ، و«يامن» و«خالد» يتنافسان ويسرعان.. والكل ينظر إليهما وإلى ما يبذلانه من جهد، وقد أثارا حماس الباقين.. حتى

أخذا قسطًا من الراحة.. وقد زادت دهشة «خالد» حينما نظر إلى الناس مجددًا.. وإلى الفتيات اللاتي تعملن بقوة.. وتحملن الأحجار إلى العربات.. وسأل «يامن»:

- إزاي البنات بتشتغل الشغل الصعب ده؟

رد «يامن»: لا توجد فتاة بالمدينة لا تعمل.. إن قانون زيكولا لا يسري على الأطفال فقط.. ولكن ما إن تجاوز الشاب أو الفتاة السابعة عشر أصبحوا خاضعين لقانون زيكولا.. وعلى الشاب أن يعمل من أجل ثروته.. وعلى الفتاة أن تعمل من أجل ثروتها..

ثم أردف:

- هنا لا أحد يعطي غيره من ذكائه دون مقابل..حتى إن تزوجت فلن يعطيها زوجها.. إما أن تعمل وإما أن تموت.. أو أن تجد حلًّا آخر.. هو أن ترث..

رد «خالد» مندهشًا:- ترث!!

«يامن»:- نعم.. هنا الميراث يقسم على الأبناء بالتساوي..

ابتسم «خالد»:- الميراث ذكاء؟

«يامن»:- وهل توجد ثروة أخرى يا صديقي؟!.. حين يموت أحد تنتقل ثروته تلقائيًا إلى ورثته..هيًا تابع عملك..

ابتسم «خالد»:- حسنًا..

***

مرت ساعات، و«خالد» يعمل ومعه «يامن» حتى بدأت الشمس في المغيب..فتوقّف الجميع عن العمل، وقد ظهر الإنهاك على «خالد»

فضحك «يامن»:

- هل تعبت؟

فابتسم «خالد»:

- أكيد.. أنا مش متعوّد على مجهود بدني بالطريقة دي..

فضحك «يامن»:

- ستعتاد.. علينا أن نغادر..

«خالد»:- وأجرنا؟

رد «يامن»:- ما إن نغادر مكان العمل حتى يصلنا أجرنا دون أن نشعر.. طالما عملت سيصلك أجرك..

ابتسم «خالد»:

- زيكولا..

«يامن»:- أين ستذهب.. هل نجتمع بالمساء؟

تذكر «خالد» «أسيل»:

- لا.. أنا هشترى طعام..وبعدين هروح البحيرة مكاني..

«يامن»:- حسنًا..

***

دخل الليل، وقد اتجه «خالد» كي يحصل على طعام.. وما إن جلس بأحد المطاعم ليأكل حتى وجد جميع من هناك لا يأكلون سوى الخبز.. وقد أتى رجل المطعم، وسأله:

- ماذا تريد أن تأكل أيها الغني؟

فابتسم «خالد» ثم طلب منه أن يخبره بأسعار الطعام.. فرد الرجل:

- هنا الخبز مقابل وحدة واحدة.. والأرز مقابل ثلاث وحدات.. والدجاج خمسة وحدات.. واللحم ثمان وحدات..

فعلم «خالد» لماذا يأكل الجميع الخبز.. وقد طلب دجاجًا وخبزًا.. وأكل حتى شبع ثم اتجه مسرعًا إلى البحيرة.. وجلس بجوار الشجرة التي يجلس بجوارها دائمًا..

***

ظل «خالد» جالسًا بجوار البحيرة.. ويسأل نفسه هل ستأتي «أسيل» كما أخبرته أم تأخر الوقت فلن تأتي.. وإن لم تأتِ كيف سيقابلها مجددًا وعمله ينتهي مع انتهاء النهار.. ويحدّث نفسه.. لماذا تريدها أن تأتي يا «خالد».. فيجيب.. أريد أن أخبرها بقصّتي، وربما تساعدني.. إنها تبدو أكثر ذكاءً وثقافة من الآخرين.. ثم سأل نفسه ألا يوجد سبب آخر؟.. فأجاب بعد صمت لا، لا.. ثم ضحك.. ربما .. حتى بدأت آلام جسده تشتد من ذلك المجهود الذي بذله.. وظل في انتظار «أسيل» حتى مرّ الوقت، وغلبه النُّعاس دون أن تأتي..

***

في صباح اليوم التالي، أسرع «خالد» إلى عمله الجديد.. ولكنه فوجئ بثلاثة أشخاص يعترضون طريقه، ويوقفونه وقد أخرج أحدهم سكينًا.. ثم سأله:

- أين نصيبنا من عملك؟

فسأله «خالد» في غرابة:

- نصيبكم؟!!

رد أحدهم:- نعم..لنا منك (وحدتان ذكاء) كل يوم.. هل تقبل أم لا؟

اندهش «خالد» غاضبًا:- مقابل أيه؟

رد:- أننا نحميك..

«خالد»:- لا.. لا أقبل..

فقام أحدهم بلكمِه، ثم انهالوا عليه ضربًا حتى أسرع «يامن» الذى كان يمر بالقرب منهم:

- لماذا تضربونه؟

رد أحدهم:- إنه لا يريد أن يدفع لنا نصيبنا..

«يامن» ، وقد حاول أن يخلّص «خالد» من أيديهم:

- سيدفع.. سيدفع..

ثم نظر إلى «خالد» الذي سالت الدماء من شفتيه:

- ادفع لهم وحدتين..

فنظر إليهم «خالد»:

- حسنا أقبل..

فرد أضخمهم:- حسنًا.. ثم انصرفوا.

فنظر «خالد» إلى «يامن»:

- مين دول؟

رد «يامن»:- إنهم لا يعملون.. ويجبروننا أن ندفع لهم وإلا تعرّضوا لنا بالأذى..

«خالد»:- بلطجية يعني.. وعاوزين إتاوة..

«يامن»:- أخي، إننا نحيا في زيكولا هكذا.. وقد تعوّدنا على ذلك..

«خالد» منفعلًا:- تدفع من ذكائك مقابل حمايتك.. وفين الشرطة..

رد «يامن»:

- إنهم ليسوا مذنبين..وقانون زيكولا لايعاقبهم..إنهم يريدون أن يبقوا أحياءً.. وهذا لا يتعارض مع قوانيننا.. عليك أن تدفع وحدتين كل يوم ، وأن ترضى بذلك..

صاح «خالد»:

- إزاي أكون باخد سبع وحدات في اليوم، وأدفع وحدتين مقابل حمايتي، وآكل منين، ويتبقى لي إيه..

«يامن»:- عليك أن تبذل جهدًا أكبر لتوفّر أكبر قدر من أجرك.. ربما يساعدك مخزونك الكبير قبل أن تأتي إلى هنا والذي قد يصل إلى الألف وحدة .. ولكن نصيحتي إليك.. إياك أن تقترب مجددًا من مخزونك من الذكاء.. إنه كفيل بأن يبعدك عن الفقر..

همس «خالد»:- أتمنى..

ابتسم «يامن»:- حسنًا.. هيا إلى العمل.. ما رأيك في منافسة كبيرة اليوم..

***

مرتِ الأيام.. و «خالد» يعمل مع «يامن» في صناعة الطوب من الأحجار ..ويمر يومًا بعد يوم، و«خالد» ينهض من نومه، ويتجه إلى عمله، ويدفع الوحدتين مقابل حمايته.. ثم يذهب إلى عمله فيحطم الصخور بفأسه.. وقد أصبح شعره الناعم طويلًا بعض الشيء، كما غطت لحيته الناعمة وشاربه وجهه، وكبرت عضلاته.. وأصبح الكثير من أهل المدينة يلقّبونه بالغريب القوي..

يسير في شوارع المدينة.. ويضحك مع هذا وذاك .. ثم يأكل الدجاج والخبز كعادته.. ويعود إلى البحيرة مرة أخرى فيلقي بنفسه في

مائها كي يريح جسده من عناء العمل.. ويظل ينتظر «أسيل» كل يوم.. ويرفض أن يقابل «يامن» ليلًا.. ويحدّث نفسه.. ربما ستأتي اليوم.. وتمر الأيام دون أن تأتي.. حتى أدرك أن «أسيل» قد نسيت وعدها له بأن يكملا حديثهما بعدما لم يرها منذ حديثهما السابق والوحيد.. ويظل ساهرًا على شاطئ البحيرة حتى يغلبه النعاس فينام .. حتى يأتي صباح اليوم التالي.. ويكرر ما فعله في اليوم السابق.. وقد عادت إليه نضارة وجهه، واختفي شحوبه بعدما شعر أنه عوّض ما فقده من ثروته حين دخل زيكولا أول يوم .. حتى جاء يوم وقد وجد «يامن»، فحدّثه:

- «يامن».. أنا محتاج أقلام وورق..

رد «يامن» في دهشة:- لماذا؟!

رد «خالد»:- يعني.. فيه حاجات عاوز أسجّلها عن زيكولا.. استغل فترة وجودي هنا بعد ما فات شهر..

«يامن»:- حسنًا.. أعرف مكانًا يمكنك أن تذهب إليه، وتجد أقلامَ وأوراق زيكولا المميزة..

ثم تابع مفتخرًا:- بالطبع لا توجد صناعة أفضل من صناعة زيكولا..

ثم أكمل:

- إنه مكان يباع به الكتب.. وأعتقد أنك ستجد مرادك هناك..

أراد «خالد» أن يسجِّل لحظاته التي يعيشها في زيكولا.. لعله يخرج منها ذات يوم، وتكون تلك الأوراق التي يكتبها ذكرى لن ينساها.. أو يصنع منها كتابًا يقرأه الكثيرون غيره.. ولكن كان هناك سبب آخر.. فقد جال بخاطره أن تأتي «أسيل» ذات نهار إلى البحيرة فلا تجده.. فقرر أن يكتب ورقة ويتركها بجوار شجرته.. ويخبرها بأنه في عمله، وأنه ينتظرها كل مساء.. وربما كان هذا السبب ما أشعل حاجته إلى الأقلام والأوراق .. حتى وصل إلى المكان الذي وصفه «يامن».. وقد طرق الباب الخشبي، ودخل.. فوجد حجرة كبيرة مليئة بالكتب.. ويجلس رجل عجوز بالحجرة وحيدًا.. فاندهش «خالد» من ذلك الكم الهائل من الكتب المتراصّة، حتى سأله العجوز:

- يبدو أنك الغريب القوي..

ضحك «خالد»:- نعم .. ولكن كيف عرفت؟!

رد الرجل: إنني أعلم الكثيرين من أهل المدينة..

فابتسم «خالد» ثم سأله:

- مين اللي كتب كل الكتب دي؟!

رد العجوز:

- إنهم علماء زيكولا القدامى.. وهناك من الكتب ما ينتمي إلى البلاد الأخرى.. إن زيكولا تهتم بالعلم والعمل..

سأله «خالد» مجددًا:- وأهل زيكولا قرأوا الكتب دي؟

أجابه العجوز:- الكثيرون منهم قرأوا..

«خالد»:- يعنى الكتب دي حققت لك ثروة كبيرة..

رد الرجل:- لا.. ليست إلى هذا الحد .. إن أسعار الكتب رخيصة للغاية.. ثم صمت ، وتنهّد:

- ربما كفاني أن أبيع كتابًا واحدًا مثل كتاب بعته..

سأله «خالد» متشوّقًا:- أي كتاب؟

رد العجوز:- كان كتابًا قد اشتراه مني رجل بأغلى سعر شهدته زيكولا

اندهش «خالد»:

- لازم كان كتاب ثمين ..

ابتسم العجوز:- لا اعتقد ذلك.. وقتها لم أقرأ منه سوى سطور.. ولكنني حين رأيت هذا الرجل يحتاجه بقوة طلبت منه أغلى سعر.. ثم ضحك مجددًا، وتابع:

- يبدو أنه كان يحب الخيال.. إن كتاب كان يتحدث عن أرض أخرى.. وعن وهم يسمى سرداب فوريك..



(٨)

تسارعت ضربات قلب «خالد»، وامتلأت عروقه بالدماء حين سمع العجوز ينطق بـ سرداب فوريك وأرض أخرى غير زيكولا.. حتى سأله في لهفة:

- سرداب فوريك؟!!

رد العجوز:- نعم .. أتذكر هذا الاسم جيدًا..

سأله «خالد» في لهفة مرة أخرى:

- والكتاب كان بيتكلم عن أيه في سرداب فوريك؟

رد العجوز في هدوء:- لا أتذكر ياولدي.. لقد كان هذا منذ وقت طويل، حتى هذا الكتاب لم أقرأ منه سوى سطور.. وبعدها جاءني هذا الرجل الذى اشتراه مني..

«خالد»:- والكتاب كان كامل؟.. أقصد مكتمل؟

العجوز:- نعم يا ولدي..

«خالد» وقد بدا متوتّرًا:

- فيه منه نسخة تانية؟

رد العجـوز:- لا اعتقـد.. إننـي لم أر كتابًـا يتحـدث عـن ذلـك السرداب إلا ذلك الكتاب..

«خالد»:- وألاقي الرجل ده فين؟.. هو موجود في زيكولا؟..

العجوز ، وقد اندهش من أسئلة «خالد» الكثيرة:

-لم أر هذا الرجل إلا مرة واحـدة.. ربـما يكـون هنـا في زيكـولا، ولكنـه ليس بمنطقتنا.. وربما يكون قد خرج منها.. لا أحد يدري..

ثم سأل «خالد»:

- لماذاأنت مهتم إلى هذا الحد.. هل تحب الخيال؟

رد «خالد»:- أنا لازم ألاقي الكتاب ده.. الكتاب دا هو الأمـل الوحيـد ليّا لما أخرج من زيكولا.. ثم سأله:

- تقدر توصف لي الرجل اللي اشتراه؟

صمت العجوز وكأنه يتذكّر:

- كان رجلًا عاديًّا.. كان طويلًا مثلك، وكان ذا كتفين عريـضين مثلـك أيضًا.. وكانت لهجته وقتها غريبة أيضًا..

«خالد»:- مثلي.. ثم سأله بعد صمت:

- هل تذكر اسمه؟

ابتسم العجوز:

- إنني أتذكر اسمي بصعوبة..

«خالد» وقد بدأ يتحدث إلى نفسه:

- طويل.. وجسمه يشبه جسمي.. ولهجته غريبة.. وكان بيدّور على كتاب سرداب فوريك.. معقول يكون اللي في بالي.. معقول يكون هو

فقاطع تفكيره العجوز:

- لماذا الصمت؟ أين شرد ذهنك؟

رد «خالد»:- لا.. مفيش حاجة.. أنا محتاج اشترى أقلام وأوراق..

ابتسم العجوز:- بالطبع يا ولدي.. لك ماشئت..

***

اشترى «خالد» بعض الأوراق والأقلام التي احتاجها.. ولم تكن الأوراق شديدة البياض، وإنما كانت تميل إلى الصفرة، وكانت سميكة بعض الشيء.. أما الأقلام فقد كانت اسطوانات خشبية رفيعة ذات سن مدبب، وبداخلها خزان صغير للحبر.. وقد اشترى معها زجاجة من الحبر الإضافي.. وانصرف عائدًا إلى البُحيرة، وتفكيره لم يتوقف لحظة واحدة منذ حديثه مع ذلك العجوز.. ويسأل نفسه:

- معقول اللي في بالي.. معقول يكون الرجل اللي اشترى الكتاب هو والدي؟!..

ثم يعود لنفسه:

- ليه لأ.. الكل كان بيقول إني طويل زيه.. وإني عريض برضه زيه.. وكمان نزل السرداب.. وكلام العجوز، وإن لهجة الرجل دي غريبة.. أكيد هو..

ثم نظر إلى السماء:

- معقول يكون لسة عايش هو وأمي.. معقول أشوفهم بعد السنين دي كلّها .. هنا.. في زيكولا؟!!

ثم نظر إلى البحيرة ، وسأل نفسه:

- طب افرض كان حد تاني؟

- ومين اللي هيشتري كتاب زي ده بأغلى سعر.. وهنا الناس كلها بخيلة، وكتاب زي ده ملوش أي قيمة عندهم..

- ممكن يكون حد بيحب المغامرة.. عنده نفس الدوافع اللي نزّلتك هنا.. أوممكن يكون حد نزل السرداب غيرك أوغير أبوك أو أمك..

- لا.. هوأبوك..

- لا.. حد تاني..

- لا.. أكيد أبوك..

يجلس أمام نار أشعلها على شاطئ البحيرة.. ومازال يتحدث إلى نفسه..

- مهما كان الشخص ده، سواء كان والدي أو غيره.. معنى إن الكتاب موجود إن الأمل أصبح موجود..

- أكيد اللي كتب الكتاب ده، عارف إزاي أقدر أرجع لمصر تاني..

ثم علا صوته:

- أنا لازم ألاقي الكتاب ده.. لازم .. حتى سمع صوتًا من خلفه:

- أي كتاب؟..

***

إلتفت «خالد» حين سمع ذلك الصوت ، ففوجئ بأنها «أسيل».. وقد اقتربت منه.. فنطق مبتسمًا:

- «أسيل»؟!!

فردت مبتسمة:- نعم.. ثم سألته بعدما جلست بجواره:

- هل تتحدث إلى نفسك هكذا دائمًا؟

رد «خالد»:

- أوقات.. بس أنا خلاص تفكيري مش قادر يتحمّل..

«أسيل»:- لماذا؟

رد «خالد»:- النهاردة اكتشفت إن فيه أمل أقدر أرجع به لوطني.. بس أمل بعيد..

«أسيل»:- أي أمل..

«خالد»:- عرفت إن فيه كتاب....

فقاطعته «أسيل»:

- مهلًا.. أتعلم أنني لا أعرف اسمك بعد أيها الغريب.. ثم تابعت مبتسمة:

- لم تخبرنى به المرة السابقة..

ابتسم «خالد»:

- اسمي «خالد».. «خالد حسني»..

«أسيل»:- «خالد».. اسم جميل..

ابتسم «خالد» مجددًا ثم تابع:

- اكتشفت إن فيه كتاب تاني كان بيتحدث عن السرداب اللي جيت منه..

«أسيل» -وقد بدت الدهشة على وجهها-:

- أي سرداب؟!!

رد «خالد»:- سرداب فوريك..

«أسيل»:- في الحقيقة أنا لا أفهم شيئًا.. لقد جئت اليوم كما أخبرتك أنني أود أن استمع إلى قصتك.. وكيف دخلت إلى زيكولا..

ابتسم «خالد» مداعبًا لها:

- أيوه جيتي.. بعد شهر!!..

فابتسمت «أسيل»:

نعم لقد كان شهرًا مزدحمًا بالعمل.. ولم يسمح وقتي أن آتي إلى هنا.. ولكنني دائمًا كنت أتذكّرك.. ولم أنس إنقاذك للفتى دون مقابل.. وكنت أعلم أنني سآتي إلى البحيرة يومًا كي أستمع إلى قصتك..

فضحك «خالد»:

- كنت في بالك؟!!

ردت -وقد أومأت برأسها-: نعم.. لم تغادر تفكيري، لا أدري لماذا؟..

ابتسم «خالد» مسرورًا.. ثم سألته:

- هل كنت تنتظرني؟

رد «خالد»:- أنا.. لا .. ثم ابتسم:

الصراحة.. آه.. و كنت بدأت أفقد الأمل.. بس النهارده كأنه يوم الأمل.. أعرف إن فيه كتاب موجود.. وإن «أسيل» الجميلة كمان هنا..

أحمرَّ وجه «أسيل» خجلًا.. ثم نظرت إليه:

- هيا حدّثني عن بلدك.. وعن ذلك الكتاب الذي وجدته..

صمت «خالد» قليلًا.. ثم بدأ يتحدث إليها:

أنتي تعرفي إني من أول ما دخلت إلى زيكولا من شهر.. ومحدّش يعرف أي حاجة عن بلدي.. حتى «يامن» صديقي كل اللي يعرفه إن بلدي موجوده في الشمال.. وأنا مش عارف فين الشمال ده أصلًا..

ثم أكمل:

- في البداية كنت فاكر أهل زيكولا مجانين.. دلوقتي خايف اتكلم عن بلدي يفكروني أنا المجنون.. ثم نظر إليها:

- أنتي هتصدقيني يا «أسيل»؟

ابتسمت «أسيل»، وقد ضاقت عيناها:

- نعم.. أرى أنك صادق يا «خالد»..

أكمل «خالد»:

- أنا مش عارف فين زيكولا دي.. أو بيجانا اللي هيّ بلدك.. أول ما جيت هنا فكّرت إن زيكولا من البلاد المعزولة اللي عمري ما سمعت عنها.. زي البلاد اللى كنا بنشوفها في التليفزيون..

قاطعته «أسيل» في دهشة:- ماذا؟

ضحك «خالد»:

- أكيد انتي متعرفيش التليفزيون.. بس هشرح لك كل حاجة بعدين..

ثم تابع:

- المهم إني كنت مفكر إن زيكولا معزولة.. وإن أهلها معزولين، وميعرفوش حاجة عن العالم.. زي الهنود الحمر كده لما اكتشفهم كريستوفر كولومبوس..

قاطعته مجددًا:- من؟!!

ضحك «خالد» مجددًا:

- أقولك على حاجة.. اسمعينى وبس.. مش هتفهمى مني حاجة دلوقت.. ثم أكمل.. وسألها:

- أنتي تعرفي مصر؟

«أسيل» وكانها تسمع الاسم لأول مرة:

- مصر؟! لا أعرفه..

«خالد»:- طب تعرفي أمريكا.. الصين.. أفريقيا.. أستراليا؟!

«أسيل» ومازالت مندهشة:- ما تلك الأسماء؟!

رد «خالد»:- دي أسامي بلاد العالم بتاعي.. أنا بلدي اسمها مصر.. بنتكلم نفس لغتكم.. اللغة العربية.. بس بالعامية زي كلامي كده..

«أسيل»:- نعم.. ثم سألته:

- وأين مصر؟!

رد «خالد»:- زي ما بسأل نفسي بالظبط فين زيكولا.. هتكون نفس الإجابة لينا..

فسألته «أسيل»:

- هل هي كبيرة مثل زيكولا..

ضحك «خالد» وسألها:

- هو عدد الناس في زيكولا كام؟!

ابتسمت «أسيل» ، وقد وقفت وتحركت تجاه البحيرة.. ثم إلتفتت وردت:

- كثيرون للغاية.. قد يصل إلى ثلاثمائة ألف.. هذا غير البلاد الأخرى.. آلاف أخري..

فرد «خالد» ، وقد وقف هو الآخر:

- عدد سكان مصر فوق التمانين مليون نسمة..

«أسيل» وكأنها لا تصدقه: - ماذا؟!!

أكمل «خالد» ضاحكًا:

- أمّال لو عرفتي عدد سكان بلد تانية اسمها الصين، اللى عدّى المليار.. ولاّ عدد سكان الهند.. أقولك..عدد سكان العالم بتاعي أكتر من ستة مليار نسمة..

نظرت إليه «أسيل».. وبدأت تعد على أصابع يدها، وكأنها تتخيّل العدد ثم سألته:

- وكيف يأكل كل هؤلاء الناس؟

فضحك «خالد»:

- اطمني.. كلّه بياكل..

ثم سألته:

- ومصر بلدك.. جميلة؟.. تحبها؟!!..

ابتسم «خالد» ثم نظر بعيدًا إلى البحيرة.. وصمت مفكّرًا قليلًا ..

ثم تنهّد وتحدّث:

- كان عندنا شاعر جميل اسمه صلاح جاهين قال:

على اسم مصر التاريخ يقدر يقول ما شاء

أنا مصر عندي أحب وأجمل الأشياء

بحبها وهي مالكة الأرض شرق وغرب

وبحبها وهي مرمية جريحة حرب

بحبها بعنف وبرقة وعلى استحياء

وأكرهها وألعن أبوها بعشق زي الداء...

ثم توقّف «خالد».. وحدّثته «أسيل» وكأنها تريد المزيد:

- ماذا بعد.. أكمل..

فضحك «خالد»:

- لا.. أنا حافظ دول بس..

فضحكت «أسيل».. ثم أكمل «خالد»:

- العالم بتاعي بيختلف عن هنا كتير.. عندنا كهربا وإذاعة وتلفزيون.. وإنترنت، وبنتعامل بالنقود..

«أسيل»:- ماذا.. ما كل هؤلاء؟!

رد «خالد»:- مش هتفهمي قصدي لو قعدت أشرح لك سنة كاملة.. بس احنا عالمنا متطور إلى حد كبير..

فسألته:

- هل أنتم تعيشون بالفضاء؟

ضحك «خالد»:

لا، لا.. احنا بنعيش على الأرض.. وعندنا مَيّه، وصحرا.. وبنات حلوة زي هنا.. حتى لمح تغير وجه «أسيل».. التي سألته على الفور بعدما تحدّث عن جمال البنات:

- وكيف جئت إلى هنا؟

فصمت «خالد» قليلًا .. ثم تحدّث:

كنت في يوم زعلان.. فحب جدي يخفف عني، فكلمني عن سرداب تحت بلدتي اللي اسمها (البهوفريك) .. اسمه سرداب فوريك..

ومن أول ما حكالي، ومش عارف أيه اللى حصل لي.. لقيت عندي رغبة قوية إني أنزل السرداب ده، واكتشف اللي فيه..

***

بعدها ظل «خالد» يحكي ما حدث له منذ نزوله إلى السرداب حتى وصل إلى تلك الأرض.. وقابل الفقيرَين بالصحراء .. وتشبث بعربتها مع «يامن».. ودخوله إلى زيكولا.. وعلمه أن التعامل بها بوحدات الذكاء.. ثم نظر إليها:

لما شفت العربات، والأحصنة، والدروع، والسيوف.. فكرت إني انتقلت بالزمن في الماضي.. بس فوجئت إن الجميع هنا بيقولوا إننا في أواخر ٢٠٠٩ .. وده نفس التوقيت في بلدي..

ردت «أسيل»:

- نعم، نحن على أعتاب عام ألفين وعشرة..

أكمل «خالد»:- دي الحاجة اللي هتجنني.. ومش قادر استوعبها.. إزاي احنا في ٢٠٠٩.. وحياتكم هنا بتقول إنكم من قرون؟!.. ثم تابع:

ولما اتأكّدت من إن التعامل بالذكاء فعلًا مش كلام مجانين.. بقيت متأكّد إن السحر هنا مسيطر على المدينة.. أنا خلاص مش قادر أفكّر..

قاطعته «أسيل»:

- لا أعتقد أنك محق بأن السحر يسيطر على زيكولا.. إن الحياة هنا هكذا.. لماذا لا تقول إن السحر يسيطر على بلدك أنت.. ويجعلكم تتعاملون بطريقة أخرى.. كيف تتعاملون بورق.. أرى هذا سحرًا.. في بلدي القديمة بيجانا كنا نتعامل بالمقايضة..

رد «خالد»:- أيوه المقايضة حاجة طبيعية..

«أسيل»:- هنا في زيكولا التعامل هكذا يا «خالد».. هل كانت عملة بلدك مصر في كل البلدان..

«خالد»:- لا.. كل بلد لها عملة..

«أسيل»:- وهكذا هنا.. العملة الذكاء.. لست أنا، أو أنت من فرضها..

صمت «خالد» مجددًا ثم قال:

- الواقع دلوقتي بيقول إنه اتحكم عليا إني أفضل سنة كاملة في زيكولا.. ونفسي السنة دي تعدي بأقصى سرعة.. نفسي أرجع لبلدي.. أرجع لحياتي الطبيعية..

ثـم عـاد بظهـره.. وأسـنده إلى الأرض، وقـد وضـع يديـه خلـف رأسه.. ونظر إلى السماء.. وتأمّلها كثيرًا حتى نطقت «أسيل»:

- قصتك غريبة بالفعل يا «خالد».. ولوسمعها غـيري لظـن أنـك مجنون.. ثم ابتسمت:

- ولكنني أصدقك.. ولن أتركك حتى تحدثني عـن التلــ..فزون هذا.. في القريب.. ولكن ليس الآن..

فابتسم «خالـد»، ولكنـه تـذكر شـيئًا.. ثـم قـام مـسرعًا إلى جانـب الشجرة.. وحدّث «أسيل»:

- أنا عندي دليل..

ثم عاد إليها مجددًا .. ومعه ساعة يده التي كانت توقّفت.. فسألته:

- أهذا التلـ فز..ون..؟!!

ضحك «خالد»:

- لا.. دي ساعة.. بنحسب بيها الوقت..

نظرت «أسيل» إلى الساعة بدهشة:

- إنها عجيبة..

ضحك «خالد»:

- لوكانت بتشتغل كنت قلت لك اقبليها هدية.. بس دي ملهاش قيمة دلوقتي..

فابتسمت:

- إنك كريم..

ثم نظرت إلى الساعة:

كيف تقيس تلك الآلة الوقت.. إننا هنا نقيسه بطريقة أخرى تمامًا.. إنه عمل يقوم به أشخاص، ويأخذون راتبهم..

رد «خالد»:

في الحقيقة أنا مش عارف هي بتقيس الوقت ازاي.. ثم سألها وكأنه يريدها أن تبقى معه مدة أطول وألا تغادر:

- هو الوقت بيتحسب ازاي في زيكولا..

ردت «أسيل»:

ترى ضخامة سور زيكولا.. كلما أشرقت الشمس حتى تشرق اليوم التالى يحسب يوما.. وتُنحت علامة على السور.. ثم تمر سبعة أيام فتُنحت علامة أخرى للأسبوع.. وما إن يأتي الشهر بعد ثلاثين يومًا حتى تُنحت علامة مختلفة.. ويأتى العام بعد اثنتي عشرة علامة من

علامات الشهور.. فتُنحَت دائرة مميزة.. إنهم عمال كثيرون، ولهم أُجور لعملهم.. يُسمَّون (عُمَّال الوقت).. ثم أكملت:

ولكن الغريب والذي لاحظته.. أننا ندرك أننا في نهاية عام ألفين وتسعة.. وهذا لا أعتقد أنه يتوافق مع عدد السنوات التي على السور.. والتى لا تكمل نصف هذا العدد من السنين.. ولكنني لا أشغل بالي بهذا..

تنهد «خالد» قائلًا:

- زيكولا.. كل شيء غريب تجده في زيكولا..

ثم أكمل:

النهارده بالصدفة عرفت إن فيه كتاب تاني عن سرداب فوريك.. وإن حد اشتراه من سنين.. والكتاب ده بيمثل الأمل ليا.. وإني أرجع لبلدي.. ثم تابع:

- الأكبر من كده إني حاسس إن اللي اشترى الكتاب ده ممكن يكون والدي..

صمتت «أسيل» ، وكأنها تفكر:

- إنني لم أسمع عن هذا الكتاب من قبل.. ثم سألته:

- ماذا ستفعل.. هل ستسأل كل شخص عن هذا الكتاب..

رد «خالد»:- أنا هدوّر على الكتاب في كل مكان.. لازم ألاقي الكتاب.. أكيد الكتاب ده هو اللي هيجيب عن كل أسئلتي..

فابتسمت «أسيل»:

- أتمنى أن تجده.. وأن أستطيع مساعدتك يا «خالد».. ثم نهضت:

- عليّ أن أغادر الآن.. لقد تأخر الوقت كثيرًا، ولديّ الكثير من العمل غدًا.. أظن أننا تحدثنا بما يكفي لحديث شهر كامل.. ثم أكملت، وهى تسير:

- ولكنني أحببت ذلك الوقت معك يا «خالد»..

***

غادرت «أسيل»، وظل «خالد» يقظًا.. يفكر كثيرًا ثم يقطع تفكيره بابتسامة حين يتذكر حديثه مع «أسيل».. وظل هكذا حتى أشرقتِ الشمس دون أن يغفو له جفن.. فاتجه مسرعًا إلى مكان عمله.. وكعادته قابل من يأخذون منه الوحدتين مقابل حمايته.. فآثر أن يعطيهم الوحدتين.. ثم وجد «يامن» فنادى عليه:

- «يامن»..

رد «يامن»:- أهلًا «خالد»..

«خالد»:- عاوز منك طلب.. عاوز اشترى حصان..

«يامن» في دهشة:

- حصان؟!!

«خالد»:- أيوه

«يامن» وما زالت الدهشة على وجهه:

- لماذا؟!

لم يجد «خالد» مفرًّا إلا أن يخبر «يامن» بالحقيقة.. وأنه يريد ذلك الحصان كي يبحث عن الكتاب في جميع مناطق زيكولا.. حتى بدا «يامن» وكأنه لا يصدقه.. ولكن هذا لم يشغل بال «خالد».. وطلب منه أن يَدُلَّه على مكان لبيع وشراء الأحصنة.. حتى نظر إليه «يامن» متجاهلًا قصته:

- إن هذا سيكلفك كثيرًا.. ربما يكلفك مائة وخمسين وحدة..

رد «خالد»:

- أنا موافق..

تابع «يامن»:

- «خالد».. هذا سيأخذ من مخزونك الكثير..

«خالد»:- مش مهم.. المهم إني ألاقي الكتاب..

«يامن»:- حسنًا كما تريد.. سأخبرك أين تجد مكانًا تبتاع منه حصانًا قويًّا.. ولكن أين ستبحث.. نحن هنا في المنطقة الشرقية حيث باب زيكولا وأرض الاحتفال وصناعة الطوب.. هناك أربعة مناطقَ أخرى غير هذه المنطقة؛ المنطقة الشمالية، والمنطقة الجنوبية، والمنطقة الغربية، والمنطقة الوسطى التي يوجد بها الحاكم.. وكل منطقة تختلف عن الأخرى وعن منطقتنا هذه..

رد «خالد»: أنا هدوّر في كل مكان.. لازم ألاقي الكتاب.. أو اللي اشتراه..

«يامن»:- وعملك؟!

رد «خالد»:- عندي مخزون كبير زي ما قلت..

«يامن»:- «خالد».. أخشى أن تقترب من مخزونك كثيرًا فتندم على ذلك..

رد «خالد»:

- ده أمل مقدرش اتركه.. عرفّني بس منين اشتري حصان..

«يامن»:- حسنًا.. ولكن ماذا إن وجدت الكتاب.. ولم تجد به ما ينفعك.. وقد أنفقت الكثير من ثروتك، وجاء يوم زيكولا؟!..

رد «خالد»:

- لو جِه يوم زيكولا.. اعتقد إن هيكون فيه كتير أفقر مني.. وأنا واثق إني بالكتاب ده هقدر أرجع لبلدي.. حتى لو فقدت أكبر قدر من الذكاء..

صمت «يامن» قليلًا.. ثم تنهّد قائلًا:

ولكنك نسيت شيئًا هامًّا لا تعرفه.. إن نجحت في ذلك وفقدت جزءًا كبيرًا من ثروتك.. ستعود إلى وطنك كما خرجت من هنا.. مريضًا.. لست ذكيًّا على الإطلاق..لن يميزك عن غيرك سوى شيء واحد.. فسأله «خالد» متعجبًا:

- إيه هو؟

رد «يامن»:

- الغباء يا صديقي..

***

(٩)

أخبر «يامن» «خالد» بأنه قد تجاهل شيئًا لا يعرفه، وأنه إن فقد ثروته مقابل ذلك الكتاب سيخرج من زيكولا كما هو.. أقل ذكاءً.. لا يمتلك إلا الغباء.. فنظر إليه «خالد» وقد اتسعت حدقتا عينيه.. وكأن صاعقة أصابته:

أيه؟!!..أنت بتقول أيه؟!..

رد «يامن»:- تلك هي الحقيقة يا «خالد».. عليك أن تحتفظ بذكائك حين تخرج من زيكولا حتى تعود إلى بلدك كما كنت.. أو تعمل وتحقق ثروة فتعود أكثر ذكاءً.. أما إن فقدت ذكاءك هنا وقد خرجت... ثم صمت قليلًا وأكمل:

فكيف تسترده بعد ذلك..

صمت «خالد» مرة أخرى من الصدمة.. وحدّث نفسه في ضيق:

- الكتاب أوالغباء.. ثم غضب، وترك «يامن» الذي علا صوته تجاهه:

- ماذا ستفعل.. أما زلت تريد أن تشتري حصانًا؟..

ولكن «خالد» لم يجب سؤاله.. وتركه وسار مبتعدًا عن مكان العمل ، هائمًا.. لا يعلم ماذا سيفعل وماذا يقرر..

***

غادر «خالد» مكان عمله.. وما إن غادر حتى وصلت «أسيل» إلى ذلك المكان، وكأنها تبحث عنه.. وقد سألت بعض الفتيان أين تجده.. فأخبروها بأن تجد «يامن» صديقه المقرّب.. حتى وجدت «يامن» الذي كان يعمل بتقطيع الصخور.. فسألته على الفور:

-أنت «يامن»؟

فنظر إليها «يامن» في دهشة:

- «أسيل» الطبيبة !!.. نعم ، أنا «يامن»..

فسألته:- أين «خالد»؟

فاندهش «يامن» من سؤالها:

- تريدين «خالد»؟!

ردّت:- نعم..

«يامن»:- لقد غادر العمل غاضبًا..

فسألته في لهفة:- لماذا؟!

رد «يامن»:- إنها قصة طويلة.. ربما لن تصدقيها..

صمتت «أسيل» قليلًا ثم سألته:

- الكتاب؟!

«يامن» في دهشة:

- أتعرفين قصة الكتاب؟!

ردت «أسيل»:- نعم.. أعرف كل شيء.. لماذا غادر غاضبًا؟

بعدها أخبرها «يامن» بقصة ذلك الحصان الذي يريد أن يشتريه «خالد» كي يبحث عن الكتاب في أرجاء زيكولا.. ثم أكمل حديثه حين قال:

- والآن أنا لا أعرف أين هو.. فابتسمت «أسيل»:

- ولكنني ربما أعرف..

ثم شكرته، وغادرت.. وقد ابتسم «يامن» حين غادرت «أسيل» قائلًا:

- لم أرها في حياتي تهتم بشخص هكذا..

***

وصل «خالد» إلى شاطئ البحيرة مرة أخرى ثم جلس، وقد بدا الحزن والضيق على وجهه.. حتى اتجه إلى أغراضه بجوار شجرة البحيرة.. وقد أخرج الأقلام والأوراق التي اشتراها.. وقرر أن يكتب أي شيء.. لا يدري ماذا يكتب، ولكنه يعلم أنه لا سبيل لذلك الضيق سوى أن يكتب.. كما كان يفعل دائمًا حين كان يرفضه والد «منى» ، وكان يكتب وريقاته، ويعلقها على حائط غرفته.. حتى أمسك بقلمه.. وبدأ يرسم خطوطًا، ويكتب كلمات غير مفهومة..حتى كتب«ماذا أفعل؟».. بعدها فوجئ بـ«أسيل» تقترب منه.. وقد ابتسمت:

- كنت أعرف أنني سأجدك هنا.. ثم سألته:

- لماذا لم تعمل اليوم؟

فصاح «خالد» غاضبًا:

- واشتغل ليه؟!.. أنا كرهت كل حاجة هنا..

فابتسمت «أسيل» في هدوء.. تريد أن تخفف من غضبه:

- حسنًا.. ماذا فعلت بعدما تركتك بالأمس؟

فأخبرها «خالد» بأنه لم يفعل شيئًا.. وظل يقظًا حتى أشرقتِ الشمس فتابعت:

- لست وحدك من أصابك الأرق.. أنا أيضًا لم أنم..

فنظر إليها «خالد» في دهشة.. حتى أكملت:

- كنت أفكر كيف تجد كتابك..

ثم سارت بعض الخطوات بعيدة عنه.. بعدها إلتفتت إليه، وقالت:

- تريد أن تبحث في كل مناطق زيكولا.. وأنا أريد أن أساعدك في ذلك..

ثم ابتسمت:

وهنا في زيكولا لا أحد يساعد غيره دون مقابل.. ثم صمتت برهة وأكملت:

- وأنت لا تريد أن تعمل.. ثم نظرت إلى أسفل:

- ولهذا لن أستطيع مساعدتك..

ثم سارت بضع خطوات.. وتحدّثت إلى نفسها بصوت يسمعه «خالد»:

- ولكن ربما يفكر «خالد» الذكي.. ويريد أن يعمل.. وبعدها قد يساعده عمله..

فنظر إليها «خالد»، وقد أصابته الحيرة:

- أنا مش فاهم حاجة..

ابتسمت «أسيل» مجددًا:

- «خالد».. أنا أذهب إلى كل مناطق زيكولا ماعدا المنطقة الشمالية.. وقد جئت إليك اليوم كي أقدّم لك عرضًا..

«خالد» في دهشة:

- عرض؟!!

ردت «أسيل»:- نعم.. ما رأيك أن تأتي معي إلى تلك المناطق، وتعمل كمساعد لي جزءًا من اليوم.. وقد أعيرك أحد أحصنتي إن احتجته باقي اليوم.. تبحث عن صاحب الكتاب كما تشاء بالمكان الذي نتواجد به..

ثم أكملت وقد أشارت إليه بأصبعها:

- ولكن عليك أن تعود إليّ مبكرًا في اليوم التالي.. أنا أحب أن يلتزم من يعمل معي..

«خالد» ومازالت الدهشة منطبعة على وجهه:

- أعمل معك؟!!

«أسيل»:- نعم..

«خالد»:- بس أنا مبفهمش حاجة في الطب..

«أسيل»:- وكيف أنقذت الفتى؟!

رد «خالد»:- زي ما قلت لك قبل كدة، دي دورة إسعافات أولية.. بس مش معنى كدة إني بفهم في الطب..

«أسيل»:- حسنًا.. أشعر أنك ستتعلم كثيرًا.. وربما نجد غرقى، فلن أجد أفضل منك في إنقاذهم..

فسألها «خالد»:

- «أسيل».. هو أنتي الطبيبة الوحيدة في زيكولا؟

ردت:- لا.. هناك العديد من الأطباء.. ولكني أكثر مهارة.. وهذا ما جعلني طبيبة الحاكم وأسرته.. وطبيبة زيكولا الأولى رغم سنّي الصغيرة..

ثم سألته:

- هل توافق؟

فصمت «خالد» مفكّرًا، وقد طال تفكيره.. ثم التفتت «أسيل» إليه - وقد سارت خطوات مبتعدة عنه- وقالت:

- أرى أنك حقًا لا تحب الطب.. ثم ابتعدت حتى نطق «خالد» بصوت عالٍ:

- «أسيل».. أنا موافق..

فابتسمت دون أن تُرِيَه وجهها.. وقد ضاقت عيناها بعدما سمعت كلماته.. ثم توقفت، والتفتت إليه مجددًا:

- حسنا يا مساعدي.. عليك أن تُعِدَّ نفسك، وأن تنام جيدًا اليوم.. غدًا سنذهب إلى المنطقة الوسطى التي يتواجد بها حاكم زيكولا..

***

غادرت «أسيل»، أما «خالد» فقد امتلك من السعادة ما لم يمتلكه من قبل في زيكولا.. حتى كاد يرقص فرحًا.. ويحدّث نفسه:

- أنا مساعد «أسيل».. أنا مساعد «أسيل»..

ثم عاد مسرعًا إلى أغراضه.. وأمسك القلم من جديد. وبدأ يكتب.. بعدما فكّر قليلًا:

«أسيل».. تلك الحورية التي وجدتها في زيكولا.. ربما كنت أظنها جميلة الوجه فقط حين رأيتها للمرة الأولى.. ولكنها تمتلك كل ما هو جميل.. إن اليوم أسعد أيامي في تلك المدينة.. ثم ترك القلم، ووضع

الأوراق بجواره، ثم أخفاها بأغراضه.. ونظر إلى ملابسه.. وحدّث نفسه بأنه اشتراها حين دخل إلى زيكولا منذ أكثر من شهر، ولا يمتلك غيرها.. فعزم على أن يذهب إلى شوارع المدينة.. وأن يشترى زيًّا جديدًا يناسب وظيفته الجديدة.. وقد ذهب بالفعل، واشترى زيًّا ليس بغالي الثمن.. وقد اندهش بائع الملابس.. وسأله:

كيف تشترى زيًّا آخر بعد شهر واحد فقط؟!.. ولكن «خالد» لم يعبأ بذلك.. وعاد إلى شاطئ البحيرة مرة أخرى.. وظل هناك حتى حلّ الليل، وهو ينتظر أن يأتي صباح اليوم التالي في أسرع وقت..

***

في صباح اليوم التالي.. نهض «خالد» من نومه، وكعادته ألقى بجسده في البحيرة ببنطاله القديم.. بعدها ارتدى زيه الجديد.. وظل في انتظار «أسيل» حتى وجد عربتها، يقود حصانها سائق، تقترب.. فأسرع إليها.. وركب العربة بجوارها.. ثم تحركت العربة في اتجاهها إلى المنطقة الوسطى.. بعدها نظرت «أسيل» إلى زِيِّه الجديد:

– مبارك عليك الزي الجديد..

– ضحك «خالد»:

- لازم المساعد بتاعك يشرّفك في أي مكان.. ثم سألها:

- احنا هنعمل أيه في المكان اللي احنا رايحين له؟

ردت «أسيل»:- المنطقة الوسطى يعيش بها الحاكم وأسرته.. وقد أرسلوا إليّ كي أذهب إلى هناك اليوم.. قد يكون أحدهم مريضًا..

فسألها «خالد» على الفور:

- طب ليه أنتي مش ملازمة الأسرة الحاكمة طول الوقت؟!

ردت «أسيل»:- لقد طلب مني الحاكم ذلك بالفعل.. ولكنني رفضت..

«خالد» في دهشة:- رفضتي!

أجابته «أسيل» مبتسمة:- نعم.. لا أريد أن أكون أسيرة لمكان بعينه.. حتى لو كان مكان الحاكم..

«خالد» -ومازال مندهشًا-:

- تقدري ترفضي طلب للحاكم؟!

«أسيل»:- إنه حقي.. ولديّ من الحرية ما يجعلني اتحكم بإرادتي.. وأنا أحب الانطلاق.. لا أريد أن يقيدني أحد..

صمت «خالد» ثم سألها سؤالًا جال بخاطره:

- هو نظام الحكم هنا في زيكولا ملكي؟

ردت «أسيل»:- لا.. إن حاكم زيكولا يظل بالحكم خمس سنوات.. ثم يأتي حاكم غيره يختاره أهل زيكولا..

فاندهش «خالد» كثيرًا:

- خمس سنوات بس؟!!!

«أسيل»:- نعم..

«خالد»:- ومفيش تجديد؟!

«أسيل»:- لا.. كل حاكم له خمس سنوات فقط.. ألا تكفِ تلك المدة.. أرى أنها كافية لكل حاكم هنا كي يأتي غيره، ويكمل مسيرة التقدم لزيكولا، ويستفيد من أخطاء من سبقه.. ولهذا زيكولا تتقدم عن البلاد الأخرى.. ألستم كذلك في بلدك؟

ضحك «خالد» ثم فرك شعره.. وصمت، وحاول أن يختلق موضوعًا آخر للنقاش.. ثم حدّث نفسه:

أنا دلوقت متأكّد إن زيكولا ليست لها أي صلة بالوطن العربي إلا اللغة العربية.. حتى قاطعت صمته «أسيل»:

- لماذا الصمت؟

ضحك «خالد»:- لا.. ولا حاجة.. لسه وقت كتير على المنطقة الوسطى؟

نظرت «أسيل» من نافذة العربة ثم أجابته:

- لم يتبق إلا القليل.. ثم تابعت:

- ستساعدني حين يكون عملي مع الرجال فقط.. أما النساء فلا أريد مساعدتك في شيء..

فضحك «خالد» مداعبًا لها:

- ليه؟

فابتسمت ثم أكملت:

- يمكنك أن تتصرف وقتها.. وأن تبحث عن كتابك.. ولحسن حظك تلك المنطقة صغيرة.. لا يوجد بها سوى قصر الحاكم، وبعض قصور الأثرياء..

***

مرّ الوقت.. وقد وصلت العربة إلى تلك المنطقة التي يقصدونها.. وقد نظر «خالد» من نافذة العربة، واندهش حين وجد تلك القصور العالية.. وتلك الزخارف الرائعة التي تزينها من الخارج.. وشاهد

الكثير من الحراس يقفون أمام أحد القصور فعلم أنه قصر الحاكم.. حتى توقفت أمامه العربة ، ونزلت «أسيل» ومعها «خالد» حاملًا حقيبتها القماشية.. واتجها إلى داخل القصر.. و«خالد» يتلفت حوله كلما سار، ويشاهد البراعة المعمارية مستمتعًا، وقد لاحظت «أسيل» ذلك بعدما تلكأ في خطواته.. فحدّثته مبتسمة:

على مساعدي أن يسرع.. ليس هناك وقتٌ للتأمل..

فابتسم «خالد»، وأسرع حتى دخل معها إلى بهو القصر.. وهناك وجد رجلًا تبدو عليه الفخامة والنفوذ.. وبجواره العديد من الأشخاص والذين بدا عليهم الثراء أيضًا.. وقد علم «خالد» ذلك من ملابسهم المزركشة، والتي قد تباع إحداهم بما يكفي لإنقاذ عشرات الأشخاص من الذبح.. حتى انحنت «أسيل».. وانحنى معها «خالد».. بعدها تحدث الحاكم إلى «أسيل»:

- لقد جئت في موعدك أيتها الطبيبة.. ثم سألها:

- من هذا؟! وقد أشار إلى «خالد»..

فأجابت: إنه مساعدي يا سيدي..

فتابع الحاكم:

- لن تحتاجيه اليوم.. أريدك فقط أن تداوي زوجتي.. أشعر أنها ليست بخير في الأيام السابقة..

فانحنت «أسيل» مرة أخرى.. ثـم عـادت إلى خـارج بهو القـصر.. ومعها «خالد» وقد حدثته مبتسمة:

- أرى أنك محظوظ.. لن تعمل اليوم، ولكنني سأرهقك من العمـل في الأيام القادمة..

ثم أشارت إليه أن ينصرف:

لك اليوم بالكامل.. ابحث عن كتابك.. ربما تجد ذلك الشخص الذي اشتراه هنا.. أما أنا فعليّ أنا أرى زوجة الحاكم.. لعلها بخير.. ابتسم «خالد» ، وتركها وغادر.. وهو يحدّث نفسه:

- «أسيل».. حورية زيكولا..

***

انصرف «خالد».. وبدأ يسأل كل من يقابله عن شخص طويل وعريض مثله، ولهجته غريبة أيضًا، ولكنه يكبره سنًّا، ويتكلم عن الخيال.. أوعن شيء يسمى سرداب فوريك.. فلم يجد ممن يسألهم سوى علامات الدهشة والغرابة.. ولم يكن يعلم أحد -ممن يعملون بقصر

الحاكم- شيئًا عن ذلك الشخص الذي يقصده «خالد».. بعدها خرج من القصر.. واتجه إلى القصور الأخرى، ويعلم أنه سيجد صعوبة فيما يفعله.. ولكنه عزم على أن يتمسك بأمله.. وأن يحاول في سبيل حلمه بالعودة إلى بلده.. وبدأ يسأل الناس من جديد.. ولكنه كلما سأل أحدًا عن ذلك الشخص، أو ذلك الكتاب لم يجبه.. وظل يسأل كل من يقابله.. دون جدوى.. ومر الوقت وقد أصابه التعب، وبدأ اليأس يتسرب إلى قلبه حتى مر عليه شخص فسأله.. فأخبره بأن هناك مبنى كبير به الكثير من الكتب.. يسمى مكتبة الحاكم لعله يجد ذلك الكتاب به..

***

أسرع «خالد» إلى ذلك المكان الذي وصفه له الرجل مقابل وحدتين من ذكائه.. وهناك وجد شخصًا يعمل به.. فسأله عن ذلك الكتاب لعل صاحبه قد باعه أو أهداه إلى تلك المكتبة.. فلم يجبه الشخص.. وأخبره بأنه لا يعلم كثيرًا عن تلك الكتب.. وقد سمح له أن يدخل إلى المكتبة مقابل خمس وحدات أخرى من ذكاء «خالد».. وقد وافق «خالد» على ذلك.. واتجه إلى داخل المكتبة..

بعدها بدأ «خالد» يبحث بين الكتب.. ويبحث بين الوريقات المتناثرة.. يبحث في كل مكان بتلك المكتبة.. لا يريد أن يترك شبرًا دون أن يبحث به.. ويستريح لبعض الوقت ثم يعاود بحثه مجددًا حتى لا يُضيِّع وقته.. ويزيح الأتربة المتراكمة على بعض الكتب.. ويجلس من يعمل بتلك المكتبة يشاهده دون أن يساعده.. و«خالد» يواصل بحثه.. يحاول أن يجد أي عنوان لكتاب يمت بصلة إلى سرداب فوريك.. ولكن دون فائدة.. فقد مرّ الوقت وأكمل بحثه دون أن يجد ما يريده.. حتى حدّث نفسه:

أكيد صاحب الكتاب مش في منطقة الحاكم.. لسه فيه مناطق تانية..ثم غادر.. وقد دخل الليل، وعاد إلى قصر الحاكم فوجد «أسيل» في انتظاره بالعربة.. فسألها إن كانتِ انتهت هي الأخرى من عملها فأجابته بأنها قد انتهت من عملها بالفعل.. ثم سألها لماذا لم تغادر؟ فأجابته مبتسمة:

- وهل أغادر دون مساعدي؟!.. هيا.. ثم أمرت السائق أن يتحرك بهم إلى البحيرة.. بعدها سألته:

- هل وجدت شيئًا؟

رد «خالـد»:- للأسـف لا.. سـألت نـاس كتـير بـس ملقـتش أي جواب..

«أسيل»:- لهـم العـذر في ذلـك.. إنـك تبحـث عـن شيء صـعب للغاية.. تبحث عن شخص لا تعرفه.. وعن كتاب لم يسمع به أحد.

«خالد»:- عارف إنه أمل ضعيف.. بس لازم اتمسك بيه..

ابتـسمت «أسـيل»:- لا تحـزن يـا «خالـد».. إنـك مازلـت بـاليوم الأول من البحث.. وعليك أن تسعد بأنك انتهيت من منطقة بأكملها.. حتى لو كانت صغيرة.. ثم صمتت، وأكملت:

- لدّى خبر سيجعلك سعيدًا..

نظر إليها «خالد» في لهفة:

- إيه هو؟

ردت «أسيل»:

- لقد اكتشفت أن زوجة الحاكم ليست مريضة.. وإنها ستستقبل مولودًا قريبًا..

«خالد»:- حامل؟

«أسيل»:- نعم.. وأرى من أعراض حملها، أنه قد مرّ ثلاثة أشهر على حملها..

فسألها «خالد» مندهشًا:

- وأنا أكون سعيد ليه؟

ردت «أسيل»:

إن أنجبت ذكرًا سيكون هناك احتفال لأهل زيكولا بذلك الطفل تكريمًا للحاكم.. ويقام يوم زيكولا بعد مولده بسبعة أيام.. وبالطبع سيفتح باب زيكولا قبله بيوم، ويذبح أفقر من بالمدينة أيضًا.. ثم أكملت:

هذا يعنى أن يوم زيكولا قد يكون بعد ستة أشهر فقط من اليوم

ثم صمتت مجددًا، ونظرت إلى النافذة.. وقد بدا على وجهها الحزن، ولمعت عيناها بالدموع.. وأكملت..

- وقتها تستطيع أن تخرج من زيكولا .

***

(١٠)

لم يتمالك «خالد» نفسه من الفرحة، وكأنه لا يصدق أذنيه.. وشعر بأن ما قالته «أسيل» يجعله يرقص فرحًا.. ثم نظر إلى «أسيل»:

- ست شهور؟!

ردت «أسيل»:- نعم.. إن أنجبت ذكرًا..

«خالد» في فرحة، وهوينظر إليها:

- أنا متأكد إنه هيكون ذكر.. عارفة ليه؟

«أسيل»:- لماذا؟!

«لأنك وش السعد عليا.. أحلى حاجة حصلت لي في زيكولا»:

قال تلك الكلمات ، وقد غطت السعادة وجهه.. ثم تحدث إلى نفسه:

- ست شهور.. يارب يكون ولد.. ثم نظر إلى «أسيل» مجددًا:

- متتخيليش أنا فرحان أد إيه.. أنا نفسي زوجة الحاكم تولد النهارده قبل بكره.. فعادت «أسيل» إلى ابتسامتها الرقيقة بعدما شعرت بسعادة «خالد» بذلك الخبر.. وقالت:

- أنا أيضًا سعيدة لأنك تشعر بالسعادة.. كنت أعلم أنك ستكون سعيدًا هكذا..

ابتسم «خالد»، ثم نظر خارج العربة عبر النافذة، ثم نظر إلى السماء المظلمة.. والتي كان بها نجم مميز في تلك الليلة.. يضيء منفردًا بالسماء ومبتعدًا عن مجموعة نجوم أخرى.. ثم طلب من «أسيل» أن تنظر إلى ذلك النجم الذي أشار إليه:

- شايفة النجم اللي هناك ده..

ردت «أسيل»:- نعم.. إنه وحيد ومميز..

ضحك «خالد»:- أنا هسميه «أسيل».. ثم صمت، وتحدث بعد لحظات:

- لو رجعت لبلدي يوم.. أكيد هلاقي النجم ده في السما..

ضحكت «أسيل»:

- أرى أن الفرحة جعلتك رومانسيًّا..

فضحك «خالد» مكملًا حديثه ومداعبًا لها:

- أكيد النجم مش في جمال «أسيل».. بس هو جميل ومميز زي ما «أسيل» جميلة ومميزة..

فاحمرّ وجه «أسيل» خجلًا.. وصمتت، وظلت تنظر إلى «خالد» الذي صمت هوالآخر، وكأنه هام بفكره.. وسرح بين أحلامه..

***

كانتِ العربة تسير مسرعة، و«خالد» و«أسيل» بداخلها يتحدثان أحيانًا.. ويصمتان أحايين أخرى.. وظلّا هكذا حتى وصلتِ العربة إلى البحيرة.. وتوقفت هناك؛ فنزل «خالد»، ثم تحدثت إليه «أسيل»:

- الأسبوع القادم سنذهب إلى المنطقة الجنوبية..

فابتسم «خالد» ، وأومأ برأسه موافقًا.. ثم أكملت:

- أمامك سبعة أيام..عليك أن تعود إلى عملك هنا.. لا تضيع وقتًا دون عمل..

فسألها «خالد» مندهشًا:

- وعملي كمساعد ليكي؟!

ابتسمت «أسيل»:

- إن احتجت مساعدتك لي هذا الأسبوع فلن أتردد في ذلك .. ولكن هنا يساعدني الكثيرون.. ثم تابعت:

- أترك لك المساعدة في المناطق الأخرى.. ولذا أمامك أيام لا تضيعها بالجلوس على شاطئ البحيرة.. اذهب إلى عملك مع صديقك «يامن» ، واجلبِ الكثير من الأجر..

فابتسم «خالد».. وهزّ رأسه موافقًا..

***

تحركت العربة مجددًا..و«خالد» ينظر إليها حتى اختفت عن أنظاره.. ثم اتجه إلى شاطئ البحيرة.. أما العربة فواصلت تحركها في أحد الشوارع المُنارة بالنيران حتى توقفت أمام بيت كبير.. تبدو من واجهته الفخامة والثراء، وله باب ضخم.. وقد نزلت «أسيل»، ودلفت إلى داخل البيت المضاء بالشموع، والذي امتاز بسقفه العالي، وجدرانه المنقوشة من الداخل، والأثاث الخشبي والنحاسي المُطعّم بماء الذهب.. ثم صعدتِ السلم الداخلي، واتجهت إلى حجرتها.. وألقت بنفسها على السرير المتواجد بها.. ثم نهضت مجددًا، وجلست أمام مرآة كبيرة.. وابتسمت برقّة وهي تنظر إلى صورتها بالمرآة، وإلى شعرها الأسود الناعم الطويل الذي بدأت تتحسسه بيدها من الأمام إلى الخلف.. بعدها هامت للحظات، وبدأت تتحدث إلى نفسها:

- ما سر ذلك الشعور بداخلك؟.. وأي شعور هذا؟!

:- هل هوسعادة أم حزن؟

ثم نظرت إلى صورتها مجددًا بالمرآة.. وتحدثت إليها:

- لماذا حزنتي حين علمتي بقرب خروج «خالد» من زيكولا..

:- لا.. أنا لم أحزن..

:- لا، حزنتي.. نعم حزنتي، ثم سألت صورتها مجددًا:

- هل تحبينه؟!

صمتت قليلًا، ثم أجابت نفسها:

- لا أعلم.. إنني لم أعرفه سوى أيام قليلة..

:- ولكنك أحببته..

:- ربما أحببت حديثه وجرأته..

:- أو ربما أعجبني اختلافه عن باقي رجال زيكولا البُلهاء.. البخلاء، الذين لا يفكّرون إلا في جمع ثروة تفديهم من الذبح.. حتى أنهم يخافون أن يفكّروا ويستخدموا ذكاءهم؛ فيقلل ذلك من ثروتهم.. نعم يعجبني أنه يختلف عن غيره..

ثم قامت، وتحرّكت إلى نافذة الحجرة.. وأزاحت ستارها، ونظرت إلى السماء، وابتسمت حين رأت النجم الذي سمّاه «خالد».. «أسيل».. وظلت تنظر إليه كثيرًا ثُمَّ قالت:

- ولكنه سيرحل..

***

في اليوم التالي اتجه «خالد» إلى عمله القديم.. وهناك وجد «يامن» فصافحه، وبدءا يعملان معًا في تقطيع الحجارة.. وقد اندهش «يامن» من تلك السعادة التي بدت على وجهه، وما تبعها من حماسة في عمله.. حتى سأله:

- «خالد» أراك سعيدًا اليوم.. هل هناك شيء ما؟..هل وجدت كتابك؟

ضحك «خالد»:

- لا.. ولكن فيه خبر فرحني.. ثم أكمل:

- احتمال أخرج من زيكولا بعد ست شهور بس..

«يامن» في دهشة:- ستة أشهر فقط؟!.. كيف؟!!

ابتسم «خالد»:

- يوم زيكولا احتمال يكون بعد ستة أشهر بس..

«يامن» وهو لايُصدِّقه:- ماذا تقول؟.. يتبقى أحد عشر شهرًا على ذلك اليوم..

«خالد»:- لا يا صديقي.. أنا هقولك سر عرفته..

ثم أخبره «خالد» بأن زوجة الحاكم ستضع مولودًا بعد ستة أشهر.. وأن «أسيل» أخبرته بذلك، فابتسم «يامن»:

- أنا سعيد لك يا «خالد».. ولكني كنت أتمنى أن تبقى هنا..

ضحك «خالد»:

- أنا بحبك جدًا يا «يامن».. بس نفسي أرجع لبلدي.. ثم نظر إليه بحزن وحيرة:

- بس لو خرجت من زيكولا هعمل أيه؟.. عشان كده لازم ألاقي كتاب سرداب فوريك قبل الست شهور الباقيين..

فابتسم «يامن»:

- أتمنى أن تجده.. وأن تحقق ما تريد.. ثم تابع:

- إن أطفال زيكولا سيكونون محظوظين هذا العام إن أقيم يوم زيكولا..

فنظر إليه «خالد»، وكأنه يسأله عن السبب.. فأكمل «يامن»:

- إنهم سيشاهدون لعبة الزيكولا بعدما لم يشاهدوها المرة السابقة حين هرب الفقيران..

«خالد» في دهشة:

- لعبة الزيكولا؟!

رد «يامن»:- نعم .. ثم تذكر أنه لم يُحدِّث «خالد» عنها من قبل.. فأكمل حديثه:

- لم أخبرك بها سابقًا.. إنها اللعبة التي يُقال إن أرض زيكولا قد سميت بهذا الاسم نسبة لها.. هي في الحقيقة ليست لعبة.. إنها منافسة.. وينتظرها الجميع هنا.. فهي ما تُحدِّد الأفقر بالمدينة..

«خالد» ومازال مندهشا:- ازاي؟!

أكمل «يامن»:

- قبل يوم زيكولا بعدة أيام يقوم الجنود بجمع الأكثر مرضًا وشحوبًا بالمدينة.. يجمعون الكثيرين من الناس.. وهناك يحدد الأطباء من هم الفقراء ومن هم المرضى حقًّا.. حتى يتبقى منهم عدد قليل.. وهنا يأتي دور «أسيل» الطبيبة.. وهي من تحدد الثلاثة الأكثر فقرًا.. ثم

يأتي دور لعبة الزيكولا في اليوم السابق للذبح.. أي يوم فتح باب زيكولا..

ثم صمت قليلًا، وضرب صخرة بفأسه.. ثم أكمل حديثه:

- لعبة الزيكولا تكون أمام الجميع.. وهي ببساطة قرص خشبي يدور بسرعة معينة، وبه ثلاثة أسهم تنطلق من ذلك القرص.. ويقوم نحَّاتو زيكولا بنحت تمثال لكل فقير من الفقراء الثلاثة.. ويوضع هذا التمثال على بعد أمتار أمام قرص السهام.. وعلى كل فقير أن يختار ثلاثة أماكن في تمثاله كي يحميهم من السهام..

:- من يصيبه أكبر عدد من السهام يكون هوالفقير المختار.. وهكذا لا يُظلم أحد في زيكولا..

فسأله «خالد»:

- ومين اللي اخترع اللعبة دي؟

رد «يامن»:- لا أعلم فقد وجدناها منذ وُلدنا.. إنها تجعل كل فقير مسؤولًا عن حياته وعن قَدَره.. ربما يكون هناك فقير قد أُختِير في أيام كثيرة من أيام زيكولا.. ولكنه ينجح في اجتياز لعبة الزيكولا.. وهذا قَدَره..

فقاطعه «خالد» مجددًا:

- هي سهلة اللعبة دي؟

«يامن»:- في الحقيقة أراها أسهل ما يمكن.. والكثير منا يتنبّأ بالأماكن التي تصيبها السهام.. ولكن حين يصيبك الغباء فإنك لا تستطيع تحديد تلك الأماكن.. وتحمي مناطق أخرى من تمثالك.. ثم تابع:

- عليك أن تحافظ على ذكائك حتى تجد كتابك، وترحل عن هنا.. ولهذا هيا.. واصل عملك.. ثم ابتسم وأكمل:

- ما رأيك في منافسة كبيرة في تكسير الصخور أيها السعيد..

***

مرَّتِ الأيام يومًا بعد يوم.. و«خالد» يذهب إلى عمله لتقطيع الأحجار.. ويعود إلى البحيرة ليلًا، ويجلس أمامها لبعض الوقت ثم يغلبه النعاس متأثرًا بإرهاقه.. أمّا «أسيل» فكانت تواصل عملها في مداواة المرضى.. ثم تعود إلى غرفتها، وتظلّ تنظر إلى السماء عبر شرفتها.. تبحث عن ذلك النجم.. «أسيل».. وقد عمدت ألا تذهب إلى البحيرة في تلك الأيام حتى تتأكد من حقيقة مشاعرها تجاه «خالد»..

ورغم الصراع الذي كان يشتعل بداخلها ما بين الرغبة في الذهاب إلى هناك أو المكوث بحجرتها.. إلا أنها فضَّلتِ البقاء بحجرتها.. حتى مر الأسبوع، وجاء يوم ذهابها إلى المنطقة الجنوبية.. فاتجهت بعربتها إلى البحيرة حيث كان «خالد» في انتظارها.. فسألته في ابتسامة:

- مساعدي.. هل أنت مستعد للعمل؟..

فابتسم «خالد»:

- نعم ..

***

ركب «خالد» العربة مع «أسيل».. وبدأتِ العربة في التحرك فسألته «أسيل» بعدما وجدت بعض الأورق تظهر بين أغراضه:

- ما هذا؟!

فابتسم «خالد»:

- فكرت إني أسجل بعض الأحداث هنا في زيكولا..

فابتسمت «أسيل» وسألته:

- وماذا كتبت؟

فضحك «خالد»:

- في الحقيقة مكتبتش إلا حاجات قليلة..

فجذبت «أسيل» الأوراق.. وقالت:

- سأرى ماذا كتبت حتى الآن..

حتى وجدت تلك الكلمات التي كتبها عنها «خالد».. وأنها حورية زيكولا فأحمرّ وجهها خجلًا.. ونظرت إليه بطرف عينها دون أن تنطق.. فشعر «خالد» بالحرج بعدما قرأت «أسيل» كلماته فضحك مداعبًا لها:

- لا.. دى «أسيل» نجمة السما.. فضحكت «أسيل» ثم قالت:

- إنني لم أقل شيئًا.. ثم صمتت.. وبدأت تقرؤها من جديد.. وظلت تقرؤها، وتكررها أكثر من مرة في سرها.. حتى قاطعها «خالد»:

- أنا عرفت عن لعبة الزيكولا..

فسألته:- ألم تكن تعرف عنها حتى الآن؟

رد «خالد»:- لا .. اللي كنت أعرفه أنك مسؤولة عن اختيار أفقر ثلاثة بالمدينة..

«أسيل»:- نعم.. فأنا طبيبة الحاكم..

فسألها «خالد»:- أنتي بتعرفي الأفقر ازاي؟

ضحكت «أسيل»:

- إجابتي كلمة واحدة.. الخبرة.. ثم أكملت:

- حين ينتهي أطباء زيكولا من عملهم.. يتبقى عدد قليل اختار من بينهم الأفقر.. قد يكون هناك المريض حقًا، وبالطبع إن شككت بذلك؛ أعدته إلى دياره، ولي الحق في ذلك دون أن يراجعني أحد.. أما الفقراء فشحوبهم مميز.. واستطيع بخبرتي أن أميّز الأفقر منهم..

فسألها «خالد»:

- وهنا الفقير بيكون يمتلك كام وحدة ذكاء تقريبًا؟

«أسيل»:- إنها مسألة نسبية.. قد يمتلك شخص عشر وحدات، ويكون هناك من يمتلك أقل منه.. وقد يمتلك ألف وحدة ولكنه يكون الأقل فيكون الأفقر..

فضحك «خالد».. وسألها مجددًا:

- أنتي تقدري تعرفي أنا أمتلك كام وحدة؟

فابتسمت «أسيل» ثم وضعت يدها على جبينه.. ثم ردت:

- تمتلك ما بين ثمانمائة وتسعمائة وحدة..

فنطق «خالد» خائفًا:

- بس؟!!!

ابتسمت «أسيل» كي تطمئنه:- إنه ليس بالقليل..

«خالد»:- ولكن الكل هنا بيقول عليا غني..

«أسيل»:- نعم.. ولكن هنا من يخبرك بأنك غني فقط؛ أي أنك لست فقيرًا..

عادة الفقراء هنا يمتلكون مائة وحدة أوأقل.. وعليك أن تتخيل كيف يصلون إلى تسعمائة وحدة إن كانوا يوفّرون باليوم بعد احتياجاتهم الضرورية وحدة أو وحدتين.. قد يحتاجون عامًا، أو اثنين أوثلاثة كي يصلون إلى ذكائك، في الوقت الذي تكون أنت به قد ضاعفت ذكاءك، وأصبحت تمتلك ضعف تلك الوحدات إن عملت بجد في تلك الفترة من الزمن.. وهكذا تظل غنيًّا في نظرهم..

فتذكر «خالد» شيئًا ثم سألها:

ولكن الفقير اللي ذُبح المرة اللي فاتت كان بيمتلك بيت ضخم.. ازاي يكون فقير؟!.. وكان ممكن يبيعه مقابل ثمن كبير!

ردت «أسيل»:- ربما حاول أن يبيعه بالفعل.. ولكن ماذا لو لم يتقدم أحد لشرائه.. بالطبع سيفقد قيمته وقتها.. ثم أكملت:

- حين يقترب يوم زيكولا يخشى الجميع أن يُفرِّطوا في وحدة واحدة من ذكائهم.. ربما إن علموا بخبر مولود الحاكم فلن يشتري أحد أي شيء حتى ذلك اليوم..

بعدها سألها «خالد» مداعبًا لها:

- و«أسيل» الجميلة تمتلك كام وحدة؟.

ضحكت «أسيل»:

- «أسيل» تمتلك الكثير.. أكثر مما تتخيل..

***

مر الوقت، وسائق العربة يأمر الحصان أن يسرع.. و«خالد» و«أسيل» يكملان حديثهما داخل العربة.. حتى وصلتِ العربة إلى المنطقة الجنوبية.. وقد نزل «خالد» من العربة حاملًا أغراضه، وحقيبة «أسيل».. فوجد تلك المنطقة تختلف عن المنطقة التي يقطن بها، وعن منطقة الحاكم.. فكانت مبانيها صغيرة.. تتكون من طابق واحد.. وكانتِ المباني قليلة ومتلاصقة.. والشوارع بها الكثير من الأحصنة والحمير، وما نتج عن ذلك من روث الحيوانات.. ثم نظر فوجد آلات زراعية قديمة.. ثُمَّ تحدثت «أسيل» قائلة:

- لا تندهش.. إنها المنطقة الجنوبية، منطقة الزراعة بزيكولا..
الجميع هنا مزارعون، ويعملون بأراضيهم.. ويمدون زيكولا بالقمح والأرز وباقي المحاصيل.. وكل أنواع الفاكهة، ثم أكملت:
- اليوم ستساعدني.. لن تستمع بالراحة كيوم منطقة الحاكم ..
فابتسم «خالد»:
- حاضر

***

سارت «أسيل» ومعها «خالد» يحمل حقيبتها في أحد شوارع تلك المنطقة.. ثم دخلا أحد البيوت.. وكان كباقي البيوت؛ مكوَّنًا من طابق واحد لا أكثر.. وهناك استقبلتهما سيدة تقترب من الخمسين من عمرها، ثم صَحِبتهما إلى حجرة بالبيت حيث كان يرقد زوجها، وساقه اليسرى مضمدة.. فنظرت «أسيل» إلى «خالد»:
- «خالد».. أريدك أن تساعدني بأن أبدّل له تلك الضمادة دون أن أُحرّك الجبيرة أوأن أسبب له ألمًا..

فابتسم «خالد» ثم قام برفع قدم ذلك الرجل.. وثبّتها على ذراعيه وبدأت «أسيل» تفك تلك الضمادة القديمة.. و«خالد» ينظر إلى ما

تفعله حتى أخرجت ضمادة جديدة من حقيبتها.. ثم أخرجت مادة عُشبيّة خضراء اللون ولزجة.. ووضعت القليل منها على ساق ذلك الرجل ثم بدأت تلف الضمادة حول جبيرة ساقه.. حتى سألها الرجل:

- متى أعود إلى عملي؟

فأجابت «أسيل»:

- إن عظام ساقك لم تلتئم بعد.. إنها مازالت تؤلمك، أليس كذلك؟

رد الرجل:- بلى.. ولكن يجب أن أعمل.. لم أعمل منذ شهر.. وأشعر أن ثروتي تقل.. ويجب أن أعوّض ذلك..

«أسيل» -وقد ابتسمت-:- عليك أن تصمد حتى تلتئم عظامك ثم تُعوّض ما فاتك من عمل في أيامك القادمة، ثم نظرت إلى «خالد»:

- هل رأيت يا «خالد» كيف ألُفُّ تلك الضمادة..

«خالد»:- أيوه.. دي سهلة..

«أسيل»:- حسنًا.. عليك أن تكملها حتى أعود إليك.. هناك فتاة مريضة سأطمئن على حالتها وأعود..

«خالد» -وقد تحدث مثلها-:- حسنًا..

بعدها طلب «خالد» من ذلك الرجل أن يثبت قدميه في وضعهما.. ثم بدأ يكمل لف الضمادة حول ساقه كما كانت تفعل «أسيل» فرأته «أسيل» يفعلها ببراعة فتركته، وغادرت كما أخبرته.. وظل «خالد» مع الرجل المصاب يلف الضمادة حتى انتهى.. ثم سأل الرجل:

-أنت عايش مع زوجتك فقط؟

رد الرجل:- نعم..

«خالد»:- وأولادك فين؟!

رد الرجل في حزن:

- إنهم كبار الآن.. لقد تركوني بعدما قَسَّمت عليهم أرضي..

«خالد» في دهشة:- قسمت عليهم أرضك؟

الرجل:- نعم.. فقد أجبروني على ذلك .. وتعدّوا عليّ أكثر من مرة.. وأقسموا أن يقتلوني إن لم أُعطِهم تلك الأرض.. ثم تابع:

- إنهم مثلنا يخشون الفقر.. وبعدما أخذوا ما أرادوا تركوني..

فهمس «خالد» إلى نفسه:

- لا رحمة في زيكولا..

حتى فوجئ بامراة تدخل فجأة.. وتصرخ سائلة:

- أين الطبيبة «أسيل».. أين الطبيبة «أسيل»..

رد «خالد»:

- إنها ستأتي بعد قليل.. لماذا تريدينها؟!

أجابت المرأة وهي تبكي:- إن ابني قد مرض فجأة.. ويبدو أن مرضه شديد، وأخشى أن يموت قبل أن تأتي الطبيبة..

فنطق الرجل، وأشار إلى «خالد»:

- إنه مساعدها.. ويبدو أنه ماهر مثلها..

فنظر إليه «خالد» وقد رفع حاجبيه:

- لا.. أنا مش ماهر.. أنا مش طبيب..

فجذبته السيدة:

- أرجوك.. سأعطيك كل ما تريد.. أريد أن يعيش ولدي..

وظلت تجذبه وتتوسّل إليه.. و«خالد» يحاول أن يقنعها بأنه لا يعرف عن الطب شيئًا.. ولكنها لم تصدقه فلم يجد إلا أن يذهب معها كي تهدأ.. ثم طلب من الرجل أن يخبر «أسيل» -حين تعود- عن مكانه..

***

ذهب «خالد» مع تلك المرأة، والتي كانت تجري حافية القدمين.. وتجرّ «خالد» وتصرخ:

- لقد كان صحيحًا.. إنه لم يمرض من قبل..

حتى وصلا إلى بيت المرأة، والذي كان بسيطًا، ويوجد بمنتصفه حوضٌ كبيرٌ مليءٌ بالماء.. ثم دخلا إلى حجرة صغيرة يرقد بها الطفل فاقدًا وعيه على سرير صغير.. و«خالد» لا يعلم ماذا يفعل.. ويحاول أن يقول إنه مازال مساعدًا جديدًا لـ«أسيل»، ولكنها لم تدع له فرصة أن يقول شيئًا.. وتصرخ:

- إن ابني سيموت.. إنه لم يكمل العشرة أعوام..

و«خالد» يقف حائرًا.. وينظر إلى الطفل دون أن يتحرك.. والمرأة مازالت تصرخ:

- إنه يعمل بجد.. لا يمر يوم إلا ويعمل رغم سنّه الصغيرة.. لا تهمّه حرارة الشمس.. كل ما يهمه هو عمله..

حتى نظر «خالد» فجأة إلى الطفل حين سمع صرخات أمه.. وتذكر أن شمس ذلك اليوم كانت شديدة.. واقترب من الطفل فوجد جلده جاف للغاية.. وحين لامس جبينه وجده ساخنًا جدًّا، ووجد

الطفل يهذي بكلمات غير مفهومة.. فقام «خالد» بحمل الطفل، واتجه به إلى ذلك الحوض الذي يوجد بمنتصف البيت.. ووضعه بملابسه في هذا الحوض، وقد اندهشت أم الطفل مما فعله «خالد».. ولكنها تركته يمضي فيما يعمله حتى سألها:

- فيه مياه أبرد من مياه الحوض؟!

فردت:- لا.. ولكنني قد اشتري ماءً باردًا من جيراني.. ثم خرجت مسرعة فأكمل «خالد» عمله، وأخرج الطفل من الماء ثم وضعه مرة أخرى به.. حتى عادت أمه، ومعها من تحمل أوعية بها ماء بارد، وسكبته بالحوض.. ثم أمرها أن تقوم بفتح نوافذ البيت:

- أريد أن يدخل الهواء البارد إلى هنا..

أسرعتِ الأم إلى النوافذ:

- حسنًا..

بعدها أخرج الطفل من الماء وجرّده من ملابسه.. ووضعه على أرضيّة باردة، وتركه لفترة ولا يعلم ماذا يفعل غير ذلك.. وهل ما فعله صحيح أم لا؟!..

مـرّ بعـض الوقـت، و«خالـد» ينتظـر أن تـأتي «أسـيل».. ولكنهـا تـأخّرت، وظـل هـو بجـوار الطفـل والـذي مـازال فاقـدًا لوعيـه، وأمـه مازالت تصرخ.. ويحاول أن يهدأ من روعها، ولكنه فشل في ذلك.. حتى أتت «أسيل»، وقد وجدت «خالد» يجلس على ركبيته بجوار الطفل الذي يرقد عاريًا على أرضية الحجرة.. فسألته في لهفة:

- ماذا فعلت؟.. لماذا تضعه على الأرض هكذا؟!.. وماذا بلّل هذا الفتى؟!!

فرد «خالد»:

- كان سخن جدًا.. وشكّيت إنه تعرض لضربة شمس..

فبدأت «أسيل» تفحص الطفل.. والأم مازالت تبكي بجوارها.. حتى فوجئت بالطفل يفتح عينيه، ويبحث عن أمه قبل أن تقوم «أسيل» بعمل أي شيء، فوضعت «أسيل» يدها على جبينه.. ثم سألت «خالد».. هل كانت حرارته مرتفعة عن ذلك؟.. فوضع «خالد» يده فوجد حرارته قد انخفضت ولم يعد ساخنًا كما كان.. فابتسم فرحًا:

- أيوه.. كان سخن عن كده كتير..

فابتسمت «أسيل» ثم نظرت إلى أمه:

- إنه بخير الآن ..

ثم أخرجت زجاجة من حقيبتها.. وأعطتها لأمه وأمرتها أن تعطيه منها كل يوم حتى يصبح صحيحًا.. فشكرتها على ذلك ثم اتجهت إلى «خالد» وشكرته.. وأخبرته بأنه طبيب بارع فضحك «خالد»:

- أنا مش طبيب.. صدقيني..

فسألته:

- كم تريد؟

رد «خالد»:- لأ.. أنا مش عاوز حاجة.. ثم نظر إلى «أسيل»:

- أعطي أجر الطبيبة فقط..

فقالت «أسيل»:

- لا، أنا لن آخذ شيئًا سوى ثمن الدواء.. أما غير ذلك فهو لك.. لست أنا من أنقذه..

فابتسم «خالد»:

- وأنا مش عاوز أي مقابل.. كفاية إنّك اشتريتي الميه الباردة..

فشكرته السيدة مجددًا.. ثم تأملته لبعض الوقت، وظلت صامتة حتى اندهش «خالد».. وغادر بعدها مع «أسيل» ، والتي سألته:

- «خالد».. هل أنت طبيب؟!

ضحك «خالد»:- لا.. والله..

فسألته:- كيف؟!.. في المرة الأولى أنقذت الفتى من الغرق وقلت إنها دورة إسعافات.. واليوم ربطت الضمادة ببراعة.. ثم أنقذت طفلًا آخر، لم أكن أستطيع فعل ما فعلته..

رد «خالد»:

هي الصدفة فقط لا غير.. أنا كنت صغيّر وكنت بلعب مع أصحابي.. وفجأة ولد أغمى عليه مننا، وكان سخن زي الطفل ده ووقتها شفت الطبيب وهو بيعمل شبه اللي أنا عملته كده، وقال إنها ضربة شمس.. فلما لقيت النهاردة الطفل، وأمه قالت بالصدفة إنه بيعمل في الشمس.. افتكرت نفس المشهد القديم في بالي.. ولما اتأخّرت قررت إني أغامر لحد ما تيجي.. وقلت لنفسي أكيد مش هخسر حاجة بالعكس يمكن الدقائق دي تفرق في حياته.. والحقيقة مكنتش عارف النتيجة .. لكن التوفيق كان معايا والولد فاق فعلًا..

صمتت «أسيل» ثم قالت مبتسمة:

يعجبني ذكاؤك يا «خالد» .. اليوم أثبت أنك خير مساعد لي..
ولكن لماذا لم تأخذ أجرك هنا أيضًا من السيدة، وأنت تستحق ذلك..

ابتسم «خالد»:- ده عمل خير.. وكان لازم أعمله، مش كل حاجة لازم آخد مقابل لها.. هي زيكولا مفيش فيها حد يعمل خير أبدًا

ضحكت «أسيل» وأكملت:

- كان يجب أن تأخذه.. فإنك قد استخدمت ذكاءك، والذكاء ثروتك، وحين تفكّر بذكاء بالطبع يأخذ من تلك الثروة..

ابتسم «خالد» مجددًا:

- أنا عرفت ليه مفيش حد بيفكّر في زيكولا.. ولكن أنا مش محتاج مقابل لإنقاذ إنسان..

فقالت «أسيل» مبتسمة:- حسنًا، يمكنك أن تذهب الآن لتبحث في تلك المنطقة عن كتابك.. وأنا سأزور بعض المرضى من السيدات، ثم أنتظرك في العربة حتى تعود..

***

بدأ «خالد» بحثه في تلك المنطقة.. واندهش حين تذكّر حديث «يامن» عن كِبَر زيكولا.. فمناطقها ليست كبيرة كما صوّرها له.. ولكنها تحتاج فقط إلى وسيلة تنقله من منطقة إلى أخرى..

كانت المنطقة الجنوبية تمتاز بكثرة الأراضي الزراعية.. والتي مرّ عليها «خالد»، ورأى المساحات الشاسعة المزروعة بالقمح، ومحاصيل أخرى.. واندهش كيف تكون تلك الزراعات بالأراضي الصحراوية؟.. ولكنه تذكّر شيئًا مهمًا لم يغفله وهو عمل أهل زيكولا الذي يجعلهم يزيلون جبلًا إن أرادوا حتى لا يُذبحوا.. وقد بدأ يسأل الناس عن ذلك الكتاب، وعن الشخص الذي يشبهه ولكنه يكبره سِنًّا.. ولكنه كما توقّع.. كلما سأل أحدًا لم يجبه، ولم يعرف عن أي كتاب يتحدث.. وقد سخر منه البعض حين سمعوه يسألهم عن ذلك الكتاب.. ولكنه لم يستسلم لليأس، وواصل سؤاله لكل من يقابله.. وسأل من يعملون بالأراضي عن الكتاب وعن صاحبه، ولكنهم لم يعرفوا أيضًا.. حتى جلس أسفل شجرة، وأخرج أوراقه وقلمه من أغراضه.. وكتب في أعلى الصفحة:

- المنطقة الجنوبية..

ثم كتب أسفلها:

يبدو أن المنطقة الجنوبية هي الأخرى لا يوجد بها ذلك الكتاب أو صاحبه.. ولا يعلم أحد من أهلها عن سرداب فوريك.. أما ما أدهشني في تلك المنطقة هو اهتمامها المميز بالزراعة .. وعدم اهتمامها بغيرها..

هنا كباقي مناطق زيكولا التي رأيتها.. الكل يعمل بجد، ولا يضيعون وقتهم.. فقد صنعوا من الصحراء تربة خصبة.. وهذا ما جعلني أعرف لماذا لا تحتاج زيكولا أن يفتح سورها.. إنها تعتمد على أبناء زيكولا في كل شيء.. ولا تعتمد على البلاد الأخرى في شيء.. هنا المنطقة الجنوبية تنتج المحاصيل الزراعية التي تكفي زيكولا.. والمنطقة الشرقية التي أقطن بها تمتاز بالصناعة، وخاصة الصناعات التي تحتاجها زيكولا مثل صناعة الطوب للمباني، وصناعة الملابس، وصناعات أخرى.. والمنطقة الغربية كما أخبرني «يامن» توجد بها سوق كبيرة يمكنك أن تشتري أي شيء من صناعة وإنتاج أبناء زيكولا..

إنهم يحققون اكتفاءً ذاتيًا في كل شيء بسبب عملهم، وخوفهم من الفقر.. وهذا ما جعلهم يشعرون بأن زيكولا أقوى البلدان الموجودة في هذا العالم.. وأعتقد أنني أوافقهم على ذلك.. فقوّتهم تعني عدم اعتمادهم على أحد.. حتى توقّف عن الكتابة حين وجد السيدة التي أنقذ طفلها تقترب منه.. فاندهش من ذلك، حتى اقتربت وسألته:

هل تبحث عن رجل طويل وعريض مثلك، ولهجته غريبة مثلك أيضًا، ولكنه أكبر سنًا؟!

فأجابها «خالد» في لهفة:

- نعم.. أنتي تعرفيه؟

أكلمت السيدة:

لقد ذكّرتني اليوم بيومٍ مرّ من أعوام طويلة.. كنت وقتها في السابعة عشرة من عمري، وكنت أعمل بالمنطقة الشمالية.. حتى قابلت رجلًا يشبهك، ولهجته مثل لهجتك، وزوجته كانت تختلف عن نساء زيكولا.. وقد قدّم إليّ معروفًا مثلما فعلت اليوم.. واقنعني بأن أعود للعمل هنا..

فسألها «خالد» مجددًا في لهفة:

- يعنى هو في المنطقة الشمالية؟

ردت:- لا أدرى أين هو الآن .. لكنه كان هناك منذ عشرين عامًا.. أتمنى أن تجده هناك..

ثم ابتسمت وأكملت:

حين انتهيت من إنقاذ ولدي تذكّرته حين رأيتك.. وبعدما غادرت أخبرني رجل بأنك تبحث عن رجل غريب به تلك الصفات.. ولكنك سألت الكثير ولم تسالني أنا..

فقال «خالد»:

- أنا من خوفي على ابنك نسيت أسألك، ثم سألها مجددًا:

- أنتي متأكدة من كلامك عن الرجل ده؟

أجابته:- أجل.. إنني أتذكّره جيّدًا..

فأكمل «خالد»:- كان معاه كتاب بيتكلم عن سرداب فوريك؟

ردت:- لا أدري.. فقد قلت لك عما أعرفه.. ولكن نصيحتي لك ألا تضيع وقتك بالبحث هنا.. هنا الجميع يعملون بالزراعة ولا يحبون الكتب أو القراءة.. وأنا أعرف جميع سكان تلك المنطقة.. ولا يوجد بينهم من يمتلك صفات ذلك الرجل الذي تقصده.. أتمنّى أن يكون هو من أخبرتك عنه..

فابتسم «خالد»:

- شكرًا ليكي .. أنا مش عارف أشكرك ازاي..

ابتسمت:- لست أنا من يستحق الشكر.. إن لم تفعل ما فعلته مع طفلي في الصباح أعتقد أنني لم أكن لأترك ابني مريضًا، وأبحث عنك حتى أجدك لأخبرك بذلك..

ابتسم «خالد» مجددًا ثم استأذن منها، وغادر مسرعًا إلى عربة «أسيل».. يجري فرحًا، يريد أن يبلغ «أسيل» بذلك الخبر، وذلك الأمل الذي سطع من جديد.. حتى وصل إلى العربة فلم يجد «أسيل» بها..

***

ظل «خالد» في انتظار «أسيل».. ويشعر قلبه بقرب خروجه من زيكولا، ويتذكّر كلام تلك السيدة ويبتسم، ويحدِّث نفسه بتلك الصدفة، وأن تكون من تخبره بذلك سيدة أنقذ طفلها من الموت.. ثم فكّر في ذلك الرجل الذي يشبهه، وزوجته كما قالتِ السيدة، وأنها تختلف عن نساء زيكولا.. هل هي أمّه؟.. هل تتحقق أحلامه ويجدهما في زيكولا؟..

يشعر بأن حديث تلك السيدة يؤكد ظنونه.. ثم يعود ليسأل نفسه.. هل يجدهما هناك بعد عشرين عامًا، أم يكون الحظ عاثرًا تلك المرة هي الأخرى؟ .. حتى وجد «أسيل» تقترب من بعيد، وتحمل

حقيبتها فأسرع إليها.. وأخذ منها الحقيبة، وسار بجوارها تجاه العربة..
حتى نطق سعيدًا:
- «أسيل».. أنا لقيت أمل جديد.. ثم أخبرها بما أخبرته به أم الطفل..
واختتم حديثه حين ركبا العربة، وسألها:
- احنا هنروح المنطقة الشمالية امتى؟
فصمتت «أسيل» قليلًا ثم نظرت إليه، وقالت:
- أنا لا أذهب إلى المنطقة الشمالية..

***

(١١)

اندهش «خالد» وسأل «أسيل» على الفور:

- لا تذهبي؟!!.. ليه؟!!

صمتت «أسيل» مجددًا، ثم نظرت عبر نافذة العربة التي بدأت في التحرُّك، وكأنها تتذكّر شيئًا، ثم نظرت إلى «خالد»، وتحدّثت بصوتٍ هادئ:

- لقد أخذت وعدًا من قبل ألَّا أذهب هناك..

«خالد» في دهشة: وعد؟!!

ردت «أسيل»:- نعم.. تذكر أنني أخبرتك بأني دخلت إلى زيكولا بين الأسرى والعبيد حتى اشتراني رجل حكيم علّمني الطب.. فأومأ «خالد» برأسه موافقًا دون أن يتحدّث، ثم أكملت «أسيل»:

كان هذا الرجل يعاملني كابنته، ويخشى عليّ من كل شيء.. حتى أخبرته ذات يوم أنني سأذهب إلى المنطقة الشمالية كي أداوي أحد المرضى حين طلب مني أحد الأشخاص ذلك.. ففوجئت به يرفض

بقوة، وطلب مني أن أعده بألا أذهب هناك طيلة حياتي.. فوعدته بذلك..

فسألها «خالد» -ومازال الغضب على وجهه-:

- وأيه السبب؟!

ردت «أسيل»:- حين سألتُه عن ذلك لم يقل لي سوى أنها أرض كُسالي زيكولا.. ولم يخبرني شيئًا آخر حتى موته.. وأنا مازلت أحافظ على وعدي.. وأنا على يقين أنه محق في ذلك.. ثم تابعت بعد صمت:

- لم أجد في حياتي من يحبني قدر ذلك الرجل..

صمت «خالد» مندهشًا، وبدا الحزن على وجهه، وآثر أن يكمل صمته، وكأنه يفكّر ماذا سيفعل.. حتى ابتسم، ونظر إلى «أسيل» والتي لم تفارق عيناها نجوم السماء:

وأنا مش هكون سبب إنك تخلفي وعدك.. أنا بشكرك على مساعدتك لي الفترة اللي فاتت.. وأكيد مش هطلب منك أكتر من كده..

فردت «أسيل» في ابتسامة هادئة:

- هل ستذهب إلى هناك؟

فابتسم «خالد»:

- أكيد .. لازم أروح..

فابتسمت «أسيل» مجددًا:- حسنًا.. أتمنى أن تجد كتابك هناك.. ولكن إن لم تجده فعليك أن تعود إليّ.. أقصد إلى العمل معي على الفور.. أين أجد مساعدًا في مهارتك؟!

فابتسم «خالد» وضحك:

- لـمّا أرجع مصر هشتغل دكتور..

ضحكت «أسيل»، وواصل «خالد» مداعبته لها.. وأكملا حديثهما عن أرض زيكولا، وعن ذلك الطفل الذي أنقذه من ضربة الشمس، وذلك الرجل المصاب الذي ضربه أبناؤه، وأخذوا أرضه.. حتى وصلتِ العربة إلى البحيرة فنزل «خالد»، وودّع «أسيل» التي سألته:

- متى ستذهب إلى المنطقة الشمالية؟

صمت «خالد» مفكّرًا: مش عارف.. هحاول يكون في وقت قريب..

فابتسمت «أسيل»:

عليك أن تخبرني قبل أن تذهب.. وإن كتبت شيئًا آخر عن «أسيل».. النجم.. لابد لي أن أقرأه.. ثم أمرتْ سائق العربة أن يتحرك فضحك «خالد» ثم اتجه إلى الشجرة التي يجلس بجوارها دائمًا..

ظل «خالد» كعادته يفكر.. يفكر فيما أخبرته به أم الطفل، وذلك الرجل الذي يشبهه، ويتذكر الصورة التي أعطاها له جده يوم نزوله السرداب وضاعت مع أغراضه هناك.. صورة أبيه وأمه.. تداعبه أحلام اليقظة بأن يعود مرة أخرى إلى بلده ومعه أبوه وأمه بعد سنوات كثيرة.. ويبتسم حين يتخيّل فرحة جده بذلك، والتي قد تقتله.. ثم يعود ليتذكّر حديث «أسيل».. وذلك الوعد الذي أخذته بألّا تذهب إلى المنطقة الشمالية.. وقولها بأنها أرض الكسالى.. ويسأل نفسه متعجّبًا.. كيف يعيش الكسالى بزيكولا؟!!.. حتى غلبه النعاس بعدما حل به إرهاق ذلك النهار..

***

مرّ الليل سريعًا.. وأشرقتِ الشمس، ونهض «خالد» من نومه، وقرر أن يذهب كعادته إلى عمله مع «يامن».. يريد أن يعلم الكثير عن المنطقة الشمالية.. حتى وصل إلى هناك، وزاد ضيقه حين وجد من يأخذون منه وحدتي الذكاء كل يوم، فأعطاهم ذلك.. ثم أكمل سيره حتى وجد «يامن» الذي سأله على الفور:

- هل وجدت كتابك؟

فرد «خالد»:

للأسف لسه.. بس فيه أمل إني ألاقيه.. فيه امرأة قالت لي إنها قابلت رجل له نفس صفات صاحب الكتاب من عشرين سنة..

«يامن» في دهشة:- عشرون سنة!! .. وتريد أن تجده!!

«خالد»:- هو صعب.. بس لازم اتمسّك بأي خيط يدلّني على الكتاب.. عشان كده لازم أروح المنطقة الشمالية..

فاندهش «يامن» مجددًا:

- المنطقة الشمالية!!

«خالد»: أيوه.. ثم سأله:

-أنت وعدت حد أنت كمان إنك متروحش هناك؟!

فضحك «يامن»:

- لا.. لقد ذهبت إلى هناك مرة من قبل.. أتمنى إن ذهبت إلى هناك أن تعود سريعًا..

زادتِ الحيرة على وجه «خالد»:

- أيه اللي هناك؟!

فجلس «يامن» ثم جلس «خالد» بجواره.. حتى تحدث «يامن»:

- أهل زيكولا يعلمون أن تلك المنطقة تختلف كثيرًا عن باقي مناطق زيكولا..

فسأله «خالد»، وكأنه لا يفهم شيئًا: - ازاي؟!

أكمل «يامن»: سأخبرك.. أرض زيكولا هي أرض العمل.. الجميع هنا يعملون ويكسبون أجورهم مقابل عملهم.. أما تلك المنطقة فإنها تجمع كسالى زيكولا.. ولهذا ستجد صعوبة حين تذهب إلى هناك.. عليك أن تسأل كل شخص لأن الكثيرين منهم لا يعرفون بعضهم.. ثم أخذ نَفَسًا.. وأخرج زفيرًا، وأكمل:

- إنهم لا يعملون مثلنا.. إنهم يكسبون أجورهم بأعمال أخرى ..

ثم صمت وأكمل:

- ستجد أهلها فئتين؛ الفئة الأولى من الأثرياء الكسالى الذين ورثوا الكثير من الذكاء.. الكثير من الثروة التى تجعلهم يعيشون أثرياء، وينفقون ببذخ حتى يموتوا، وفئة أخرى فقراء، يخشون الذبح ولا يريدون أن يعملوا عملًا شاقًا.. فوجدوا طرقًا أخرى يجنون بها ثروتهم.

- هل ترى هؤلاء؟.. وقد أشار إلى من يأخذون تلك الوحدات مقابل حمايتهم..

فرد «خالد»: أيوه..

فأكمل «يامن»:

- إنهم من المنطقة الشمالية التي تريد أن تذهب إليها.. هم يعيشون هناك هكذا.. فضَّلوا أن يستغلوا قوتهم في كسب ثروتهم، فانتشروا في باقي أراضي زيكولا.. أما النساء هناك فآثرن استغلال جمالهن..

ثم صمت، ونظر إلى «خالد» وأكمل:

- أنت تعلم كيف تجني امرأة ثروة من جمالها دون تعب.. وخاصة أن هناك الكثيرين من الأثرياء الكسالى.. إنها أرض الرزيلة يا صديقي..

***

صمت «خالد» حين سمع ما قاله «يامن»، وابتسم حين تذكّر وعد «أسيل» وأنها على حق في ذلك، ثم زادت ضربات قلبه حين تذكر أن صاحب الكتاب.. أبيه.. قد يكون بتلك المنطقة.. حتى قاطع «يامن» تفكيره:

- إنها بعيدة عن هنا كثيرًا.. فكيف ستذهب إلى هناك.. أمِ الطبيبة ستساعدك؟..

رد «خالد»:- لا.. «أسيل» ساعدتني بما فيه الكفاية.. قولّي يا «يامن»، منين أقدر استأجر حصان قوي لمدة تلت أيام؟..

فأجاب «يامن»:- ثلاثة أيام قد تكلفك قرابة الخمسين وحدة..

فأكمل «خالد»:- مش مهم.. أنا هقدر أعوّضهم بعد كده.. أنا قرّرت إني هروح بكره المنطقة الشمالية.. عاوز استغل كل يوم هنا في زيكولا

فابتسم «يامن»:

- حسنًا، دعني أوفر لك حصانًا قويًا.. وسأرشدك نحو الطريق إلى المنطقة الشمالية، وأتمنى أن تجد كتابك هناك.. ثم حمل فأسه، وقال لـ«خالد»:

- هيا علينا أن نعمل اليوم كثيرًا بعدما أضعنا الكثير من الوقت في الحديث..

***

في صباح اليوم التالي اتجه «يامن» إلى شاطئ البحيرة، ومعه ذلك الحصان القوي الذي وعد «خالد» به.. حتى وجده هناك فابتسم «خالد» حين رآه ومعه ذلك الحصان، وشكره كثيرًا على ذلك ثم حمل أمتعته، واحتضن «يامن»، وضحك:

- هشوفك قريب..

فابتسم «يامن»:

أرجو أن تعيد الحصان صحيحًا.. إننى أتحمّل مسئوليته حتى تعود.. لو علم صاحبه أنك ستذهب إلى المنطقة الشمالية لما أعطاني حمارًا..

ضحك «خالد» ثم امتطى ظهر الحصان.. وكاد يأمره أن يتحرك حتى صاح «يامن»:

- انتظر..

ثم أخرج ورقة بيضاء، وعليها بعض الخطوط السوداء، وتحدّث إلى «خالد»:

- تلك خطوط بدائية رسمتها للطريق نحو المنطقة الشمالية. ثم أشار إلى خط أسود طويل يخرج من مربع قد رسمه:

- هذا المربع هومنطقتنا.. وذلك الخط هوالطريق الذى تسلكه حين تخرج من هنا حتى تصل إلى تلك المنطقة..

فابتسم «خالد» مجددًا.. وأخذ منه الورقة، ووضعها بين أغراضه:

- أشكرك يا «يامن».. بجد أشكرك يا صديقي

بعدها أمر «خالد» حصانه أن يتحرك.. وبدأ يتحرك ببط حتى أسرع رويدًا رويدًا في طريقه إلى بيت «أسيل».. وكاد يصل إلى بيتها حتى رأى عربتها تسير مبتعدة عنه، فأسرع بحصانه إلى العربة.. وسار بجوارها ثم ضحك حين وجدها تجلس بالعربة شاردة الذهن، ولا تراه.. فظل يسير بجوارها دون أن يتحدث حتى نظرت إلى جانبها عبر النافذة ففوجئت به على حصانه، فضحكت وحدّثته:

- منذ متى تسير بجوارنا؟!

ضحك «خالد»:- من بدري.. يا ترى بتفكّري في أيه؟

ابتسمت «أسيل»:- لا شيء.. إنني أشرد مع نفسي كثيرًا.. ثم نظرت إلى حصانه:

- هل اشتريت حصانًا؟!

فرد «خالد»:- لا.. أنا أجّرته.. وزي ما وعدتك إني أشوفك قبل ما أروح هناك ، أنا قدامك أهو..

ابتسمت «أسيل» ثم سألته:

- هل ستذهب إلى المنطقة الشمالية الآن؟

فرد «خالد»:- أيوه..

فصمتت «أسيل» ثم سألته في هدوء:

- «خالد».. هل ستعود إلى هنا إن وجدت كتابك، أو أبيك..

فنظر «خالد» أمامه ثم صمت لبعض الوقت.. وابتسم:

- أكيد لازم أرجع.. ثم أكمل مداعبته لها:

- ده «يامن» هيقتلني لو مرجعتش عشان الحصان..

ضحكت «أسيل»، وضحك «خالد».. وواصلا تحركهما في طرقات زيكولا.. و«خالد» على حصانه يسير بجوار عربتها، والتي تجلس بجوار نافذتها كمن تجلس أمام نافذة غرفتها.. حتى وصلا إلى أطراف المنطقة الشرقية.. فنطقت «أسيل» بعدما أشارت إلى طريق ممهّد:

- هذا الطريق يقودك إلى المنطقة الشمالية..

فابتسم «خالد» ثم نظر إليها:

- أتمنى إني ألاقي الكتاب وأرجع لهنا في أسرع وقت..

ثُمَّ أمر حصانه أن ينطلق نحو ذلك الطريق.. و«أسيل» تنظر إليه بينما تسير عربتها في طريق آخر.. وتبتسم حين تجد شعر «خالد» الطويل يتطاير مع الهواء، وجسده القوي يمتطي ذلك الحصان ببراعة.. وكأنه وُلِد فارسًا.. حتى اختفى عن أنظارها فأغمضت عينيها، وتمنت أن

يحقق ما يريده.. أما «خالد» فواصل طريقه نحو المنطقة الشمالية.. يريد أن يصل إلى هناك في وقت قليل.. يحفز حصانه أن يسرع.. ثم يخرج تلك الورقة التي أعطاها له «يامن»، وينظر إليها، وإلى خطوطها، ثم يواصل سيره مجددًا.. وكلّما يحل به التعب ينال القليل من الراحة، فيوقف حصانه، ويرتجل، ويشرب القليل من الماء ثم يكمل طريقه نحو تلك المنطقة..

***

بدأتِ الشمس في المغيب، وحلّ الليل .. حتى وصل «خالد» إلى أطراف المنطقة الشمالية فارتجل.. وسار على قدميه، وحصانه يسير بجواره .. واندهش حين رأى بيوت تلك المنطقة وتنوّعها ما بين ما هو فخم للغاية، وما هو متواضع ويبدو عليه الفقر.. وأكمل مسيره بين شوارع تلك المنطقة.. وزادت دهشته من الصمت الذي يسودها حتى زالت تلك الدهشة سريعًا حين توغّل في شوارعها.. فوجد الكثير من الناس يلهون ويمرحون ويتراقصون مع أنغام الموسيقى التي غطّت ضواحي تلك المنطقة.. وتذكر كلمات «يامن» عن فتياتها حين رأى زيّهنّ الذى يختلف عن زي باقي فتيات المناطق الأخرى، فقد كان أكثر عراءً

وإغراءً.. وواصل سيره حتى وجد مكانًا يجتمع به الكثير من الناس.. فاقترب منهم فوجد نِزالًا بين اثنين من الأقوياء، وسمع أحد الأشخاص بجواره يقول لآخر: «لقد راهنت بخمس عشرة وحدة على هذا الرجل»، وأشار إلى أحدهما.. فاندهش «خالد»، وأكمل سيره .. حتى بدأ يسأل أحد الفتيان عن الرجل الذي يبحث عنه فلم يجبه.. وسأل غيره فلم يجبه هو الآخر.. وسأل الكثيرين من الناس فلم يجبه أحد.. وظل يسير بين هؤلاء الناس الذين تنبعث من أفواههم رائحة نتنة، ويترنّحون فأدرك أنها رائحة خمر.. وبين ضحكات فتيات الليل المدلّلة التي تملأ كافة الأركان.. حتى جلس بجانب الطريق، وبجواره حصانه ففوجئ بشخص ضخم يأتيه.. ويطلب منه عشر وحدات من الذكاء مقابل أن يحميه هو وحصانه.. وإلا سيأخذ ذلك الحصان منه .. فصمت «خالد» قليلًا ثم وافق وحدّثه:

سأعطيك ما تريد، ووحدتين إضافيتين مقابل أن أترك الحصان عندك حتى أعود لآخذه غدًا..

فوافق الرجل.. وأعطاه «خالد» الحصان كي يكون أكثر حرية.. وواصل جلوسه ومراقبته لأهل تلك المنطقة من بعيد.. حتى مرّ الليل دون أن يغفو له جفن..

***

في صباح اليوم التالي، ظل «خالد» منتظرًا أن يرى أحدًا يسأله، فلم يجد ما أراده.. وكأن المدينة أصبحت مدينة الموتى.. الشوارع خالية، يسودها صمت رهيب.. فنهض وبدأ يتحرك، ويتجوّل بشوارعها علّه يجد أحدًا.. ولكن دون جدوى، فأكمل مسيره حتى جلس بمكان آخر، وأخرج أقلامه وأوراقه، وبدأ يكتب وهو يتحدّث بصوت مسموع

- المنطقة الشمالية.. أرض كسالى زيكولا..

ثم كتب تحتها:

- إنها المنطقة الرابعة التي أزورها في زيكولا.. بعد يومي الأول هنا.. تأكدت أنهم يختلفون عن باقي أهل زيكولا.. هم لا يعملون كما أخبرني «يامن»، وحياتهم بالمساء كما رأيت بالأمس..

الكثير منهم ورثوا فلا يعملون، ويمرحون ويشربون ويتراهنون.. أما الفقراء منهم.. الفتى يجد ثروته في قوته فيستخدمها لتحقيق ثروته

من الذكاء.. والفتاة تجد ثروتها في أنوثتها وجمالها فتستخدم ما تمتلكه في تحقيق ثروة دون عناء..

ثم صمت مفكرًا.. وتوقف قليلًا عن الكتابة.. ثم أكمل مجددًا:

أرى أن الكثيرين من تلك المنطقة سيكونون ضحايا الذبح قريبًا.. فالقوي سيضعف ذات يوم، والجمال سيذهب مع الوقت..

ثم ضحك، وتوقف عن الكتابة مجددًا، وحدّث نفسه:

- بقيت فيلسوف يا «خالد».. زيكولا غيّرت فيك كتير.. ثم أنهى كتابته بأن كتب مجددًا:

- إنها أضعف مناطق زيكولا..

ثم وضع أقلامه، وأوراقه مرة أخرى بين أغراضه.. وبدأ يتحرك بين شوارع تلك المنطقة من جديد.. وضاق به صدره حين وجد نفسه وحيدًا بتلك الشوارع، وعلم أنه لابد وأن ينتظر حتى المساء..

***

غربت الشمس.. وبدأ الظلام يملأ السماء، وأُشعلت النيران لتضيء المدينة، وبدأ الناس يخرجون إلى الشوارع.. وبدأت الموسيقى من جديد، وخرجت الفتيات إلى الخارج.. كل فتاة تحاول أن تجذب رجلًا

إليها.. حتى امتلأت الشوارع بالأشخاص في تلك المنطقة التي تواجد بها «خالد» .. فبدأ يسأل هذا وذاك عن ذلك الرجل الطويل العريض صاحب الكتاب، واقترب ليسأل كبار السن.. ربما عرفوه حين كان هنا منذ عشرين عامًا، ولكن لا فائدة.. وبدأ اليأس يدق قلبه، وكأنه لن يجد هذا الرجل أبدًا، وسار والحزن على وجهه.. حتى سمع صوت من خلفه يناديه:

- أنت..

فالتفت «خالد» ليجد فتاة يشعر أنه قد رآها من قبل..حتى تذكر أنها الفتاة التى قابلها يوم زيكولا.. وطلبت منه أن يرافقها ورفض.. ولكنها اليوم أكثر عراءً.. فاندهش حين وجدها:

- أنتي!!

ضحكت الفتاة:- نعم.. أتذكرني؟!

«خالد»:- نعم..

فضحكت الفتاة:- حسنًا.. عليك أن تأتي معي..

فسألها «خالد» في دهشة:- آجي معاكي فين؟!

فجذبته من يده ثم دخلا إلى مكان مجاور إضاءته خافتة.. وبه الكثير من الناس.. كل رجل يجلس مع فتاة، فبدأ الشك يتسرّب إلى قلب «خالد» حتى سألها:

- أنتي عاوزه مني أيه؟!

ردت الفتاة: أنا!!.. ثم صمتت وأكملت:

- إنك الرجل الوحيد الذي رفض أن يصطحبني من قبل.. ولهذا أجدد عرضي لك..

ثم أكملت:

- إنني هنا أفعل ما يحلو للرجال مقابل الكثير من الوحدات.. ولكنني لا أريد منك شيئًا.. سأصطحبك الليلة دون مقابل..

فنهض «خالد» غاضبًا:

- وأنا مش موافق.. أنا مش زي اللى بيجولك هنا.. ثم تحرك ليغادر فجذبته ليجلس.. وسألته:

- هل تعجبك فتاة أخرى؟

فرد «خالد» منفعلًا:

- لا.. ثم سألها:

- أنتي عايشة حياتك كدة ازاي؟!

فضحكت الفتاة ساخرة:

- حياتي.. ما بها؟!!

أكمل «خالد»:- ازاي تبيعي نفسك لأي حد؟

ضحكت الفتاة مجددًا.. ثم تناولت كوبًا به خمر:

- وكيف أعيش في زيكولا أيها الوسيم.. كيف أحصل على الذكاء.. الثروة..

«خالد»، وقد أخرج نفسًا طويلًا:

- الذكاء..

ثم أكمل:

اعملي زي بنات زيكولا اللي بيعملوا بشرف في المناطق الأخرى أنتي مفكّرتيش لما جمالك يروح هتقدري تحصلي على ذكائك ازاي؟

ضحكت الفتاة.. وقد بدى تأثير الخمر عليها، وقد ثقل لسانها: وقتها سأكون حققت مخزونًا كبيرًا من الثروة.. أما بنات زيكولا فيعملن... ثم تابعت:

وأنا أيضًا أعمل.. وكلانا يحصل على أجره.. هيا انتهز الفرصة قبل أن يضيع جمالي.. إن الكثيرين في الخارج يتمنون أن يجلسوا مكانك الآن أيها الوسيم..

فظهر الغضب على «خالد».. وكأنه فقد أمله في حديثه معها، وصاح غاضبًا بها:

- مثلك عار على زيكولا..

ثم نهض، وتحرك بضع خطوات مبتعدًا عنها.. فصرخت غاضبة:- عار!!.. إنني أفضل حالًا من آخر أعرفه، قتل أباه كي يرثه..

ثم هدأ صوتها.. ووضعت رأسها على المنضدة التي أمامها من تأثير الخمر، ثم همست بصوت سمعه «خالد»: - وفي النهاية لم يرث سوى كتاب لعين.. احتفظ به أبوه أكثر من عشرين عامًا..

- ثم أغمضت عينيها..



(١٢)

توقّفت قدما «خالد» عن الحركة، واتسعت حدقتا عينيه، وزادت ضربات قلبه حين سمع كلماتها .. وعاد إليها مسرعًا.. وسألها في لهفة:

- أنتي قلتي أيه؟!

فوجدها قد وضعت رأسها على الطاولة.. وغابت عن الوعي.. فسألها مجددًا وصاح بها ولكنها لم تجبه، فحاول أن يجعلها تفتح عينيها وأن تكرر ما قالته مرة أخرى، ويضرب بيده على الطاولة حتى تفيق ولكن دون جدوى، حتى أمسك برأسها وأعادها إلى الخلف ثم جلس أمامها ففتحت عينيها ببطء.. ونظرت إليه في ذهول، فسألها:

- أنتي قلتي أيه في آخر كلامك؟

فابتسمت ونظرت إليه كثيرًا ثم سألته:

- من أنت أيها الوسيم؟

فنهض «خالد» وسأل نادلًا أين يجد غرفة خالية، فأشار النادل إلى باب إحدى الغرف فأسرع «خالد»، وحمل الفتاة على كتفه والتي ضحكت برعونة حين قام بحملها.. وسار بها تجاه تلك الغرفة وسط

نظرات الفتيات الأخرى اللاتي تهامسن حين وجدنه يحملها وكأن الغيرة أصابتهن.. حتى وصل «خالد» إلى باب الغرفة فدفعه بقدمه ثم دلف إلى الداخل، والفتاة ما زالت تضحك حتى طرحها على أرضية الغرفة.. وأكمل سيره للداخل حتى وجد إناءً كبيرًا به ماء فحمله، وعاد به إليها وسكبه بالكامل فوق رأسها حتى صرخت من برودة الماء ثم سألها:

- افتكرتي أنا مين؟

فنظرت إليه دون أن تجيب، فأسرع مجددًا ، وحمل إناءً آخر، وسكبه فوق رأسها؛ فصرخت:

- تذكّرتك.. أرجوك.. لا حاجة لمزيد من الماء..

فسألها «خالد» على الفور:

- مين اللي قتل أبوه عشان يرثه.. وفي الآخر ورث كتاب؟

صمتت الفتاة، وكأنها تتذكر ثم سألته:

- هل حدّثتك عن ذلك؟

رد «خالد» متلهّفًا: - أيوه..

فنظرت إليه الفتاة:

- حسنًا.. ماذا تريد منه؟

فأجاب «خالد»: - أنا عاوز أوّصل له بأي طريقة.. لازم أوصل له لازم ألاقي الكتاب وصاحبه.. أنتي تعرفيه؟

فنهضت الفتاة ثم تحركت بعض الخطوات بملابسها المبللة وشعرها المبلل ثم جلست على أحد الكراسي، ونظرت إلى «خالد»:

- نعم أعرفه.. وقد أدلك عليه الآن إن أعطيتني عشرين وحدة من ذكائك..

فأسرع «خالد» تجاهها:

- وأنا موافق..

فضحكت الفتاة:

حسنًا.. سأصطحبك إلى هناك.. ولكن انتظر حتى أبدّل ملابسي..

اتجه «خالد» مع الفتاة، والتي بدّلت ملابسها إلى أحد الشوارع البعيدة.. وقد أخبرته بأن بيت صاحب الكتاب في نهاية ذلك الشارع.. و«خالد» يسير وعقله لا يتوقف عن التفكير، ويفكّر بما قالته الفتاة بأن هذا الشاب قتل أباه كي يرثه.. ويخشى أن يكون ما يفكر به حقيقةً تصدمه بعد لحظات.. حتى وصلا إلى بيت متواضع، فسألها «خالد»:

- هو جوَّه؟!

فردت الفتاة: - نعم..

فاندهش «خالد» ثم سألها مجددًا:

- وليه هو مش بالخارج زي باقي أهل المنطقة الشمالية؟!

فأجابته:

- إنه هكذا.. بعد أن قتل أباه وفوجئ بعدم امتلاكه لشيء.. أصابه اليأس، فهو يجلس في بيته كثيرًا.. وتزداد حالته سوءًا، وكأنه ينتظر أن يُذبح في يوم زيكولا..

ثم طرقت الباب، وبعد لحظات قام شاب في العشرين من عمره بفتحه.. فأشارت إليه الفتاة:

- ها هو صاحب الكتاب.. أما أنا فعليّ أن أعود إلى عملي.. ثم نظرت إلى «خالد» بطرف عينها، وأكملت:

- هناك من ينتظرونني..

فنظر إليها «خالد» مبتسمًا: - شكرًا على كل حال..

***

غادرت الفتاة.. ونظر «خالد» إلى ذلك الشاب الذي يقف أمامه، وظل يتأمّله حتى سأله الشاب:

- من أنت؟!

فزادت دهشة «خالد» حين وجد أن صوت هذا الشاب يشبه صوته.. فسأله الشاب مجددًا، وقد ظهر الغضب على وجهه:

- من أنت؟

فرد «خالد»:- أنا أطلب منك المساعدة..

فسأله الشاب: مساعدة؟!

فأجابه «خالد»:

- أيوه.. أنا عرفت إنك ورثت عن والدك كتابًا احتفظ به لمدة عشرين سنة..

فأخرج الشاب نفسًا عميقًا:- نعم..

فابتسم «خالد»:- هل تأذن لي بالدخول لنتحدّث قليلًا.. ثم تابع حين شعر برفض الشاب:

- وسأعطيك خمس وحدات ذكاء مقابل ذلك الحديث..

فابتسم الشاب:

- حسنًا.. تفضل، ولكن لا تضيِّع وقتي.. عليك أن ترحل سريعًا، إنني لا أحب الغرباء..

***

دخل «خالد» مع ذلك الشاب إلى الداخل.. ولاحظ مدى الفقر الذي يعيشه هذا الشاب، وتلك الحياة البائسة، والتي ظهرت على ملابسه وعلى أرضية البيت حيث زجاجات الخمر الفارغة، وظل يترقب الشاب، ويتأمله حتى سأله:

-أنت قتلت والدك فعلًا؟

فرد الشاب غاضبًا:

- وما دخلك؟!

فتحدّث «خالد»:- أرجوك، أجبني..

فنهض الشاب، وتحرك خطوات مبتعدًا عن «خالد».. وحمل زجاجة من الخمر في يده .. ثم نظر إلى «خالد»:

- نعم قتلته.. إنه لم يجلب لي سوى الفقر.. ثم تابع:

- أعتقد أن أمي ماتت قديمًا بسبب جنونه..

فسأله «خالد» على الفور في حزن:- أمك.. ماتت؟!!

فأجابه الشاب:

- منذ زمن قديم.. إنني لا أتذكّرها حتى.. ليتها عاشت ومات هو..

فسأله «خالد»:- ليه بتكرهه كل الكره ده؟!

فرد الشاب بعدما شرب القليل من الخمر:

إنني أكرهه لأنه كان مجنونًا.. هل يعقل أن ينفق أحد مخزونه من الذكاء مقابل كتاب لعين.. ثم ينفق ما تبقى له من ذكاء في التفكير في هذا الكتاب.. يكفيه حظًا أنه وجد من هو أفقر منه بزيكولا.. وإلا ذُبح قبل أن أقتله بسنوات..

فصمت «خالد» قليلًا.. ثم نظر إلى الشاب مجددًا، وسأله:

- ما اسمك؟

رد الفتى:

- اسمى «هلال».. إنه من سمّاني بهذا الاسم..

فسأله «خالد» على الفور:

- واسم والدك أيه؟

فأجاب «هلال» ساخطًا:

- كان يدعى «حسني»..

فدق قلب «خالد» بقوة.. وأحمرّ وجهه، وكأن الحقيقة التي كان ينتظرها قد لفحته.. ونطق:

- «حسني عبد القوي»؟!

فاندهش الشاب:

- نعم.. هل تعرفه؟!

فصمت «خالد».. وتساقطت بعض دموعه.. وانحنى بظهره إلى الأمام، ووضع رأسه بين يديه، وأكمل بصوت هادئ:

كان أبوك غريبًا عن هنا.. وجاء إلى زيكولا من سبعة وعشرين سنة.. هو وأمك .. وكان يحدّثك عن مصر.. وعن سرداب فوريك

فزادت دهشة «هلال»، ونظر إلى «خالد» ، والذي أكمل:

- ولكنه مقدرش يحميك من طباع زيكولا.. وأصبح همك مثلهم.. الثروة.

ثم نهض، واقترب منه، وخطف زجاجة الخمر من يديه، ووضعها بعيدًا.. ثم سأله:

- لاحظت الشبه القليل بيني وبينك؟.. هل لاحظت أن صوتي يشبه صوتك؟ ثم تابع:

-أنت «هلال حسني».. وأنا اسمي «خالد حسني»..

ثم عاد خطوات إلى الخلف، وأخذ نفسًا عميقًا وأخرجه ببطء ثم أكمل بعدما نظر إليه:

- أنا أخوك، وأنت قتلت والدنا.. لأنك ابن زيكولا..

فصاح «هلال» بـ«خالد»:

- يبدو أنك مجنون أنت الآخر، ثم دفعه:

- هيا اخرج من هنا..

فصاح «خالد» غاضبًا، ومازالت الدموع على وجهه:- أنا فعلًا أخوك

فدفعه «هلال» مجددًا:

- اخرج أيها المجنون.. هل أنا بحاجة إلى مزيد من الجنون كي تأتيني أنت الآخر؟!!

فنظر إليه «خالد» ، وكأنه يراه وهو يقتل أباه ثم مسح دموعه بيده ثم سأله:

- أين الكتاب؟

فأجابه «هلال» غاضبًا:

- وماذا تريد من الكتاب؟!

فرد «خالد»: أنا بحاجة للكتاب لإني عاوز أرجع بلدي.. وممكن تيجي معايا..

فضحك «هلال» ساخرًا:

- أرى أنك تشبه أبي في جنونه.. انتظر..

ثم نظر إليه وعقد حاجبيه، وسار بعض الخطوات إلى إحدى الغرف ثم عاد مجددًا إلى «خالد»، ومعه كتاب قديم أوراقه سميكة وقديمة.. فأسرع إليه «خالد»، وخطفه منه حين لمح عنوانه.. سرداب فوريك.. وبدأ يقلّب صفحاته المصفرة في لهفة وقلبه يدق بقوة، حتى وصل إلى صفحة في منتصف الكتاب مكتوب بها بخط يدوي كبير.. الطريق إلى سرداب فوريك.. وكاد يقرأ ما بها حتى اختطفه «هلال» منه، وضحك ساخرًا:

- هل تريد هذا الكتاب؟!

رد «خالد» في لهفة:

- أيوه..

فضحك «هلال»، وحدّث نفسه:

- لقد أصبح للكتاب فائدة، ثم نظر إلى «خالد»:

- حسنًا.. عليك أن تشتريه..

صمت «خالد» قليلًا ثم سأله:

- وكم تريد؟

ابتسم «هلال»، وتحرك خطوات جيئة وذهابًا حتى تحدّث:

- أرى أنك في حاجة ضرورية إلى الكتاب..

فنطق «خالد»:- نعم..

فأكمل هلال:

- حسنًا.. إن كنت تريده ، فعليك أن تعطيني ربعمائة وحدة من ذكائك..

فصاح «خالد» على الفور: ربعميت وحدة؟!!

فرد «هلال» في هدوء، وتناول زجاجته مرة أخرى:

- نعم.. أيها الغني.. ربعمائة وحدة..

فقال «خالد»: صدقني، أنا أخوك..

فضحك «هلال» ساخرًا:

- ليتني أتأكد أنك أخي أيها المجنون.. أقسم لك أنني لو تأكدت من ذلك لقتلك كي أرثك..

فصمت «خالد»، وقد زاد ضيقه ثم سأله:

- هل ترك أبوك شيئًا آخر؟

فأجابه: إنه لم يترك سوى هذا الكتاب.. هل ما زلت تريد شراءه، ثم ضحك ساخرًا، وأكمل:

- هيا.. إنها ربعمائة وحدة فقط..

فصمت «خالد» مرة أخرى.. وكأنه يفكر، وطال صمته حتى نظر إلى «هلال»:

- أعطنى مهلة شهرين.. وهرجع اشتريه مقابل الربعميت وحدة..

فسأله «هلال» متعجبًا:

- ألا تمتلكهم الآن؟!

فتحرك «خالد» خطوات، ثم نظر إليه:

- أمتلكهم.. ولكنى أحافظ على مخزوني من الذكاء.. وهقدر أوفّر من عملي ثمن الكتاب.. وهرجع لك بعد شهرين من اليوم.. أرجوك حافظ على الكتاب..

فجلس «هلال»، وعاد بظهره للخلف:

- حسنًا.. سأنتظرك حتى تعود، ولكن إن تأخرت يومًا واحدًا عن الشهرين.. سأمزق عن كل يوم تأخرته عشر ورقات، حتى لو وصل بي الأمر أن أمزقه بالكامل.. إنه لا يهمني بشيء.. هيا لا تضيع وقتك.. عد إلى حيث جئت..

فأومأ «خالد» برأسه ثم تركه، وغادر، وأخرج زفيرًا طويلًا، وحدّث نفسه:

- إنه أخي.. وقاتل أبي..

***

غادر «خالد» بيت «هلال»، صاحب الكتاب.. يسير بين الناس وبين موسيقاهم وصرخاتهم التي لا تتوقف.. وعقله يشتعل بالتفكير.. تتضارب برأسه الكثير من الأفكار، ويتخبّط قلبه ما بين شعور وآخر.. يسأل نفسه هل يسعد لأنه وجد كتابه، أم يحزن حين علم بقتل أبيه وموت أمه، حتى لو لم يرهما من قبل.. وهذا الشاب المتهوّر الذي قد يكون أخاه، ومدى جشعه.. والمقابل الكبير الذي طلبه كي يعطيه كتابه.. وكيف سيوفّر أربعمائة وحدة في شهرين.. وإن عاد ليأخذ كتابه

هل يأخذه ويترك أخاه، أم يأخذه معه.. حتى أمسك رأسه، وكأنه لم يعد يستطيع التفكير.. وحدّث نفسه بصوتٍ هامس:

- هدفي دلوقتي إني آخد الكتاب..

ثم سار إلى المكان الذي جلس به حين أتى إلى المنطقة الشمالية.. فوجد من أعطاه حصانه فاتجه إليه كي يسترده؛ فلم يعطه الحصان إلا بعدما أعطاه «خالد» وحدتين أخريين.. ثم أخذ «خالد» حصانه.. واتجه إلى مكان آخر، وآثر أن يظل به حتى تشرق الشمس، فيعود إلى المنطقة الشرقية حيث «أسيل» و«يامن» وعمله معه..

***

في صباح اليوم التالي، أعدَّ «خالد» أغراضه، وامتطى حصانه ثم بدأ يتحرك بين الشوارع الخالية إلى أطراف المنطقة الشمالية، حتى وصل إلى بداية طريقه نحو المنطقة الشرقية فالتفت بحصانه نحو تلك المنطقة، وكأنه يودعها حتى يعود إليها مجددًا بعد ستِّين يومًا.. ثم التفت مجددًا تجاه الطريق، وأمر حصانه أن ينطلق..

***

مر الوقت، و«خالد» في طريقه إلى المنطقة الشرقية.. لا يشغل تفكيره سوى ذلك الكتاب، وماذا سيكون في تلك الصفحة المكتوب بها الطريق إلى سرداب فوريك.. يشعر بأن أمل خروجه قد ازداد.. لا يحتاج إلا تلك الوحدات التي طلبها «هلال» كي يأخذ كتابه.. أمله.. حتى وصل إلى المنطقة الشرقية بعد غروب الشمس فاتجه إلى البحيرة، ففوجئ بنار مشتعلة في مكانه بجوار الشجرة.. ووجد «يامن» ينتظره، فارتجل، واحتضنه حتى سأله «يامن» على الفور:

- هل وجدت كتابك؟

فابتسم «خالد»:

- نعم..

فسأله في لهفة:- وأين هو؟

فكاد يجيبه.. ولكنه فوجئ بصوت «أسيل» يأتي من خلفه:

- خشيت ألا تعود..

فالتفت إليها «خالد» فوجدها تمسح دموعها، ثم اقتربت منه، واحتضنته، وابتسمت:

- جئت إلى هنا، وتمنيت أن أراك..

فابتسم «يامن» حين وجد «أسيل» تحتضن «خالد»، وتنحنح، فابتسمت «أسيل» في خجل ثم جلست بجوار «خالد»، كأنها لا تريد أن تفارقه.. وقد بدأ «خالد» يروي لهما ما حدث له بالمنطقة الشمالية لكنه لم يتحدث عن فتاة الليل، وما حدث معها حين وجد «أسيل» تسأله عن كل شيء حدث هناك.. وعن فتيات تلك المنطقة، فأخبرهما بأن أحدًا آخر قد دلّه على هذا الشاب «هلال».. حتى أنهى حديثه فسألته «أسيل»:

- هل هو أخوك حقًّا؟!

فأجاب «خالد»:- كل الدلائل تقول إنه أخي.. أبوه صاحب الكتاب واسمه «حسني عبد القوي».. وحكى له عن مصر..

فتحدّث «يامن»:

- ربما يكون شخصًا آخر من بلدك.. مصر، وله نفس الاسم، ولكنه قد لا يكون أباك..

فنظر «خالد» إليه:- لكن الولد شبهي إلى حد ما.. وصوته يشبه صوتي.. لكن طباعه طباع زيكولا..

فابتسم «يامن»:

- تقصد طباع المنطقة الشمالية.. ثم سأله:

- وكيف ستوفّر أربعمائة وحدة من الذكاء في شهرين إن كنت توفّر من العمل باليوم بعد غذائك وحمايتك وحدة واحدة، أووحدتين على الأكثر..

فصمت «خالد» حتى نطقت «أسيل»:

- ربما تعمل معي، وأعطيك أربع وحدات باليوم..

فابتسم «يامن»، وتحدّث:

- إنَّ عملنا يحتاج إلى النهار بأكمله، وإلى راحة بالليل كي يعود إلينا نشاطنا الذي نواصل به عملنا..

فصمتت «أسيل»، وظل «خالد» صامتًا حتى نطق:

- أنا اقدر آكل كل يوم خبز..

فضحك «يامن»:- حسنًا.. أصبح لديك أربع وحدات باليوم.. تأخذ سبع وحدات، وتدفع وحدتين للحماية، ووحدة للخبز..

ثم أكمل:

- هكذا لن تكمل الأربعمائة وحدة بعد ستين يومًا..

فصمت «خالد» مرة أخرى.. ثم أكمل:

- أنا ممكن أوفّر ست وحدات في اليوم.. وفي نهاية الشهرين هيكون عندى ٣٦٠ وحدة.. وقتها هضيف أربعين وحدة فقط من مخزوني.. وأقدر أشترى الكتاب..

فقاطعته «أسيل» تحذره:

- مخزونك من الذكاء يا «خالد».. أرى أنك بدأت تستنزف منه الكثير..

فنظر إليها «خالد» مبتسمًا، وأكمل:

- أكيد هعمل بعد الشهرين لحد ما يجي يوم زيكولا، وأقدر أعوّض كل مخزوني..

فضحك «يامن»، والذي صمت حتى انتهى «خالد» و«أسيل» من حديثهما ثم حدّث «خالد»:

- إنك قوي في الحساب يا صديقي.. ولكن كيف ستوفّر ست وحدات باليوم أيها الذكي..

فابتسم «خالد» ثم نظر إليه ، وسأله:

- أين عمال زيكولا الآن؟

فأجابه:- الكثير منهم يأكلون أو يمرحون أمام بيوتهم..

فنهض «خالد» ثم نظر إلى «أسيل»، وطلب منها أن تعود إلى بيتها فرفضت، ونظرت إليه متعجّبة:

- ماذا ستفعل؟.. سآتي معك..

فابتسم «خالد» ثم سار ومعه «يامن» و«أسيل»، واللذان لا يعرفان نيّته.. واتجهوا إلى شوارع المدينة حتى دخلوا إلى أحد المطاعم، والتي تقدم الخبز والدجاج.. وقد وجد بها «خالد» الكثير من العمال ممن يعملون معه في تقطيع الصخور.. ثم اتجه إلى صاحب المطعم، وسأله:

- كم سعر الدجاج هنا؟

فرد الرجل:- الدجاج مقابل خمس وحدات..

فسأله «خالد» مجددًا:

- وكم عامل يأكل من دجاجك؟

فضحك الرجل ساخرًا ثم أشار إلى من يأكلون:

- أنظر إليهم.. إنهم لا يأكلون سوى الخبز.. ربما أبيع دجاجة حين يأتيني غني مثلك إلى هنا..

فابتسم «خالد» ثم صمت، وأكمل حديثه:

- ما رأيك أن تبيع كل يومين كل ما تمتلكه من دجاج؟

فنظر الرجل و«يامن» و«أسيل» إلى «خالد» في دهشة، وكأنهم لا يفهمون ما يقصده.. حتى أكمل وسأل الرجل:

- هل تريد ذلك؟

فأجاب الرجل ضاحكًا:- بالطبع..

فابتسم «خالد»: حسنًا.. أريدك أن تجعل سعر وجبة الدجاج أربعة وحدات، وليس خمس..

فظهر الغضب على وجه الرجل.. وسأل «خالد»:

- هل تمزح؟!

فأجابه «خالد»، ومازالت ابتسامته على وجهه:

- لا.. اجعل السعر أربع وحدات، وسأضمن لك مكسبًا لم تحلم به يومًا..

فصمت الرجل، وكأنه يفكّر، وما زال الصمت على وجه «يامن» و«أسيل» حتى رد الرجل:

- حسنًا.. سأجعله أربع وحدات.. ولكن ماذا ستفعل؟ ثم نظرت «أسيل» إلى «خالد»:

- «خالد» لا أفهم شيئًا حتى الآن..

فابتسم «خالد»:- انتظري..

ثم اتجه إلى صالة المطعم حيث يأكل العمال، ووقف بمنتصفها ثم سألهم بصوت عالٍ:

- من يأكل خبزًا؟

فابتسم الجميع، ورفعوا أيديهم بالخبز فصمت ثم سألهم:

- ومن يريد أن يأكل دجاجًا كل يومين؟

فاندهش من يأكلون، وواصلوا أكلهم، ولم يُعيروا حديثه اهتمامًا بعدما ظنوا أنه يمزح حتى أكمل:

- دون أن يدفع شيئًا مما يدخره كل يوم..

فسأله أحد ممن يأكلون:

- هل جننت أيها الغريب؟!

فأجابه «خالد»: لم أجن.. ولكنني أريدكم أن تفعلوا مثلي.. سآكل دجاجًا كل يومين.. ثم أكمل:

- أنا أكسر الصخور، وأمتلك من القوة ما يكفيني لأتغلب على مخاوفي

ثم تابع:

- إنني أدفع وحدتين للحماية كل يوم لمجموعة من الكسالى، وتأكل من تعبي..

إنني لن أعطي أحدًا من تعبي عُشر وحدة من اليوم، حتى لو قتلوني.. أفضل أن أُذبح يوم زيكولا.. ولا أعطي أحدًا شيئًا مقابل خوفي..

فتوقّف من يسمعونه عن مضغ الطعام، و«أسيل» تترقّب رد فعلهم، وتنظر إلى «خالد» في إعجاب حتى همس إليها «يامن»:

- إنه بارع في استخدام لهجتنا، لقد ترك لهجته كي يحدّثهم..

فأشارت «أسيل» إليه أن يصمت كي تستمع إلى «خالد».. حتى تحرك «خالد» بعض الخطوات بين طاولات الطعام وأكمل:

-إنني وحدي لن استطيع إيقافهم.. ولكننا معًا سنستطيع ذلك.. سنجعلهم يعملون مثلنا، وإلا يذبحون يوم زيكولا.. لن يأكلون حقّنا بعد اليوم.. ثم وقف بجوار طاولة يجلس حولها ثلاثة أشخاص فنظر إليهم، وأكمل:

لا أعلم كيف يخيفونكم، وعددهم ضئيل للغاية.. أعلم أنهم أشرار، وأنكم طيبون، ومتسامحون، ولكن إن اجتمعتم فسيكتب عنكم التاريخ ذات يوم أنكم اجتمعتم كي تزيلوا الظلم عنكم..

ثم سار خطوات أخرى، وهدأ صوته:

- في عالمي، هناك من يشبهونكم.. وما زالوا ينتظرون يومًا ليجتمعوا.. وما زال التاريخ يسجّل ذُلّهم.. ثم علا صوته مجددًا:

- اليوم يطلبون منكم وحدتين.. غدا سيطلبون ثلاث.. بعده سيطلبون أربع.. خمس.. من يدري؟ ربما يجعلونكم تعملون لديهم...

بعدها تحرك إلى أحد أركان صالة الطعام، ثم التفت إليهم:

- أعلم أنكم تتعاملون بوحدات الذكاء.. وأن الذكاء عملتكم.. ولكن حان الوقت لتستخدموه مرة واحدة بحياتكم.. استخدموه كي تعيشوا.. استخدموه كي تفخروا بأنفسكم..

فصاح «يامن»:

- أنا لن أدفع كي يحمينى أحد.. استطيع أن أحمي نفسي..

وصاحت «أسيل»:

- وأنا كذلك.. من يريد أن يأخذ مني شيئًا فليقتلني أولًا..

فصاح فتى آخر:

- وأنا لن أدفع..

وتبعه رجل غيره:

- وأنا أفضّل أن آكل الدجاج كل يومين.. لن أدفع..

وصاح عجوز يجلس بعيدًا:

- وأنا لن أدفع.. لقد دفعت الكثير.. لن أدفع حتى أموت..

ونهض فتى قوي، ورفع فأسه:

- وأنا سأكسر عظامهم.. إنها ليست أقوى من الصخور التي أكسرها

***

صاح الجميع: «نحن لن ندفع.. لن ندفع.. لن نأكل خبزًا مجددًا.. سنأكل ما يحلو لنا».. ابتسم «خالد»، وأحمرّ وجهه ثم اتجه إلى «يامن»، واحتضنه ثم احتضنته «أسيل» على الفور.. وأغمضت عينيها، وحدّثت نفسها:

- كم أحبك يا «خالد»، ثم فتحتها، وهمست في أذنه:

- سيُكتَب هذا اليوم في تاريخ زيكولا..

فهمس إليها «خالد» مبتسمًا:

- إنني أنظر إلى وجهك فأجد الأمل يا «أسيل»..

فابتسمت «أسيل»، وأحمرّ وجهها خجلًا.. ثم نظر «خالد» إلى «يامن»:

- هيا يا «يامن».. عليك أن تعيد الحصان إلى صاحبه.. وأن تستريح كي نعمل غدًا معًا..

ثم نظر إلى العمال الذين يتراقصون فرحًا، وتابع مبتسمًا:

- سأبدأ من الغد توفير ثمن كتابي..

(١٣)

وهكذا استطاع «خالد» أن يحرك عقول عمال زيكولا، وأن يقنعهم بألا يدفعوا تلك الوحدات مقابل حمايتهم مجددًا.. حتى صاحوا فرحين بأنهم لن يدفعوا، وتراقصوا فرحًا بذلك، وزادت سعادة «أسيل» و«يامن» بما فعله «خالد»

في اليوم التالى اتجه «خالد» مبكرًا إلى عمله فوجد عشرة ممن يأخذون وحدات الحماية يقفون بطريقه كعادتهم، واقتربوا منه كي يأخذوا ما يريدون فابتسم «خالد»، وواصل سيره حتى أوقفه أحدهم بعنف، وصاح به:

- هيا.. ادفع وحدتيك..

فابتسم «خالد» مجددًا، وواصل سيره فأوقفه الرجل مرة أخرى، وطالبه بالوحدتين من جديد.. فرد «خالد» في برود:

- أنا لن أدفع..

فظهر الغضب على وجوههم، ثم ضحك أحدهم ساخرًا:

- لن تدفع!!

فأجاب «خالد»:- نعم..

فقال الرجل غاضبًا:

- أتعلم ماذا سيحدث لك؟

فرد «خالد» مبتسمًا:

- لا..

فزاد الغضب على وجوههم جميعًا.. وهمّوا أن يضربوه حتى فوجئوا بـ«خالد» يشير تجاه غبار كثيف بالجو.. وضحك:

- انظروا..

فنظروا إلى ذلك الغبار بالأعلى ثم نظروا إلى أسفله فوجدوا المئات من العمال، وبأيديهم فؤوسهم وآلاتهم اليدوية.. يقودهم «يامن»، ويقتربون عَدْوًا تجاهم.. حتى أكمل «خالد»:

- عليكم أن تهربوا وإلا ستدفعون الكثير اليوم..

فصرخ زعيمهم إلى أحدهم:

- اذهب لتجلب الآخرين..

ولم يكمل حديثه حتى اقترب العمال، وألقى أحدهم بفأسه إلى «خالد» فابتسم ولوّح بفأسه، ثم تحدث بصوت عالٍ إلى العمال:

- إنهم لا يصدقون أننا لن ندفع لهم من اليوم..

ثم أكمل بعدما لمعت فأسه:

- علينا أن نثبت لهم ذلك..

ثم ضرب بفأسه أحدهم، وما إن فعل ذلك حتى صاح العمال ثم انهالوا على بقيتهم بالضرب، وكأنهم كانوا ينتظرون ذلك اليوم.. حتى من ذهب ليجلب بقيتهم توارى بعيدًا ثم هرب مع الآخرين حين وجدوا زملاءهم يُضربون كمن وقع عليهم جبل من الفؤوس والعصيِّ حتى هدأ العمال مرة أخرى، وسالت الدماء على وجوه آخذي الوحدات.. فضحك «خالد» ، وسألهم:

- أمازلتم تريدون الوحدات؟ فلم ينطقوا..

فنظر «خالد» إلى بعض العمال:

-إنهم مازالوا يريدون..

فواصلوا ضربهم مجددًا.. حتى صرخوا:

- إننا لا نريد شيئًا.. إننا لا نريد..

فصاح «يامن» غاضبًا:

- حسنًا.. عليكم أن تتركوا تلك المنطقة إن لم تعملوا.. إن رأيناكم هنا مجددًا فلن نكتفي بما حدث اليوم..

فصرخ أحدهم:

- حسنًا.. حسنًا..

ثم نهضوا مسرعين يهربون بعيدًا، فصاح العمال فرحين، وبدأوا يتراقصون، ويغنّون:

- سنأكل الدجاج.. سنأكل الدجاج.. نحن أقوياء..

ثم احتضن «يامن» «خالد» ، وهمس إليه:

- ربما يأتون ببقيتهم غدًا..

فضحك «خالد»:

معتقدش.. هما خلاص عرفوا إن انتوا اتحدتوا.. والمرة الجاية ممكن تقتلوهم.. شفت اليوم الوحيد اللي استخدمتوا فيه الذكاء.. ثم حمل فأسه، وجذب «يامن» من يده:

- هيا يا صديقي، لدينا الكثير من العمل..

فضحك «يامن»:

- أصبحت تتحدث مثلنا..

فضحك «خالد»، وقد استعاد لهجته مرة أخرى:

- خلاص أنا بقيت من أبناء زيكولا..

ثم عاد إلى لهجة زيكولا:

- هيا، سأنافسك اليوم في العمل.. وسأعمل ضعف ما تعمل..

فضحك «يامن»:

- أرى أنك تحلم..

فرد «خالد» ضاحكًا:

- أحلم؟!! سترى.. ثم أسرع «خالد» إلى مكان العمل جريًا، فتبعه «يامن» مسرعًا: انتظر..

***

بدأ «خالد» يعمل بقوة.. لا يشغل تفكيره شيء سوى أن يوفّر ثمن كتابه.. يمر اليوم تلو الآخر، يعلم أن عمله شاق للغاية، ولكنه يدرك أنه العمل الأكثر ربحًا في زيكولا.. يحاول أن يحفّز نفسه بأن ينافس «يامن» كل يوم في تكسير تلك الصخور.. ويضحك كثيرًا حين يجد فتاة أو أخرى تنظر إلى جسده القوي اللامع تحت أشعة الشمس.. فيكمل عمله، ويترك «يامن» ليداعب تلك الفتيات.. حتى ينتهي من عمله

فيذهب إلى ذلك المطعم كي يتناول غذاءه.. ويبتسم حين يجد الكثير من العمال يأكلون الدجاج بينما أصبح هو الوحيد الذى يأكل الخبز.. ثم يعود إلى البحيرة فيلقي بجسده في مائها، ثم يستلقي على شاطئها.. ويخرج أوراقه وأقلامه ليسجل ما حصل عليه من وحدات، وما يتبقى له على ثمن الكتاب، وما يتبقى له من أيام.. حتى تأتي «أسيل» فتجلس بجواره لبعض الوقت، ثم تعود إلى بيتها بينما يظل هو ساهرًا حتى يغلبه النعاس.. فينام حتى صباح اليوم الذي يليه..

***

حتى جاء يوم وقد انتهى «خالد» من عمله.. ففوجئ بفتاة تقترب من بعيد حتى دق قلبه سريعًا حين وجدها تشبه «منى»، تلك الفتاة التي أحبها لسنوات طويلة قبل أن يأتي إلى زيكولا.. حتى مرت الفتاة بجانبه فوجدها تختلف عنها قليلًا.. واندهشت حين وجدته ينظر إليها في ذهول، حتى «يامن» أصابته الدهشة هو الآخر.. فسأله مداعبًا له:

- هل تعجبك؟!.. إن كنت تريد أن تتزوجها أخبرني فقط..

فضحك «خالد»:

- لا.. شكرًا..

بعدها غادر «خالد»، ولم يتجه إلى المطعم تلك الليلة كعادته بل ذهب إلى شاطئ البحيرة، وعقله منشغل بتلك الفتاة التي تشبه «منى».. وكأنه تذكَّر سنوات مضت، وحدّث نفسه:

- «منى»؟! ثم أكمل:

- يا ترى اتجوزتي الدكتور ولا لأ؟!

ثم جلس على شاطئ البحيرة أمام نار أوقدها، وأخرج ورقة من أغراضه.. نصفها العلوي مليء بكتاباته.. فبدأ يكتب بنصفها السفلي:

- لم تعد سوى أيام قليلة على إتمامي الشهرين، وأذهب كي آخذ كتابي.. ولكنني قد قابلت اليوم فتاة تشبه «منى» التي أحببتها ست سنوات.. وكانت أمنية حياتي أن أتزوّجها ذات يوم.. لولا أبوها المجنون.. ثم صمت مفكِّرًا قليلًا حتى أكمل كتابته:

لا أعلم ما سر أن أجد تلك الفتاة اليوم.. هل لأتذكر «منى» بعدما لم أفكر بها منذ دخولي زيكولا.. حين انشغل عقلي بالبحث عن كتابي.. لا أعلم..

ثم توقّف مجددًا، ونظر بعيدًا إلى البحيرة، وأخذ نفسًا عميقًا وأخرجه ببطء.. ثم نظر إلى الورقة والتي امتلأت بالكتابة، عدا جزء صغير بأسفلها، فكتب به:

- ما أعلمه جيدًا أنني لم أحب غير «منى» طوال عمري

حتى انتهت الورقة التي يكتب بها، فأخرج ورقة أخرى ثم نظر إلى الورقة السابقة حيث انتهى، ثم أكمل:

- لم أحب غيرها طوال عمري قبل أن آتي إلى زيكولا ..حتى وجدت «أسيل» التي يزداد شعوري كل يوم بحبها لي.. أما أنا فأشعر تجاها بـ..

حتى شعر بأقدام تقترب من خلفه..فوجد «أسيل» تقترب، فضحك ثم أخفى أوراقه بين أغراضه..حتى اقتربت منه، وسألته:

- ماذا تفعل؟

فضحك «خالد»:

- ولا حاجة..

فصمتت ثم أكملت:

-كنت أتوقع أن أجدك تتناول طعامك بالمطعم.. وذهبت إلى هناك فلم أجدك.. يبدو أنك توفّر طعامك..

فابتسم «خالد»: لا.. أنا مش بخيل للدرجة دي.. أنا فضّلت إني آجي للبحيرة..

فابتسمت «أسيل»:

إن البخل ليس عيبًا هنا في زيكولا كما تعلم.. لقد بدأ أهالي زيكولا يدّخرون ثرواتهم بالفعل بعدما شعروا باقتراب يوم زيكولا إن كان مولود الحاكم ذكرًا.. ربما يكون بعد ثلاثة أشهر، أو أكثر بأيام قليلة.. من يدري؟!..

ثم أكملت مبتسمة:- لولا تلك الوحدات التي وفّرها الكثيرون من آخذي وحدات الحماية لما أكلوا دجاجًا حتى انتهاء ذلك اليوم.. ثم ضحكت، وأكملت:

- أتوقع أن يكون فقير هذا العام لديه أكثر من مائتي وحدة..

فضحك «خالد»:

- وأنا نفسي أسيب زيكولا قبل ما أشوف الفقير بيذبح.. ثم سألها:

- وأنتي مش عاوزة تسيبي زيكولا؟

فضحكت «أسيل»:

- إنَّ تركي لزيكولا قد يكون أصعب قرار بحياتي.. لا أعتقد أنني سأتخذ هذا القرار إلا عندما يكون لدي مبرر قوي للغاية.. ثم نهضت:

- هيا عليك أن تنام.. أما أنا فسأعود إلى بيتي لدي أيضًا الكثير من العمل باكرًا..

فابتسم «خالد»، وكأنه يُقلّدها:

- مبرر قوي للغاية؟!!

فضحكت «أسيل»:

- للغاية..

***

غادرت «أسيل»، ومرّ الليل، وأتى ما بعده من نهار.. و«خالد» يواصل عمله، ويتمنى أن تمر الأيام المتبقية سريعًا.. وتتوالى الأيام يومًا بعد يوم.. و«خالد» يوفّر ما يستطيع توفيره من وحدات.. ولا يترك يومًا دون أن يعمل..لا ينفق من أجره شيئًا سوى وحدة واحدة حين يأكل الخبز..حتى أنه كان يوفرها بعض الأيام .. وقد يمرّ يومان دون أن

يضع لقمة بحلقه.. حتى جاء اليوم الأخير من الشهرين، وقد كان بعمله مع «يامن»، والذى حدّثه مبتسمًا:

- لقد انتهت المهلة اليوم..

فحمد «خالد» ربه ثم تحدّث:

- أخيرًا.. أنا كنت مستني اليوم ده بفارغ الصبر..

فسأله «يامن»:

- كم جمعت من الأربعمائة وحدة؟

فصمت «خالد» مفكرًا، وكأنه يحسب ما جمعه بدقة:

- أعتقد إني جمعت حوالى ٣٥٠ وحدة.. وهضيف لهم خمسين وحدة من مخزوني..

فقاطعه «يامن»:

- تقصد مائة وحدة

فرد «خالد» مندهشًا:- مائة؟!

أكمل «يامن»:- نعم.. هل نسيت أنك ستستأجر الحصان مرة أخرى.. فضرب «خالد» رأسه بيده.. وكأن ذلك الحصان لم يكن بحسبانه.. حتى صمت وأكمل:

- أنا كنت اشتري حصان أوفر لي.. ثم تابع:

- مش هتفرق خمسين من مية.. المهم إني آخد الكتاب..

فضحك «يامن»:

- حسنًا.. سأوّفر لك الحصان مجددًا.. وسأنتظرك حتى تعود.. إنني أريد أن أرى أغلى كتاب بزيكولا.. أعتقد أنها ستكون لحظة تاريخية لي..

فضحك «خالد»:

- وأتمنى أن تكون تاريخية لي أنا كمان..

***

في صباح اليوم التالي، امتطى «خالد» ذلك الحصان الذي أحضره «يامن».. وقد كان نفس الحصان القوي الذي استأجره المرة السابقة حين ذهب إلى المنطقة الشمالية.. وانطلق نحو تلك المنطقة.. تعلو وجهه ابتسامة أمل لم يشعر بها من قبل.. يأمر حصانه أن يسرع.. هيا.. إلى الأمل.. إلى خروجي من زيكولا.. يشقّ حصانه الطريق بقوة.. ويتطاير قميصه مع الهواء لتظهر عضلات جسده القوية، وذراعه القوي الذي يمسك بلجام حصانه بإحكام.. ينطلق بحصانه، ويخشى أن يتأخر عن

موعده فيمزق «هلال» المجنون صفحة واحدة من كتابه.. ويأمره بأن يزيد من سرعته.. ويمرّ الوقت، وتتحرك الشمس.. ويواصل طريقه دون أن يستريح..

حتَّى وصل إلى أطراف المنطقة الشمالية مع غروب الشمس.. فأسرع ينطلق في شوارعها، والتي كانت خالية إلا من القليل من الأشخاص الذين بدأوا في الخروج مع حلول الليل، وبعض فتيات الليل اللاتي خرجن إلى شوارع تلك المنطقة.. وأكمل طريقه نحو بيت «هلال».. أخيه.. صاحب الكتاب..

***

وصل «خالد» إلى بيت أخيه، فارتجل مسرعًا.. وعقل حصانه بجوار بابه.. ثم أعطى فتى يجلس أمام ذلك البيت وحدتين مقابل أن يحمي حصانه حتى يعود.. ثم طرق باب البيت ففتح «هلال» على الفور.. حتى وجد «خالد» أمامه ، فضحك:

- المجنون الذي يريد الكتاب..

فصمت «خالد» ولم يرد، ثم دلف معه إلى داخل البيت.. فوجد رجلين تبدو عليهما القوة، ويظهر الشر بأعينهما.. حتى تحدّث «هلال»:

- لقد جئت في موعدك تمامًا..

فرد «خالد»:

- إنني أريد الكتاب الآن..

فابتسم هلال ابتسامة خبيثة:

بالطبع يا عزيزي، لقد جئت إليّ من السماء.. إنني كنت أخشى أن أُذبح يوم زيكولا.. أما بعد ذلك الكتاب فلن أعمل عامًا على الأقل.. إنني اليوم أحترم أبي كثيرًا.. ثم نظر إلى «خالد»:

- يبدو أنك على استعداد الآن لتعطيني الخمسمائة وحدة مقابل الكتاب

***

فصاح «خالد» في غضب:

- خمسمائة؟!!

فضحك «هلال»، وكأنه مندهش:

- نعم.. أنسيت اتفاقنا؟!

فصاح «خالد» مجددًا:

- كان اتفاقنا أربعمائة وحدة..

فصمت «هلال» ثم تحرك خطوات.. وتحدّث إلى أحد الرجلين:

- إنه يقول أربعمائة..

ثم نظر إلى الآخر:

- إنني لا أتذكر ذلك..

ثم نظر إلى «خالد»:

- ربما لم تفهم قصدي وقتها.. ربما كنت أقصد أن تعطيني أربعمائة وحدة إن أخذته قبل شهرين..

- أما بعد تلك المدة فلابد أن يزيد الثمن.. لا أعلم سر هذا الغباء في زيكولا..

فشاط «خالد» غضبًا، وكاد أن يلكمه.. ولكنه تمالك أعصابه حين نظر إلى هذين الرجلين، وما يخفيانه من شر.. ثم تحدث في هدوء:

- لسه بقول إنك أخي..

فضحك «هلال» ثم نظر إلى الرجلين:

- لقد أخبرتكما أنه مجنون.. ثم نظر إلى «خالد»:

- أعتقد أنك تملك الكثير.. لن تصبح فقيرًا إن أعطيتني المائة وحدة الإضافية..

فصمت «خالد»، وحدّث نفسه:

كـدة هتفقـد متـين وحـدة مـن ذكائـك يـا «خالـد».. ثمـن إيجـار الحصان.. والخمسين وحدة اللي كنت ناوي تضيفهم.. وكمان مائة وحدة؟!..

ثم زفر زفرة قوية، وظل يفكر حتى وجد «هلال» يتحرك إلى إحدى الغرف.. ثم عاد وبيده ذلك الكتاب ثم حدّث الرجلين مجددًا:

إن الوقت يمر، ومازال صديقنا يفكّر.. حسنًا سأمزق آخر ورقة بالكتاب.. وهمّ أن يمزقها حتى أمسك «خالد» بيده، ونظر في عينه بقوة:

- أنا موافق إني اشترى الكتاب مقابل الخمسميت وحدة..

فضحك «هلال»:

- حسنًا.. وأنا أعطيك الكتاب..

فانتزعه «خالد» في غضب، واحتضنه بين ذراعيه، وتحدّث كأنه يتحدث إلى الكتاب:

المهم إن الكتاب معايا.. الوحدات اللي فقدتها أقدر أعوّضها قبل يوم زيكولا إن شاء الله.. لسه تلات شهور على يوم زيكولا لو كان المولود ولد.. لوعملت زي الفترة اللي فاتت أقدر أوّفر حوالي خمسميت

وحدة.. واستعيد كل مخزوني وأكتر.. ثم نظر إلى «هلال»، والذي بدأ يشرب الخمر مع الرجلين:

- أتمنى إنك متكونش أخي فعلًا.. ثم أكمل:

- لإنك عار..

فضحك «هلال» ببرود:

- هيا.. أخرج من هنا أيها المجنون قبل أن نأخذ منك الكتاب مجددًا..

فرد «خالد»:

- وقتها.. اقتلوني أولًا..

ثم أخذ كتابه، وخرج، وأغلق الباب خلفه بعنف.. ثم امتطى حصانه، وأسرع به يغادر ذلك المكان.. وقد تناسى ما دفعه من وحدات إضافية.. وأصبح همّه أن يقرأ ما بذلك الكتاب.. حتى وصل إلى مكان لا يوجد به الكثير من أهالي تلك المنطقة، وجلس بجوار عمود أُنيرت فوقه نار للإضاءة.. وأخرج كتابه مسرعًا، وبدأ يتصفّحه، ويقلّب صفحاته في لهفة.. ويقرأ بعينيه سطوره مسرعًا.. ينظر إلى صفحاته الصفراء.. وما كتب بها بخط اليد، وكأنه أمل انتظره لسنوات..

وجد «خالد» صاحب الكتاب يذكر في بدايته أنه قد كتب هذا الكتاب في القرن الثامن عشر.. وأن تلك النسخة هي النسخة الثانية للكتاب، بعدما ضاعت نسخته الأولى دون أن تكتمل.. فتذكر «خالد» صفحات الكتاب العشر البالية، والتي تحدثت عن سرداب فوريك، وقد قرأها قبل أن يأتي إلى زيكولا حين أعطاها له صديق جده.. مجنون السرداب

ثم قلّب «خالد» صفحات الكتاب في سرعة.. فوجد تلك الصفحات العشر فتجاوزها، حتى وصل إلى تلك الصفحة والتي انتهت بأنه اكتشف ما هو أهم من كنوز فوريك.. فكانت مثلما توقّع «خالد» بأنه سيتحدث عن اكتشافه لأرض زيكولا..

ثم قلّب «خالد» بعض الصفحات، فوجده يتحدّث عن أهل زيكولا، وعن تعاملهم بوحدات الذكاء، ويوم زيكولا، وذبح الأفقر كل عام، وما تركه ذلك من طباع على هؤلاء الناس.. فقلب «خالد» تلك الصفحات مسرعًا.. وكلما قرأ شيئًا يعرفه تجاوزه.. لا يريد أن يضيع ثانية واحدة .. حتى وجد صفحة مكتوب بها..

"- لقد أفنيت عمري أبحث عن سر تلك الأرض.. ولكنني لم أجده حتى لحظة كتابة كتابي هذا.. ولكني أعلم تمامًا أني لست المصري الوحيد الذي أتى إلى تلك الأرض..

- لقد عثرت صدفة على بعض المخطوطات التي أخبرتني ببعض الحقائق التي وضعتها نصب عينيّ.. "

فاندهش «خالد».. وبدأ يقرأ في لهفة.. ما كتبه صاحب الكتاب، والذى كتب:

" لقد ذكرت تلك المخطوطات البالية أن الكثيرين قد أتوا إلى تلك الأرض بعد بناء سرداب فوريك.. فبعدما شُيِّد ذلك السرداب ببراعة معمارية لم يكن لها مثيل.. أُعجِبَ به فوريك ذلك الثري كثيرًا، ووضع به كل ما يملك من كنوز وثروة لم يكن لها مثيل في ذلك العصر.. حتى طمع الكثيرون بها فاتجهوا إلى ذلك السرداب كي يسرقونها.. وحين علم فوريك بذلك أمر حراسه بأن يغلقوا أبوابه.. وظلوا بداخله دون أن يجدوا مخرجًا.. حتى مات بعضهم، وبعضهم ظل يبحث عن مخرج حتى وجدوا ذلك المخرج إلى تلك الصحراء.. والتي لم تكن بها سوى تلك المدينة، وسورها القوي.. والذى لم يكن قد اكتمل وقتها..

فاستقروا بها، وظنوا أن تعاملهم بوحدات الذكاء ما هو إلا عقابًا لهم على نزولهم ذلك السرداب ومحاولتهم سرقة كنوز فوريك وبعدها كثر عددهم.. وعاشوا مع سكان زيكولا الأصليين..وتكاثروا بينهم .."

" وتقول المخطوطات إنهم لم يتذكروا شيئًا عن حياتهم السابقة، سوى تقويمهم الذي كتبوه على سور زيكولا منذ أن دخلوا إليها.. ولغتهم العربية والتي بدأوا يعلمونها سكان زيكولا.. حتى أنهم نسوا دينهم، وأصبح الكثيرون منهم من الكسالي الذين اتجهوا إلى لمنطقة الشمالية في ذلك الوقت قبل قرون.. حيث يكسبون ثرواتهم دون أن يعملوا بجد.. "

فواصل «خالد» تصفحه لصفحات الكتاب متعجِّلًا.. وكأنه لا يهمه ما فاته مما ذكره الكتاب.. يبحث عن هدف واحد لا يريد غيره.. وأخذ يقلب حتى وصل إلى تلك الصفحة التي قرأها منذ شهرين ومكتوب بمنتصفها: " الطريق إلى سرداب فوريك.." فأخذ يقرأها في لهفة.. حتى وجد الكاتب يقول:

" إننى جئت إلى زيكولا مرتين .. وأعلم جيدًا الطريق إلى ذلك السرداب، ولكني أحببت العيش هنا.. فلن أغادر حتى أموت .. "

ثم قرأ «خالد» بعض السطور مسرعًا ..حتى وصل إلى سطر يقول: "حين سرت بسرداب فوريك لأول مرة، وبدأ انهياره.. وأسرعت هاربًا خوفًا من ذلك الانهيار.. لم يَدُر بخلدي وقتها أنه يدفعني إلى طريق يريده السرداب... فتذكر «خالد» نفسه عندما كان بالسرداب .. وحدث ذلك الانهيار، ثم أكمل قراءة:

"ولكنني تذكّرت بأن هناك طريقًا آخر قد أبعدني عنه انهيار السرداب.. وأدركت أنه طريق العودة مجددًا.. بعدما انهار طريق مجيئي..واختفى بالصحراء.. "

فابتسم «خالد» ، ودق قلبه بقوة، وحدّث نفسه:

فيه طريق للخروج .. فيه طريق للخروج.. الحمد لله.. الحمد لله حتى أكمل قراءته، وقد وصل إلى الصفحات الأخيرة:

" إن جاء أحد من بعدي، ولم يقرأ كتابي.. سيظن أنه لابد أن يخرج من زيكولا كي يعود إلى مصر مجددًا .. وهذا الغباء ذاته.. من يأتي إلى تلك الأرض، ويريد أن يعود إلى دياره، وأن يصل إلى سرداب فوريك مجددًا.. لابد أن يدخل زيكولا.. ويكون كالشمس، وينحت في الصخر.. فيجد باب السرداب الآخر أمام الرأس مباشرة.. "

حتى انتهتِ الصفحة، ومعها انتهت صفحات الكتاب.. فأعاد «خالد» القراءة مرة أخرى بعدما لم يفهم شيئًا:

من يريد أن يصل إلى سرداب فوريك، لابد أن يدخل زيكولا، ويكون كالشمس، وينحت في الصخر. سيجد باب السرداب أمام الرأس مباشرة..

ثم سأل نفسه:

- أي شمس؟!

- وأي رأس؟!

- ويقصد ايه بالنحت في الصخر؟!!

- أي رأس؟!!

يقلب صفحات الكتاب مجددًا.. ويسأل نفسه.. ويسأل الكتاب.. أي شمس؟.. أي رأس؟..

حتى نهض وتحرك مسرعًا، ودخل مكانًا به الكثير من أهالي المنطقة الشمالية.. يشربون الخمر، ويتراقصون .. فصاح بأحدهم، وأشار إلى تلك الصفحة بكتابه:

- هل تفهم ذلك؟

- كيف أنحت في الصخر أمام الرأس؟!

- فضحك الرجل:

- هل أنت مجنون؟!

فسأل آخر فلم يجبه.. فسأل غيره فلم يجبه.. وظل يسأل كل من يقابله عما قرأه، كالمجنون فلم يجبه أحد.. حتى جلس على إحدى الطاولات .. وبدأ يقرأ تلك السطور الأخيرة .. ويكررها بصوت عالٍ.. ولكنه لم يفهم منها شيئًا.. حتى وجد أمامه كأسًا من الخمر فشربه دون أن يدرك أنه خمر.. وشرب منه مجددًا.. وظل يقرأ ويفكر دون أن يصل إلى شيء.. وكلما انتهى ذلك الكأس أمامه ملأه النادل من جديد.. حتى ظهر تأثير الخمر عليه.. فوقف فوق الطاولة التي كان يجلس عليها.. وأمسك زجاجة الخمر بيده، والكتاب بيده الأخرى.. ثم صاح ضاحكًا في سخرية إلى من يجلسون بذلك المكان:

- ظللت أحلم أن أجد ذلك الكتاب.. وأبحث في كل مكان بتلك المدينة اللعينة..ثم شرب قليلًا من الخمر، وتابع:

- وحين وجدته.. ظللت أعمل، وأعمل، وأعمل.. لا آكل ولا أنام حتى أحصل عليه..

ثم صمت ، وضحك مقهقهًا، وقد بدأ الناس يسخرون منه حتى أكمل:

وقد حصلت عليه اليوم.. مقابل خمسمائة وحدة من ذكائي.. فنظروا إليه.. وكأنهم لا يصدقونه فأكمل، وقد أحمرّ وجهه من الخمر:

لا تندهشوا.. لو طلب مني ذلك المعتوه .. الذي قد يكون أخي أكثر من ذلك لدفعت.. ثم شرب كثيرًا من الزجاجة، وأكمل بعدما ترنّح فوق الطاولة، وبدأ لسانه يتلعثم بالحديث:

- وفي النهاية علمت لماذا لم يستطع أبي الخروج من هنا، ومعه ذلك الكتاب..

فسأله رجل سكير يجلس على طاولة بعيدًا:

- لماذا أيها المجنون؟

فأشار «خالد» إليه ضاحكًا ثملًا:

- حسنًا.. سأخبرك أيها السمين.. لابد أن القصة قد أعجبتك.. سأخبرك..

يبدوأن صاحب هذا الكتاب اللعين خشى أن يذهب أحدكم إلى ذلك السرداب.. لا أعلم لماذا خشى أن تذهبوا إلى هناك.. ليت أهل

زيكولا يذهبون إلى بلدي فيجعلونهم يعملون.. ولا يعتمدون على غيرهم مثل زيكولا.. ثم ضحك عاليًا:

- لقد وضع لغزًا بآخره..

ثم جلس على الطاولة، ووضع رأسه بين يديه.. ثم رفع رأسه مجددًا، وضحك ضحكة يشوبها ألم كبير:

- كان يعلم أنكم تتعاملون بالذكاء.. كان يعلم أنكم أغبياء.. لن تستخدموا ذرة ذكاء واحدة لتفكروا في ذلك اللغز.. ثم هدأ صوته:

- ويبدو أنني سأظل مثل أبي.. طوال عمري أبحث عن ذلك المخرج.. إنني غبي مثلكم..

ثم نهض مجددًا فوق الطاولة.. ورفع الكتاب بيده، وصاح بصوته السكير:

- والآن.. من يريد أن يشتري هذا الكتاب مقابل عشر وحدات من الذكاء؟

***

(١٤)

ظل «خالد» هكذا يهذي لما أصابه من ألم الصدمة، فلم يجبه أحد فعاد مجددًا، وصاح بصوته:

- ألا يستحق عشر وحدات؟!.. إنكم لا تعلمون قيمته.. صدقوني إنه ثمين.. ثم أكمل:

- حسنًا.. خمس وحدات؟..

فلم يجبه أحد مرة أخرى فتمتم إلى نفسه بكلمات غير مفهومة ثم نزل من فوق الطاولة.. وسار خارجًا من ذلك المكان وسط سخرية كل من يقابلونه، وتحرّشات فتيات الليل.. يسير مترنِّحًا.. لا يدري بشيء من حوله، وفي يده كتابه يلوح به إلى من يقابله، ويضحك .. حتى عاد إلى المكان الذى يقف به حصانه.. وما إن وصل إليه حتى سقط وكأنه فقد وعيه..

***

في صباح اليوم التالي، كان «خالد» نائمًا على جانبي أحد شوارع تلك المنطقة بجوار حصانه.. حتى فتح عينيه فجأة حين فوجئ بفيض

من الماء البارد ينسكب فوق رأسه.. وما إن نظر أمامه حتى وجد تلك الفتاة التي أرشدته إلى «هلال» من قبل.. فتاة الليل.. وبيدها إناء فارغ، وقد ضحكت:

- لست وحدك من تسكب الماء..

فنهض «خالد» مسرعًا، ونظر إلى ملابسه المبتلة.. وأمسك رأسه من الألم ثم نظر إليها غاضبًا، فأسرعت مبتعدة عنه، وحدّثته ضاحكة:

- هيا عد إلى حيث جئت.. لن يفيدك أن تبقى هنا..

فصمت «خالد»، ولم يتحدّث ثم أمسك بلجام حصانه، وامتطاه.. وبدأ يتحرك به ببطء مبتعدًا عن الفتاة.. حتى صاحت إليه مجددًا:

- كنت أتمنى ألا أراك هكذا ليلة أمس.. ثم صمتت، وصاحت مرة أخرى:

- كنت أظنك أقوى من ذلك..

فأوقف «خالد» حصانه ثم التفت إليها.. وتحدّث بصوت هادئ:

- أنا آسف..

ثم استدار مجددًا، وأمر حصانه أن ينطلق بين شوارع تلك المنطقة إلى أطرافها حيث طريقه إلى المنطقة الشرقية..

كان الحصان في طريقه نحو المنطقة الشرقية.. و«خالد» يكاد أن يلقي بنفسه من فوقه ندمًا عما فعله ليلة أمس.. لا يصدق أنه قد ثمل ولم يتحمل صدمة لغز الكتاب .. يتحدث إلى نفسه ويؤنّبها.. إنها المرة الأولى التي يشرب فيها خمرًا.. لا يتذكر عما تحدّث إلى السكارى.. ولكنه لم يودّ لحظة واحدة أن يكون هكذا.. ينظر إلى السماء ويستغفر ربه .. ويتحدث إلى نفسه بأنه لن يفعلها مجددًا.. ثم تذكر الكتاب، وذلك اللغز.. ماذا يقصد كاتبه؟.. كيف يكون كالشمس؟.. كيف ينحت في الصخر؟.. وأي رأس تلك؟.. وظل هكذا حتى وصل إلى أطراف المنطقة الشرقية مع حلول الليل.. واتجه إلى شاطئ البحيرة.. وما إن وصله حتى غلبه النعاس من التعب وألم رأسه الشديد.. فآثر أن يستريح حتى صباح اليوم التالي..

***

في صباح اليوم التالى، استيقظ «خالد» من نومه، ولم يكد يفتح عينيه حتى وجد «أسيل» تأتي إليه مسرعة.. وسألته في لهفة:

- هل حصلت على كتابك؟

فابتسم «خالد» ابتسامة يعتريها الحزن:

- نعم..

ثم نهض، وسار بضع خطوات تجاه البحيرة.. حتى ألقى بنفسه في مائها.. يرتدي بنطاله، ونصفه العلوي عارٍ بعدما ألقى بقميصه على شاطئها .. وأخذ يغمر جسده بالماء، حتى سألته «أسيل» مجددًا، وهي تقف أمام البحيرة:

- «خالد».. هل دفعت الكثير من مخزونك؟!!

فصمت «خالد»، وأكمل سيره إلى داخل البحيرة، ثم أكملتْ:

- «خالد».. أراك شاحبًا اليوم، وشحوبك مميز.. إنك أنفقت الكثير من ثروتك .. تجاوزت ثمن الكتاب..

فتوقف «خالد» ثم التفت إليها:

- أيوه .. «هلال» طلب مني مائة وحدة إضافية..

حتى صاح صوت في دهشة:

- مائة وحدة؟!!

فالتفتت «أسيل» فوجدت «يامن» قد جاء .. فأكمل «خالد» إليهما:

- نعم، مائة وحدة.. لقد طلب مني خمسمائة وحدة مقابل ثمن الكتاب، وإلا هيقطّع صفحاته..

ثم سار خارجًا من الماء.. والمياه تتساقط من جسده، وبنطاله المبللين، ثم ارتدى قميصه، و سأل «يامن»:

- ليه مرحتش عملك؟

فضحك «يامن»:

- أخبرني أحد أنك جئت بالأمس بعد حلول الليل، فجئت كي آخذ الحصان، وأعيده إلى صاحبه، وأن أرى أثمن كتب زيكولا.. بعدها قد أذهب إلى عملي أو لا أذهب اليوم.. إن تلك اللحظة لا يضيعها عاقل.. ثم سأله:

- أين الكتاب؟

فصمت «خالد» حتى نطقت «أسيل»:

- «خالد».. مالي أراك حزينًا؟!

فتحرك «خالد» إلى جوار شجرته، وأخرج الكتاب من بين أغراضه ثم ألقاه إلى «يامن».. وتحدّث ساخرًا:

- ده أغلى كتاب في زيكولا..

- فالتقطه «يامن» فرحًا، وظل يتأمّله حتى أكمل «خالد»:

للأسف كنت مفكّر إني مجرّد مالاقيه هقدر أخرج من هنا بعد يوم زيكولا.. بس تقريبًا اللي يدخل زيكولا صعب إنه يسيبها..

فقاطعته «أسيل» في دهشة:

- ألم يتحدث الكتاب عن سرداب فوريك؟!!

فرد «خالد»:

الكتاب تحدّث عنه، وعن فوريك، وعن مصر.. والغريب إن الكتاب بيقول إني ممكن أخرج قبل يوم زيكولا.. وإني مش مضطر انتظر لليوم ده.. وإنى عشان أرجع لبلدي كان لازم أدخل زيكولا..

ثم أخذ نفسًا عميقًا، وزفره بقوة:

- لكنه ترك لغزًا في نهايته.. لمخرج السرداب..

«أسيل»:- أي لغز؟

فنظر «خالد» إلى «يامن» ثم سأله أن يقرأ آخر سطور الكتاب..

فبدأ «يامن» يقرأ:

"من يأتي إلى تلك الأرض، ويريد أن يعود إلى دياره، وأن يصل إلى سرداب فوريك مجددًا.. لابد أن يدخل زيكولا.. ويكون كالشمس، وينحت في الصخر.. فيجد باب السرداب الآخر أمام الرأس مباشرة.."

بعدها صمت «يامن»، وكأنه لم يفهم شيئًا.. وصمتت «أسيل» مثله.. وصمت «خالد» حتى نطق:

أول مرة أحس إني ضعيف كانت في اللحظات اللي قريت فيها اللغز.. مش عارف إيه اللي حصل لي.. حسيت إني بعد ما مسكت الأمل بإيدي.. راح فجأة.. وكأنه تبخّر، وشربت خمرًا للأسف..

فقاطعته «أسيل»:

- شربت خمرًا؟!

فرد «خالد»:- أيوه للأسف.. أعتقد إن تصرفي ده كان نتيجة الصدمة..

فقاطعته «أسيل» مجددًا:

أونتيجة لشيء آخر، وهو فقدانك لذكائك.. إنك فقدت وحدات كثيرة من ذكائك في وقت قليل.. لا تنس أن مخزونك كان قد زاد بعد ادخارك لثمن الكتاب.. ثم انفقته فجأة، ومعه مائتي وحدة إضافية لـ«هلال»، وثمن استئجار حصانك.. أي شخص مكانك كان

سيتصرف بغرابة.. كان سيفعل أي شيء بعيدًا عن شخصيته الحقيقية..
ولن يلومه أحد.. إنه تصرّف لا إرادي.. إنك أصبحت مثلنا يا
«خالد»..

فصمت «خالد».. ثم نطق «يامن»:

- وهل لا يوجد حل هذا اللغز في الكتاب ذاته؟!

فرد «خالد»:

لا.. أنا قريت الكتاب بسرعة.. وكان بيتكلم عن أهل زيكولا،
وعن حياتكم، واللغز موجود في آخر الكتاب، بس..

ثم أكمل:

- أنا متأكد إنه لغز سهل.. ممكن يكون سهل للغاية.. بس محتاجنا
نفكّر..

فنطق «يامن» على الفور في دهشة:

- نفكر؟!!! ثم التفت بوجهه، وكأنه يهرب فظهر الغضب على
وجه «خالد»، وصاح به:

أيوه.. صاحب الكتاب أكيد كان عارف إن زيكولا مفيش حد فيها بيفكر، أو يستخدم ذكاءه من شدة بخلهم.. بس انتوا لازم تساعدوني ..ثم نظر إلى «أسيل»:

- «أسيل».. لازم تفكّري.. لازم تساعديني.. أنتي غنيّة.. يعنى ذكيّة، أنتي أذكى مننا بمراحل..

فصمتت «أسيل» دون أن ترد ثم نظر إلى «يامن»:

- وأنت عارف زيكولا أكتر مني.. لازم تفكر.. لازم..

ثم صاح إلى الاثنين بعدما صمتا، ولم ينطقا:

- عارف إن تفكيركم بذكاء هيقلل من ثروتكم .. بس هتحسوا بالفخر لو قدرتوا تحلّوا اللغز ده..

فلم يردا مجددًا.. فصمت «خالد»، وجلس أمام البحيرة، وأعطى ظهره لهما حتى نطق «يامن»:

- حسنًا.. سأفكر يا «خالد»، ولكن عليّ أن أعيد الحصان إلى صاحبه الآن.. وأن نذهب إلى عملنا معًا..

فصاح «خالد»:

- لن أعمل الآن..

فاقتربت «أسيل» من «خالد»:

- «خالد»، لا تيأس.. أعتقد أنك قوي بما يكفي لتجد حلًّا لهذا اللغز..

فرد «خالد» مبتسمًا:

- قوي؟!.. إن اللغز يحتاج إلى ذكي.. إن رجال زيكولا أقوياء، ولكنهم ليسوا أذكياء.. إن اللغز يحتاج إلى من يفكر.. وأنا سأفكر..

ثم نظر إلى «يامن» الذي كاد يغادر المكان، وصاح به:

- «يامن».. اجلس.. لن تذهب إلى عملك قبل أن نجد حل هذا اللغز..

فاندهش «يامن» حتى أكمل «خالد»، وقد هدأ من ثورته:

- اجلس يا «يامن».. سأعطيك أجرك عن عملك، ولكن فكّر معي.. أريد مساعدتك، ثم نظر إلى «أسيل»:

- «أسيل».. ستجدين معنا الحل.. فابتسمت «أسيل»، وردت:

- حسنًا..

ثم جلس كلاهما، وتحرك «خالد» أمامهما جيئة وذهابًا، وبدأ يتحدث:

أنا فقدت تقريبًا خمس مخزوني من الذكاء في الأيام اللي فاتت.. بس لسه عندي اللي يكفي إني أفكّر.. وأنا هفكّر لآخر لحظة في حياتي.. ثم رفع الكتاب بيده، وتحدّث إليهما:

- اللغز بيقول..

- يكون كالشمس.. وينحت في الصخر.. والباب أمام الرأس..

- يكون كالشمس.. ينحت في الصخر.. الباب أمام الرأس..

ثم نظر إلى «يامن»:

- فيه تماثيل موجودة في زيكولا؟

فرد «يامن»:- لماذا؟!

فأجابه «خالد»:- قد يكون يقصد رأس تماثيل..

فصمت «يامن» قليلًا ثم تحدّث:

- لا أعتقد.. حتى أكملت «أسيل»:

لا توجد تماثيل في زيكولا إلا تلك التى ينحتها نحاتو زيكولا لفقراء يوم زيكولا.. حين تلعب لعبة الزيكولا، ثم تُحطّم جميعًا.. أصحابهم الذين ينجون من اللعبة من يحطمونها.. إنها نذير شؤم لهم..

فصمت «خالد»، وتحرك بعض الخطوات جيئة وذهابًا مرة أخرى، وحدّث نفسه:

- لا يوجد تماثيل..

بعدها نظر إلى «أسيل» مجددًا:

- كيف أنحت في الصخر يا «أسيل»؟

فصمتت «أسيل» قليلًا ثم تحدّثت:

- إنك تكسر الصخور بالفعل.. فضحك «يامن»:

- وأنا أيضًا.. حتى نظر إليه «خالد» غاضبًا، فصمت ثم أكمل «خالد» إلى «أسيل»:

ولكن لا توجد رؤوس هنا في المنطقة اللي بكسر فيها الصخور..

ثم صمتوا جميعًا مجددًا، حتى نطق «خالد» بعدما أطلق صفيرًا هادئًا:

- وكيف أكون كالشمس؟!!

فضحك «يامن»:

- إنك مضيء مثلها يا «خالد»، وغضبك مثل حرّها الشديد.. فقاطعه «خالد» غاضبًا:

ليتني تركتك تذهب إلى عملك.. أصمت يا «يامن».. لا أريدك أن تتحدّث.. إنك اليوم أغبى مما كنت أتخيل..

فصمت «يامن»، وعاد بظهره إلى الخلف نائمًا أمام البحيرة.. و«خالد» ما زال يفكّر، ويتحدّث إلى نفسه.. و«أسيل» تترقّبه في صمت، حتى نظر إليها:

- «أسيل».. ساعديني..

فابتسمت «أسيل»:

- حسنًا يا «خالد».. إنني أفكّر الآن مثلك.. ثم أكملت:

- لا توجد رؤوس، وأنت كسرت الصخور بالفعل.. هل قرأت الكتاب جيّدًا؟

فرد «خالد»:

- أعتقد ..

فصمتت مجددًا.. وقد بدأ الوقت يمر .. و«خالد» لايكف عن الحركة.. و«أسيل» تضع رأسها بين يديها، وتفرك شعرها الناعم وكأنها تفكّر.. و«يامن» نائمًا على ظهره، واضعًا إحدى قدميه فوق ركبة رجله

الأخرى.. حتى غربتِ الشمس، ولم يصلوا إلى شيء.. حتى نطق «خالد» في يأس:

- أرى أنني أصبحت غبيًّا بالفعل..

فتحدثت «أسيل» مبتسمة:

- سنجد الحل يا «خالد».. سنجده..

و«يامن» يستمع إليهما.. ومازال نائمًا على ظهره، وينظر إلى النجوم التى تملأ السماء.. حتى تحدّث إلى «خالد»:

أنا أعتذر حقا يا «خالد».. إنني أريد أن أساعدك، ولكنني لا أستطيع ذلك.. كانت أمي تخبرني دائمًا أن «إياد» صديق عمري أكثر مني ذكاءً.. ولكن أين نجد «إياد» الآن؟.. إنه في المنطقة الغربية يكسر الصخور مثلنا..

فالتفت إليه «خالد» ، وسأله في لهفة:

- يكسر الصخور؟!!

فرد «يامن» مندهشًا من لهفة «خالد»:- نعم..

فسألها «خالد»:- هو فيه منطقة صخرية غير المنطقة الشرقية؟

فأجابت «أسيل»:

- نعم.. المنطقة الغربية أيضًا منطقة صخرية.. نعم، إنك لم تذهب إليها..

فصمت «خالد» كأنه يفكر.. وقد لمعت عيناه، وتحرّك تجاههما مسرعًا.. ووضع بعض الأخشاب في النار التي أشعلها «يامن» من قبل كي تزداد إنارتها.. ثم تحدث:

لما كنت في سرداب فوريك.. انقسم السرداب إلى طريقين.. أنا أخدت طريق منهم.. والسرداب أبعدني عن طريق تاني.. طريق المخرج..

بعدها جلس على الأرض أمام «يامن» الذي نهض وجلس، و«أسيل» التي تابعته في ترقّب.. ثم أمسك بقطعة خشب صغيرة، وبدأ يرسم على الرمال أمامهما.. فرسم خطًا طويلًا ، وتحدّث:

- إن كان ده طريق السرداب الرئيسي..

ثم رسم خطًا مُتفرِّعًا منه يسير تجاه «يامن» و«أسيل».. وأكمل حديثه:

- وأنا أخدت الطريق ده لحد ما جيت في الصحرا خارج زيكولا..

ثم رسم خطًا آخر متفرعًا من الخط الرئيسي أيضًا.. ولكنه معاكسٌ للخط الفرعي الذي رسمه من قبل، وأكمل:

- والطريق ده اللي السرداب أبعدني عنه.. طريق المخرج على حسب كلام الكتاب..

ثم وقف على قدميه، وتحرك خطوتين للخلف، وابتسم:

- الآن تأكّدت أن زيكولا أخذت من ذكائي الكثير.. ازاي مفكّرتش في ده..

ثم أشار إليهما بأن ينظرا إلى الفرع الذي رسمه تجاههما، ونطق:

- هو ده الطريق إلى شرق زيكولا.. أكيد هو..

ثم أشار إلى الخط المتفرع المعاكس له وهدأ صوته، وابتسم:

- وهو ده الطريق إلى غرب زيكولا..

ثم أكمل:

- المنطقة الوحيدة التي لم أزرها في زيكولا.. المنطقة الغربية..

ثم نظر إلى السماء حيث النجوم التي برزت.. ثم نظر إلى «يامن» و«أسيل»:

- لم يقصد بالشمس أنني مضيء يا «يامن»..

- إنه قصد بالشمس.. حركتها..

- من الشرق إلى الغرب..

- إنه أسهل مما تخيلت.. إنه سهل للغاية، ولكن لشخص لم يفقد ذكاءه.. شخص عاوز يفكّر..

فضحك «يامن»، وابتسمت «أسيل».. ثم توقفت عن ابتسامتها، وتحدّثت:

- ولكن يبقى الرأس..

فابتسم «خالد»: سأجدها..

فقاطعه «يامن»:

- وما الذي يؤكّد لك أنها حقًا المنطقة الغربية؟

فأجابه «خالد» بلهجته بعدما تنوّعت لهجته ما بين لهجته الأصلية ولهجة زيكولا:

لست متأكّدًا.. ولكن لم يعد وقتًا سوى للمجازفة.. إن خشيت المجازفة سأظل مثل أبي.. هنا طوال عمري.. ثم تابع:

سأذهب إلى هناك.. وأعتقد أنني سأجد ذلك الرأس بسهولة.. لابد وأن يكون بقية اللغز أسهل مما نتخيل.. فضحكت «أسيل»:

- يبدو أن الذكاء في بلدكم يختلف عن الذكاء هنا.. ثم أكملت:

- لو فقد أحد مثلك، خمس ذكائه لما نطق..

فابتسم «خالد»: أتمنى أن تكون شكوكي سليمة.. وأن يكون صاحب الكتاب قصد يخليه سهل كده..

فضحك «يامن»، وأمسك بلجام الحصان الذي كان يقف بجوارهم:

حسنًا يا ذكي .. ولكن المنطقة الغربية أبعد من المنطقة الشمالية.. هل ستستأجر حصانًا يكلِّفك المزيد من ذكائك؟!

فصمت «خالد» مفكِّرًا.. حتى نطقت «أسيل»:

لا.. إنه استأجر حصانًا إلى المنطقة الشمالية لأنني لم أكن أذهب إلى هناك.. أما المنطقة الغربية فسأذهب إليها بعد عدة أيام لحسن حظك يا «خالد».. هل تنتظر، وتأتي معي؟

فابتسم «خالد»، ورد على الفور:

- أيوه.. هنتظر ..

فابتسمت «أسيل»:

حسنًا.. عليك أن تعمل إلى حين نذهب إلى هناك.. عليك أن تحاول إعادة أجزاء ولو قليلة من ثروتك.. فابتسم «خالد» ثم نظرت «أسيل» إلى «يامن»:

وأنت ؟.. لا تريد أن تساعد صديقك هناك؟.. فنظر إليها «يامن» مندهشًا ثم أكملت:

إنني أريد مساعدًا آخر مع «خالد».. ولكنني لن أدفع لك أكثر من أربع وحدات باليوم، وملابس جديدة لك..

فصمت «يامن» ثم ضحك:

- مساعد طبيبة؟!!.. حسنًا لم لا؟! ثم تمتم إلى نفسه:

مساعد طبيبة صباحًا.. وباحث عن رأس مجهولة مع صديق بعد الظهيرة.. لا أظن أن هناك ما يمنع ذلك..

بعدها تحدّثت «أسيل» إلى «خالد» بصوت يسمعه «يامن»:

- الآن سأغادر يا «خالد».. وسأقابلكما هنا صباحًا بعد ستة أيام حتى نتَّجه معًا إلى هناك ثم نظرت إلى «يامن»:

- وأنت، سيأتيك أحد بالملابس الجديدة قبلها بيوم.. ثم غادرتْ، فضحك «خالد» ونظر إلى «يامن»:

- ستكون مساعدًا لمساعد الطبيبة..

فرد «يامن» ضاحكًا:

- أظن أنها تريدني أن أكون سائقًا لعربتها..

ثم أمسك بلجام الحصان، وهمّ ليغادر:

- الآن عليّ أن أتركك.. إنني لم أضع شيئًا في حلقي منذ الصباح.. هل ستأكل أنت الآخر؟

فرد «خالد»:

- لا.. أنا سأنام.. ربما آكل غدًا .. ثم تابع:

- إن طعامي الآن يأخذ من ذكائي.. وأنا أحتاج كل وحدة حتى أجد ذلك الرأس وذلك المخرج..

فابتسم «يامن»:

حسنًا، أراك غدًا في العمل.. وسأخبر العمال بأنني أمسكت أثمن كتب زيكولا بيدي.. كتاب ينقذ فقيرين من ذبح يوم زيكولا.. ثم ضحك، وغادر هو الآخر.. وظل «خالد» بمفرده بجوار شجرته على شاطئ البحيرة..

***

مرتِ الأيام يومًا تلو الآخر، و«خالد» يعمل مع «يامن».. ويقرأ الكتاب مجددًا أكثر من مرة باليوم، ويقارن بين ما ذكره الكتاب عن أهل زيكولا وبين ما كتبه هو في أوراقه.. ويحاول أن يسأل الكثيرين ممن

ذهبوا إلى المنطقة الغربية من قبل، لعل أحدهم يدرك سر ذلك الرأس.. يعلم أن ذهابه إلى هناك مجازفة وقد لا تكون ما يقصده صاحب الكتاب.. ولكنه لم يجد حلًا آخر، وأنها أقرب الحلول إليه..

حتى جاء اليوم السادس، وكان في انتظار «أسيل» وعربتها عند البحيرة.. حتى وجد «يامن» يقترب من بعيد، وقد ارتدى زيًّا جديدًا.. جلبابًا أزرق قصيرًا ومزركشًا، ويظهر من تحته بنطال فضفاض.. ويسير متباهيًا بزيّه، وينفض كل لحظة عن أكمامه .. فضحك «خالد» حين رآه، ثم سأله «يامن» على الفور:

- ألستُ وسيمًا في هذا الزي؟

فضحك «خالد»:

- إن ملابسك أجدد كثيرًا من ملابسي..

فضحك «يامن»:

إننى أعمل بمقابل.. أماأنت فتعمل مقابل ذهابك إلى مناطق زيكولا.. بعدها وصلت عربة «أسيل»، وما إن رأى «يامن» السائق حتى همس إلى «خالد»:

- يبدو أنني لن أعمل سائقًا.. سأعمل مساعدًا حقًّا..

فضحك «خالد» حتى ظهرت «أسيل» من نافذة العربة، ونادت بصوتها في ابتسامة:

- هيا..

فحمل «خالد» جميع أغراضه، وكانت لفافة من القماش بها أوراقه وكتابه، وبعض كسرات الخبز القديم.. وركب مع «يامن» العربة بمواجهة «أسيل»، والتي أمرت السائق أن يتحرك نحو المنطقة الغربية..

***

انطلقت العربة ، وبداخلها «خالد» و«يامن» و«أسيل» .. و«يامن» ينظر عبر النافذة مسرورًا حتى أثار دهشة «أسيل».. ويريد أن يخرج عبر النافذة كي يراه من يعمل معهم بزيّه الجديد.. أما «خالد» فظل صامتًا، وينظر عبر النافذة الأخرى.. و«أسيل» تترقبه في صمت ثم قالت:

- هل وجدت شيئًا آخر لذلك اللغز؟

فابتسم «خالد»:

- لا.. كل أملي إن يكون ظننا صحيحًا.. ويكون فعلًا هناك المخرج..

فصمتت ثم ابتسمت، وتحدثت:

- تريد أن تغادر زيكولا في أسرع وقت.. لن تنتظر يوم زيكولا حتى..

ثم سألته:

- ماذا ذكر الكتاب عن تاريخ زيكولا؟

فرد «خالد» مبتسمًا، وفضّل أن يجيب بلهجتها:

- إن صاحب الكتاب لم يعرف هو الآخر سر زيكولا.. يبدو أنه لا أحد يعلم سر تلك الأرض.. ولكنه ذكر كيف تحدثتم العربية..

فسألته «أسيل»:- كيف؟!

فقلّب «خالد» صفحات الكتاب على عجل، وأشار إلى صفحة به:

يقول الكتاب إن هناك من جاءوا من بلدي إلى هنا من قبل، عبر سرداب فوريك منذ قرون.. وهم من علّموا أهل زيكولا اللغة العربية.. أما بعض المناطق المجاورة فقد عَلَّمها مَنْ جاء من بلدي ولم يدخل زيكولا..

فضحك «يامن»، وقاطعه:

- حسنًا.. إننا ندين لكم بالكثير..

فابتسم «خالد» ، وأكمل:

- ويقول أيضًا.. إنهم ممن سكنوا المنطقة الشمالية..

فصمت «يامن» ثم أكمل ضاحكًا:

- لا ندين كثيرًا..

حتى سألته «أسيل»:

- هل ذكر أين زيكولا من أرضك؟

فرد «خالد»:

لا؛ لم يذكر ذلك.. لكن الشيء الذي أعلمه أنا وصاحب الكتاب أن الطريق بين أرضي وأرضكم هو سرداب فوريك.. ثم أكمل بعدما قلّب بعضًا من صفحات الكتاب:

هو الآخر لم يستطع أن يجد تفسيرًا لوجودكم، ووجود تلك الصحراء، والأراضي، وآبار المياه التي توجد بها، وتلك السماء، وتلك الشمس.. فقال إن زيكولا أرض أخرى لا أحد يعلم أين هي.. سوى أنها نهاية سرداب فوريك .... يبدو أنها ستظل سرًّا أبديًّا لا يعلمه أحد..

***

بعدها أكمل الثلاثة حديثهم عن ذلك الكتاب.. وبدأ «خالد» يقرأ لهما بعضًا من صفحاته، ويندهشان كثيرًا حين يقرأ لهما «خالد» عن سرداب فوريك، وتصميمه البديع، وكيف يكون مضاءً ليلة البدر،

وكيف تمت تهويته، وكأنهما لايصدقان ما يسمعانه، ولكن «خالد» حدّثهما بأنه قد رأى ذلك بالفعل حين مرّ منه.. ومر الوقت، والثلاثة يكملون حديثهم.. ويتنقلون من حديثهم عن الكتاب وما به إلى «هلال»، ذلك الجشع الذي أخذ مائة وحدة إضافية، و«يامن» يقسم أنه لو فعل معه ذلك لقتله، وضحكا كثيرًا حين أخبرهما «خالد» بأنه قد ثمل، ولا يتذكر شيئًا مما تحدّث به إلى الناس في تلك اللحظات هناك.. حتى بدأوا يتحدثون عن تلك المنطقة التي يتجهون إليها، وقد نظر «خالد» إلى «يامن»، وسأله:

أنت قلت لي قبل كده إن المنطقة الغربية بها سوق كبيرة.. بيتم فيها بيع وشراء جميع منتجات زيكولا الزراعية أوالصناعية..

فأجابه «يامن»:

- نعم.. تلك المنطقة يقصدها الكثيرون رغم بعدها عن منطقتنا..

فقاطعته «أسيل»، وأكملت:

- ولكنها أكثر قربًا إلى منطقة الحاكم التي نمر أمامها الآن..

فنظر «خالد» عبر النافذة، فوجد قصور المنطقة الوسطى المتميزة.. قصور منطقة الحاكم.. بينما تسير بالطريق الممهد الموازي لها.. حتى أكمل «يامن»:

وقريبة أيضًا من المنطقة الجنوبية.. منطقة الزراعة، وعرفت دائمًا أنها أرض الشراء والبيع في زيكولا.. وأن الأسعار بها أرخص كثيرًا من مثيلاتها في المناطق الأخرى.. فيلجأ إليها الكثيرون من أهالي زيكولا.. فتحدّثت «أسيل»:

- إنها منطقة تجار زيكولا.. وهم يعيشون بها رغم أنها منطقة يصعب العيش بها.. ثم أكمل «يامن»:

ومنذ سنوات قريبة أصبحت المنطقة المنافسة لمنطقتنا في صناعة الطوب من الصخور.. بعدما بدأوا يستغلون طبيعتها الصخرية في صناعة الطوب مثلنا، وبها الكثير من العمال الأقوياء، منهم «إياد» صديقي..

فصمت «خالد».. ثم ضحك ساخرًا:

كان في الأول هدفي إني ألاقي الكتاب، ولقيت الكتاب.. دلوقتي هدفي إني ألاقي رأس مجهولة..

ثم عاد بظهره إلى مسند المقعد الذي يجلس عليه، وأكمل ساخرًا من نفسه في حزن:

- خايف ألاقي الرأس، يكون عليا إني ألاقي حاجة تانية غيرها..

فابتسمت «أسيل»:

وإن كان.. ستجد كل ما تريد.. أنت القوي.. أنت الذكي.. أنت تختلف عن غيرك يا «خالد».. أنت من وجدت كتابك، وأنت من وجدت حل لغزه.. وأنت من ستخرج نفسك من هنا..

فابتسم «يامن» ، وظل يترقب «خالد» و«أسيل» حتى ساد الصمت داخل العربة..

***

غربتِ الشمس، وحل الظلام بالسماء.. وعاد «يامن» بظهره إلى الخلف، وأغمض عينيه، وكأن النعاس قد غلبه.. أما «أسيل» فلم تفارق عيناها السماء.. حتى صاحت إلى «خالد»:

- أنظر هناك.. ثم أشارت إلى السماء:

- إنه «أسيل»..

فنظر «خالد» مبتسمًا إلى السماء، ونظر إلى ذلك النجم اللامع ثم نظر إلى «أسيل»:

- أنا بتفاءل بيه، وبتفاءل بوجهك يا «أسيل»..

فأحمر وجهها خجلًا كعادتها.. وابتسمت، وظلت تنظر إلى ذلك النجم بالسماء، و«خالد» ينظر إليها، ويبتسم حين يجدها تُحرّك رأسها وعينيها مع ذلك النجم مع مرور العربة.. لا تريد أن يغيب عنها لحظة واحدة.. ثم يضحك حين ينظر إلى «يامن» فيجده قد انزلق بجسده بين المقعدين، وقد تعمق في نومه.. حتى نظر عبر النافذة بعيدًا فوجد نيرانًا بعيدة، فعلم أنهم قد اقتربوا من تلك المنطقة التي يقصدونها ..

***

وصلتِ العربة إلى أطراف المنطقة الغربية فأيقظ «خالد» «يامن» على الفور، ففتح عينيه في ابتسامه حين وجد نفسه منزلقًا داخل العربة.. ثم نهض، وعدَّل من جلوسه وملابسه، ثُمَّ تحدّثت «أسيل»:

- سنتجه الآن إلى مكان لنبيت به حتى الصباح.. هنا يوجد مكان خاص لطبيبة الحاكم.. أنا.. ولمساعدَيَّ.. أنتما..

فابتسم «يامن»:

- رائع.. خشيت أن أنام على جانبي أحد الشوارع مثلما يفعل صديقنا دائمًا..

فابتسم «خالد»، ثم أكملت «أسيل»:

- سنبدأ عملنا في الصباح، وبعد الظهيرة لن أحتاج إلى مساعدتكما.. فاذهبا لتبحثا عن مخرج ذلك السرداب..

بعدها توقّفتِ العربة أمام أحد البيوت، ونزل الثلاثة.. تتقدمهم «أسيل»، ويليها «خالد».. ثم «يامن»، والذي حمل جميع الحقائب، ومن بينهم أغراض «خالد»، واتجهوا إلى داخل ذلك البيت حيث كان أحد الأشخاص في استقبالهم..

***

في صباح اليوم التالي، نهض «خالد» مسرعًا، وأيقظ «يامن».. ثم اتجها مع «أسيل» إلى عملها.. ومعهم ذلك الرجل الذي استقبلهم الليلة الماضية.. وأخذوا يتنقلون من بيت إلى بيت، و«أسيل» تفحص كل المرضى.. وإن احتاج أحدهم إلى ضمادة تترك «خالد» ليضمده.. و«يامن» لا يفعل شيئًا سوى أن يحمل الحقائب، ويتباهى بملابسه

الجديدة، وكلما مرت فتاة بجواره يضع الحقائب أرضًا ثم ينفض عن أكمامه حتى تمر فيحمل الحقائب مجددًا.. و«خالد» يراه ويضحك..

أما «أسيل» فكانت تشيط غضبًا، ولكنها تعود لتضحك حين تجد «خالد» يضحك لذلك.. وظلوا يتنقلون بين شوارع تلك المنطقة.. و«خالد» ينظر إلى بيوتها، والتي بدا على الكثير منها الثراء.. ولكنها ليست في ثراء قصور المنطقة الوسطى.. يعلم أنها بيوت تجار زيكولا، ولابد أنهم أثرياء.. تتكون أغلبها من طابقين، وتمتاز ببراعة معمارية من الخارج.. وجدران صخرية سميكة، ونقوش مميزة على واجهتها ونوافذها، وليست عتيقة مثل مباني المنطقة الشرقية.. حتى مرّتِ الساعات، فأخبرتهما «أسيل» بأنها ستكمل مداواة النساء، أما هما فعليهما أن ينصرفا، ويبحثا عن هدفهما..

***

انصرف «خالد» و«يامن» على الفور، وقد تخلّص «يامن» من ملابسه الجديدة، وارتدى زيه القديم الذي أحضره معه.. وسارا معًا في شوارع المنطقة الغربية.. يبحثان عن أي شيء.. يبحثان عن ذلك الرأس التي لا يعلمون ماهيته.. حتى وصلا إلى منطقة شاسعة، وبها الكثير من

أهل زيكولا.. رجالًا ونساءً.. فأخبر «يامن» «خالد» بأنها سوق زيكولا الكبير، حتى اقتربا.. فوجد «خالد» بهذا السوق الكثير من المحاصيل الزراعية، والفواكه، والخضراوات التي يعرفها، وبعضها لا يعرفه، ولم يره من قبل، ويتزاحم الناس حوله، وتلك المنتجات التي صنعها أهل زيكولا.. ملابس جديدة، جلابيب، قمصان، وفساتين.. متراصّة.. رسمت من ألوانها لوحات رائعة.. والبائعون ينادون بأسعارهم من الوحدات، والصخب يعم المكان، و«خالد» و«يامن» يتحركان بصعوبة بين ذلك الزحام، حتى سأله «خالد»، وقد أعلى صوته كي يسمعه:

- كيف يشترى هؤلاء الناس؟!.. ألا يخافون على ثرواتهم؟

فأجابه «يامن»، وقد أعلى صوته هو الآخر:

إن الأسعار هنا ليست باهظة كالمناطق الأخرى، كما أخبرتك.. هنا يشترون تلك المنتجات، ويأخذونها ليبيعوها في المناطق الأخرى بأسعار أكثر غلاءً للأثرياء.. فيحققون المزيد من الثروة.. ثم أكمل:

- وهناك سلع كالسلع الزراعية، لا نستطيع أن نستغني عنها.. وهم يعرفون جيدًا كيف يربحون من تجارتها..

ثم واصلا سيرهما بين الزحام، وعين «خالد» تتنقل هنا وهناك.. تبحث عن ذلك الرأس.. ويسأل من يقابلهما عن رأس تمثال أو عن تمثال شهير بتلك المنطقة.. أو أي رأس يعرفونه.. ولكن الجميع أنكروا وجود تماثيل أو أي رأس بتلك المنطقة.. حتى أصابهما التعب، وجلسا بجوار أحد البيوت، وشربا من الماء الذى أحضره «يامن» معه.. حتى تحدث «يامن» مُحمِّسًا «خالد»:

- سنجدها.. أشعر أننا سنجدها يا «خالد».. حتى قطع حديثه إليه حين صاح بصوته بعيدًا إلى أحد الأشخاص:

- «إيااااد»..

ثم جرى نحوه، واحتضنه كثيرًا ثم تحدّث إليه قليلًا، وأتى به إلى «خالد»:

- إنه «خالد» الذي قابلته معي يوم زيكولا.. هل تتذكره؟!

فابتسم «إياد»:

- الغريب؟!! .. نعم، إنني أتذكّره.. هل أصبحتما أصدقاء؟

فضحك «يامن»:- نعم..

فسأله «أياد» مجددًا:

- وماذا جاء بكما إلى هنا ؟!!.. هل تريدان أن تشتريا شيئًا ما ؟ ثم نظر إلى «يامن»:

- ولماذا لم تخبرني بمجيئك سابقًا.. أخشى دائمًا مفاجآتك.. فضحك «يامن» حتى سأله «خالد» على الفور:

- «إياد».. تلك المنطقة صخرية؟

فرد «إياد»:- نعم .. إنها أكثر المناطق وعورة في زيكولا.. إن الأرض هنا صلبة للغاية.. ولا تصلح للزراعة..

فقاطعه «خالد» ، وسأله:

- هل توجد تماثيل في تلك المنطقة.. أبحث عن رأس.. لا أدرى أي رأس..

فصمت «أياد» مفكرًا:

- لا.. تلك المنطقة أسكن بها منذ زمن.. ولا توجد بها أي رؤوس.. لابد أنكما أخطأتما المكان..

فصمت «خالد»، وبدا عليه التوتر:

- ولكن الكتاب يقول أنحت في الصخر.. وإني أكون كالشمس .. وأقرب تفسير للغز هي المنطقة الغربية..

فنظر «يامن» إلى «إياد»:

- أرجوك يا «إياد».. أعلم أنك ذكي.. فكّر معنا.. تذكَّر أن «خالد» صديقي، وأريده أن يصل إلى مراده..

فابتسم «إياد»، وشرب من ماء «يامن»، وأكمل إلى «خالد»:

أنا أوّد ذلك.. ولكنني لا أفهم شيئًا مما قلته من حديثك عن الكتاب.. صدقني لا يوجد لديك دليل مما سمعته الآن.. سوى النحت في الصخر.. نعم، تلك المنطقة أرضها الصخرية شهيرة هنا.. حتى يقال إن طبيعة تلك الأرض الصخرية هي من تحكّمت في بناء سور زيكولا..

ولم يكد يكمل حديثه، حتى فوجئ الثلاثة بـ«أسيل» تأتي إليهم، وتلهث، وكأنها أتت عَدْوًا، ووضعت يدها على صدرها.. تريد أن تلتقط أنفاسها، ونظرت إلى «خالد»، والعرق على وجهها:

- «خالد».. لقد وجدت ذلك الرأس التي تبحث عنه..

***

(١٥)

دق قلب «خالد»، وانتفض بقوة، وكل من «يامن» و«إياد» هكذا، وسألها «خالد» على الفور:

- فين؟!

فجذبته من يده:

-هيًا..

ثم انطلقت، ويدها تمسك بيد «خالد»، وتبعهما «يامن» و«إياد»، وأسرعوا بين الزحام، واصطدموا بالكثير من الناس.. وكلما سبّهم أحد ابتسموا له وأكملوا عدوهم، و«خالد» يسأل «أسيل» عن الرأس ولكنها تبتسم وتطلب منه أن ينتظر قليلًا.. ثم يواصلون تحركهم بين الزحام، ومازالت يد «أسيل» متشابكة مع يد «خالد».. لا ينفصلان سوى كي يمر أحد الأشخاص بينهما، وما يلبث أن يمر حتى تتشابك اليدان مرة أخرى.. و«يامن» و«إياد» يسرعان خلفهما، ويزيحان بأيديهما من يقابلهما.. لا يريدان أن يفقد بصرهما «خالد» و«أسيل».. حتى خرجوا من تلك السوق إلى أحد الشوارع الأقل زحامًا، وأسرعوا إلى

نهايتـه.. تقـودهم «آسـيل» ومازالـت صـامته لا تريـد أن تتحـدث..
و«خالد» يتبعها، وقلبه يدق وأنفاسه تتسارع..

حتى وصلوا إلى الطرف الغربي للمنطقة الغربيـة، ولم تكـن هنـاك سوى بيوت قليلة أغلبها ليست بفخامة مثيلاتهـا مـن البيـوت الأخـرى بتلك المنطقة، وقد ظهر سور زيكـولا، وارتفاعـه الـذي يـصل إلى خمسة طوابق فتوقّفت «أسيل» ثم حاولت أن تلتقط أنفاسها مجددًا.. وأشارت أمامها، وقالت، وقد ظهر عليها الإنهاك:

- أنظر هناك..

فنظر «خالد» أمامه، ونظر معه «يامن» و«إياد»..يبحثون عن رأس بذلك المكان فلم يجدوا شيئًا حتى سألها «خالد»:

- فين؟!

- فابتسمت «أسيل»، ومازالت أنفاسها سريعة:

إنها ليست رأس تمثـال كـما خُيِّلَ إليـك وإلينـا.. إنهـا رأس أخـرى تمامًا. فاندهش «خالد» ونظر مجددًا، ولكنه لم يفهـم مـا تقـصده «أسيل» حتى نطقت:

- «خالد».. أنظر إلى سور زيكولا ذاته

فنظر الثلاثة إلى سور زيكولا الذي كان يبعد عنهم قرابة الثمانين مترًا.. حتى سألها «خالد»:

- أتقصدين ما أفكر به؟!!

فابتسمت «أسيل»:

- نعم.. ثم أكملت:

- أنظر إلى سور زيكولا في تلك المنطقة، وأنظر إلى مساره، وكيف تم تصميمه.. ثم تابعت، و«خالد» ينظر إلى السور يتأمّله:

-لم أنم بالأمس، وقرأت كتابك، وبدأت أفكّر بكل كلمة به، وحاولت أن أستخدم ذكائي الكثير كي أجد تلك الرأس.. ولكنني لم أصل إلى شيء حتى شاء القدر أن أداوي عجوزًا مريضة بعدما غادرتما اليوم.. وأخبرتني صدفة أن طبيعة تلك المنطقة الصخرية تحكمت في بناء سور زيكولا، كما أخبروها القدامى.. وهنا بدأت أفكر من جديد.. فقاطعها «إياد»

نعم.. إنني كنت سأخبركَ بأن أرض المنطقة الغربية على هيئة مثلث يحيط بها سور زيكولا، لولا أن قاطعتنا الطبيبة..

فأكملت «أسيل»

نعم يا «خالد».. إنها المنطقة الوحيدة في زيكولا التى شُيِّد بها سور زيكولا كضلعي مثلث.. بينهما زاوية منفرجة..

ثم صمتت، وأكلمت:

أنظر إلى تلك الزاوية يا «خالد» بين ضلعي السور الضخمين.. إن كنا نراها نحن زاوية من الداخل.. فهى -في التوقيت ذاته- الرأس من الخارج.. رأس المثلث فصاح «يامن» -بعد أن تركهم، واقترب من السور الضخم-:

- انظروا..

فاقترب الثلاثة منه فأشار إلى رسمة صغيرة منحوتة بجدار تلك الزاوية، وأكمل:

-توجد رسمة لشخص ما.. ولكني لا أعرف من هو فرد «خالد» في لهفة بعدما تذكّر شيئًا ما:

الرسمة.. أنا شفت الرسمة دي مرة قبل كدة.. الرسمة دى تشبه رسمة نفس الرجل الغني اللي كانت في السرداب، وكنت عاوز أصوّرها.. ومن بعدها حصل انهيار السرداب.

فتحدّث «يامن» مبتسمًا:

- هـذا دليـل أن مـا قالتـه «أسيل» صـحيح..فـدق قلـب «خالـد» بقـوة، وتحدّث بصوت هادئ:

نعم أعتقد أن «أسيل» على صواب.. وجود تلك الرسمة هنا يؤكّد ذلك.. لا بد أن صاحب الكتاب من نقشها، وأدرك أنـه لـن يعرفهـا إلا شخص عبر سرداب فوريك.. شخص سعى بكل ما لديه كي يصل إلى حل لُغزه، ويستحق الوصول إليه، ولكني لم أكن أتخيل أن الرأس يكون رأس مثلث ضلعيه سور زيكولا ذاته!.

ثم نظر إلى «أسيل»:

أنا بشكرك يا «أسيل» لأنك استخدمتي ذكاءك، وقدرتي توصلي لحل لغز كان صعب إني أحلّه لوحدي.

- فابتسمت «أسيل» ثم سألته:

- «خالد».. لماذا لا أراك سعيدًا بوجودنا الرأسَ الذي نبحث عنه..

فصمت «خالد» قليلًا ثم تحدّث:

- إن اللغز يقول إن الباب أمام الرأس مباشرة .. ثم أكمل:

- هذا يعنى أن باب السرداب خارج هذا السور

فصمتوا جميعًا، وكأنهم لم يفكروا في ذلك.. زالت فرحتهم حتى نطق «إياد»:

علينا أن نغادر تلك المنطقة الآن.. إن حراس سور زيكولا لا يحبون أن يتواجد أحد بالقرب من هذا السور.. وهم يمرّون بين الحين والآخر..

***

ابتعد الأربعة عن سور زيكولا، ووقفوا مجددًا على بعد قرابة الثمانين مترًا منه.. حتى نطق «يامن»:

إن كان باب ذلك السرداب خارج سور زيكولا فلماذا ذكر صاحب الكتاب أن من يريد أن يعود إلى بلده فليمر أولًا بزيكولا؟..

فردت «أسيل»:

حين قرأت الكتاب بالأمس، ذكر صاحبه أن سور زيكولا لم يكن قد اكتمل بناؤه حتى وقت قريب من كتابته لكتابه.. منذ قرنين.. ثم أشارت إلى سور زيكولا، وأكملت:

ربما كان هذا الجزء هو الجزء الأخير الذي تم بناؤه.. بعدما استغرق الكثير من الوقت، كما حكت لي العجوز عما تعرفه.. ثم نظرت إلى «خالد»:

هذا يعني أن صاحب الكتاب حين ذكر أنه عاد إلى وطنك ثم جاء إلى هنا مجددًا قد وصل إلى ذلك المخرج قبل اكتمال بناء السور.. ثم ذكر أنه لم يغادر بعدها:

ربما كان لحبه لزيكولا كما كتب ذلك.. أو لاكتمال بناء السور فزاد ذلك من اللغز تعقيدًا، ولكنه ترك تلك الرسمة دليلًا قويًا لمن يصل إلى هنا.. ثم صمتت فتحدث «خالد»، وقد ظهر اليأس على وجهه ده معناه إني لازم انتظر تاني يوم زيكولا.. وأخرج يوم فتح باب زيكولا، وأقدر أوصل لمخرج السرداب من خارج زيكولا..

فضحك «إياد»:

- هذا مستحيل يا صديق..

فرد «خالد» ،وقد تبدّل يأسه إلى توتر:

- لماذا؟

فرد «إياد»:

إن الأرض ممهدة داخل زيكولا، وهذا نتاج قرون طويلة من عمل أهلها.. ولكن خارجها، خارج هذا السور.. تختلف الطبيعة عن هنا كثيرًا.

إن زيكولا هي غرب عالمنا.. لا توجد بلاد أخرى في هذا الاتجاه الغربي.. أو على جانبيها الشمالي أو الجنوبي.. إن جميع البلدان توجد شرق زيكولا فقط..

لم نسمع يومًا عن أحد مر بجانبها على الإطلاق.. ويقولون إن الأرض بجوارها تختلف ما بين الجبال العالية، والكثبان الرملية، والرمال المتحرِّكة.. هذا يعني الهلاك لكل من يفكر فيما تفكر فيه..

- لم، ولن يمر أحد بجانبها.. ثم جلس بمكانه، وأكمل:

- لهذا لا تخشى زيكولا أي هجوم من البلاد الأخرى سوى اتجاه المنطقة الشرقية، والتي يحميها سور زيكولا القوي.. ثم صمت، وتابع مجددًا:

- وجود الرأس خلف هذا السور لا يعني سوى شيء واحد... أنه قد حكم عليك بالبقاء هنا طوال حياتك.. فظهر الغضب والحزن على وجه «خالد»، ونظر إلى «أسيل»:

- أخبرتك أنني حين أجد الرأس سأبحث عن شيء جديد.. كنت أعلم هذا.. إنها دائرة أدور بها.. ليس لها نهاية.. ثم جلس، ووضع رأسه بين يديه:

- لابد من وجود حل.. لابد.. ووضع «يامن» رأسه بين يديه هوالآخر، وحدّث نفسه:

- الباب أمام الرأس..

حتى «أسيل» ظلت تتحرك جيئة وذهابًا، وتحدّث نفسها:

- عليكِ أن تكملي تفكيرك يا «أسيل».. معرفتك للرأس ذاتها لم تكفِ، إنك من أذكى أذكياء زيكولا.. لابد وأن تجدي حلًّا..

- أما «إياد» فظل ينظر إلى السور، ويُقلّب نظره بين أركانه.. حتى نهض «خالد»، وأشار إلى السور:

-لابد أن أخرج.. لن أمكث هنا، وأعلم أن عودتي إلى وطني خلف هذا السور.. ثم نظر إليهم:

-إن الكتاب يقول: «انحت في الصخر..»

- هذا يعني شيئًا واحدًا..

فسألته «أسيل»:- ماذا؟

فأجابها:- أن أنحت في السور ذاته.. وأعبر إلى السرداب عن طريقه..

فضحك «يامن» و«إياد» كثيرًا.. وتحدّث «إياد» ساخرًا:

- تنحت في السور ذاته!!.. تريد أن تجعل مخرجك من زيكولا..

سور زيكولا ذاته..

فرد «خالد» في هدوء:

- نعم.. هل يوجد حل آخر؟

فأجابه «إياد»:- إنه ليس بالحل يا صديق.. إن فكرت في ذلك، فلن تنتظر يوم زيكولا حقًّا.. لأنك ستقتل على الفور.. ألا ترى هؤلاء؟!.. ثم أشار إلى مجموعة من الجنود يسيرون في صفين ويرتدون دروعًا، ويحملون سيوفًا بأيديهم..

-إنهم حماة سور زيكولا.. لا يفارقونه.. مهمتهم فقط أن يحموا هذا السور..

ثم أخذ نفسًا عميقًا، وأخرجه..

- هنا في زيكولا ربما تَقْتُل كي تعيش.. تَسرِق كي تأكل.. تفعل ما تشاء.. إلا شيئًا واحدًا.. فقاطعه «يامن»:

- أن تخدش سور زيكولا..

ثم أكمل «إياد»:

- ربما نقش صديقك صاحب كتابك تلك الرسمة وقتلوه.. فتحدّثت «أسيل»:

«خالد» إن سور زيكولا أهم رمز هنا.. حتى إن تركك الحراس تفعل ذلك.. فلن يتركك أهالي تلك المنطقة.. إنهم يؤمنون أن سور زيكولا من أسرار قوتها، ولن يسمحوا لأحد أن يقترب من قوّتهم.. ما تفكّر به محال يا «خالد».. محال.. فصمت «خالد» ثم صاح:

-إيه الحل؟.. هل ستمنعونني إن فعلت ذلك؟

فصمتوا جميعًا.. حتى ابتسمت «أسيل»:

- أنا لن أمنعك يا «خالد»..

ثم ابتسم «يامن»:

وأنا أيضا بالطبع لن أمنعك.. ولكن هؤلاء الحراس قد وُضعوا خصيصًا لحماية هذا السور.. ولا تستطيع حتى رشوتهم.. فصمت «خالد» ثم نظر إلى «أسيل»:

-كم ستبقين في تلك المنطقة؟

فأجابته:- لدي الكثير من العمل هنا.. ويكفيني أن أعمل هنا.. سأبقى حيثما أشاء.. وأنت؟

فأجابها:

- أنا لن أعود إلى المنطقة الشرقية مجددًا.. سأظل هنا حتى أخرج من زيكولا.. ثم نظر إلى «يامن» فابتسم:

وأنا أستطيع أن أجد عملًا هنا.. ويكفيني أن أظل بجوارك، وبجوار صديقي إياد.. حتى تحدّثت «أسيل» مجددًا:

يجب أن نعود إلى المسكن الآن حتى لا يرتاب هؤلاء الجنود بنا.. وهناك نستطيع التفكير بعد أن نتناول طعامنا..

فنطق «خالد»:- حسنًا

***

عاد «خالد» و«يامن» و«أسيل» إلى المسكن المخصص لهم، وصاحبهم «إياد».. ثم تناولوا طعامهم الذي أعده مضيفهم، حتى انتهوا منه فجلسوا ليفكروا من جديد، ونطق «خالد» يائسًا:

- وصولي للسرداب من خارج زيكولا مستحيل.. ووصولي له عبر سور زيكولا مستحيل.. ثم زفر زفرة قوية وصمت.. حتى ابتسمت «أسيل»:

-ستجد الحل يا «خالد».. لن يضيع تعبك هباءً.. وابتسم «يامن»:

- نعم يا «خالد».. ستجده.. لقد قطعت شوطًا كبيرًا.. لا بد وأن هناك حلًا.. ثم نظر إلى «إياد»:

- يا صديقي.. إنني أعلم منذ صغرنا كم أنت بارع في إيجاد الحلول.. فكّر معنا..

فأكمل «خالد» إليه:

- فكر معنا يا «إياد».. إن وجدت الحل سأعطيك من ذكائي ما استنفدته في تفكيرك..

فابتسم «إياد»:- حسنًا سأفكر.. ولن أتركك حتى أجد لك حلًا..

ثم صمتوا مجددًا، وكل واحد ينظر إلى الآخر.. لا يجد ما يقوله، و«أسيل» تنظر إلى «خالد».. تخشى أن تقول إنها لا تجد حلًا حتى لا يزداد اليأس بقلبه، و«يامن» يضرب برأسه، ويحدّثها:

-فكرّي..

حتى نهض «إياد»:

- عليّ أن أغادر الآن..

فسأله «يامن» مندهشًا:

- أين تذهب؟ !

فأجابه: - إن الشمس قد قاربت على الغروب الآن، سأترككم، وسأعود إليكم لاحقًا.. ثم نظر إلى «خالد»:

- أتمنى أن أعود فأجدك قد وصلت إلى بابك..

ثم غادر، وظل الثلاثة كما هم.. يفكرون، والوقت يمر.. و«خالد» يقلّب في كتابه مجددًا.. يود أن يجد شيئًا يصل به إلى سردابه، ولكن دون جدوى.. حتى حلّ الظلام، وأُنيرت المنطقة الغربية وبيوتها بالنيران.. فنظر «خالد» إلى «أسيل»:

-عليكِ أن تذهبي إلى حجرتك الآن.. لابد أن تنالي قسطًا من الراحة..

ثم نظر إلى «يامن»:

- وأنت أيضًا يا «يامن»، خذ قسطًا من الراحة.. لن يفيدنا إجهادنا اليوم.. لقد تعبنا بما يكفي.. سنستريح الآن، ونكمل تفكيرنا غدًا..

فسألته «أسيل»:

- وأنت ستنال راحة؟

فابتسم «خالد»:

-لا.. سأظل أفكر.. لن يغمض لي جفن ورأسي يفكر بذلك المخرج إنه مصيري يا «أسيل»..

فابتسمت:- حسنًا.. وأنا سأظل أفكّر معك..

فنظر إليها:- أنا لا أريد أن أزيد من تعبك اليوم.. أعلم أنك تريدين مساعدتي، ولكن لديكِ عملك غدًا، لا يجب أن تغفليه.. يجب أن تظلي طبيبة زيكولا الأولى..

فابتسمت «أسيل» وكادت تتجه إلى حجرتها.. حتى دخل «إياد» فسأله «يامن» على الفور:

- هل وجدت الحل؟!

فسألهم أن يجلسوا.. ثم نظر إلى «خالد»:

- حين خرجتُ من هنا، اتجهتُ إلى حيث كنا.. بالقرب من سور زيكولا.. ثم صمت، وأكمل:

- لم أجد لك إلا ثلاثة حلول..

فنظروا إليه متلهّفين.. فأكمل:

- الحل الأول: أن تظل في زيكولا طوال حياتك..

- والحل الثانى: أن تنتظر حتى يوم زيكولا وتخرج إلى مصيرك، وتحاول أن تصل إلى باب سردابك، وهذا يعنى هلاكك أيضًا..

فصاح به «يامن» غاضبًا:

- هل جئت لتهزأ بنا.. نحن نعرف ذلك..

فابتسم «إياد»:

- انتظر.. هناك حل آخر..

فسأله «خالد» متلهفًا:

- أيه هو؟!

فتحرك «إياد»، وجلس بجواره، وتحدّث بصوت هادئ:

- أن تعود إلى بلدك قريبًا.. ثم أكمل بعدما صمت برهة:

- ولكن بعد أن تفقد الكثير من ذكائك..

فسأله «خالد»:

- ماذا تعني؟!

فابتسم «إياد» وقال:

- حسنًا.. تعالَوا معي..

***

بعدها خرج الأربعة مجددًا من دار ضيافة الطبيبة ومساعدَيْها.. يقودهم «إياد».. حتى وصلوا إلى حيث وقفوا منذ ساعات قليلة أمام سور زيكولا، والذي قد لمع مع انعكاسات إضاءة النيران القريبة منه، وجعلت من ضلعيه وزاويته منظرًا بديعًا.. كان لينال إعجاب «خالد» لولا انشغاله بمصير خروجه.. ثم نظر «يامن» إلى «إياد»، وسأله:

- كيف يخرج «خالد» من زيكولا؟!

فأجابه «إياد»:

- انظروا هناك..

ثم أشار إلى بيت من طابقين يبتعد قليلًا عن بيوت المنطقة الغربية، ويقترب من سور زيكولا.. لا يفصله عنه سوى مائة من الأمتار ثم أشار إلى الجنود المتواجدين أمام السور، وسألهم أن ينظروا إليهم أيضًا.. فاندهشت «أسيل»:

- أنا لا أفهم شيئًا..

وتبعها «يامن»:

- وأنا أيضًا..

و«خالد» مازال صامتًا حتى أكمل «أياد»:

حين تركتكم جئت إلى هنا.. ووقفت كما نحن واقفون الآن.. ولم أضع أمامي سوى أن يخرج «خالد» إلى باب سردابه خارج هذا السور.. مهما كانتِ التحديات.. حتى أصابني العطش فذهبت إلى ذلك البيت..

ثم أشار إلى البيت مجددًا، وأكمل:

- كي أشتري منه كوبًا من الماء

وهناك فوجئت بأن ذلك البيت لا يسكن به أصحابه الآن.. يعيش به خادمه بمفرده.. أما أصحابه فهم من التجار الذين يبيعون بضائعهم إلى المدن الأخرى غير زيكولا، وخرجوا يوم زيكولا السابق، ولن يعودوا إلا يوم فتح باب زيكولا مع يوم زيكولا..

فقاطعه «خالد»:

- أنا لا أفهم شيئًا.. ماذا يعنينا كل هذا؟ !!

- فأجابه:

انتظر.. أنا أعمل في تلك المنطقة منذ سنوات عديدة، وأعلم جيدًا خفايا تلك المنطقة وأرضها.. سأخبركم سرًا نعلمه - نحن من نعمل بتكسير الصخور هنا-:

إن العمل هنا في تكسير الصخور ليس بصعوبة العمل في المنطقة الشرقية.. إن الصعوبة هنا تكمن في الطبقة الخارجية من الأرض فقط.. أما إن تجاوزت تلك الطبقة يكون الحفر بها، وتكسير صخورها ليس صعبًا على الإطلاق فلمعت عينا «خالد»:

- تقصد؟!

فأكمل «إياد»:

نعم يا صديقي.. إنّ هذا البيت أقرب مكان إلى زاوية سور زيكولا.. وإن كانت زاوية هذا السور، أو رأسه كما تحب أن تسميها.. هي التقاء ضلعي سور زيكولا.. بالطبع ستكون أضعف نقاط الجزء العميق منه ثم ابتسم، وأكمل:

وإن كان سيمنعك حماته من الاقتراب منه.. فأنا أعرف من يستطيعون أن يحفروا لك نفقًا ببراعة.. من ذلك البيت إلى أسفل ذلك

السور.. حتى تخرج إلى سردابك دون أن يشعر حماته أو أهل منطقتنا بشيء.. ثم ضحك:-

أعلم أنني هكذا خائن لزيكولا.. ولكنك صديق صديقي الحميم..

فصاحت «أسيل»:

- إن هذا جنون..

وصاح «يامن»:

- نعم.. إنك مجنون يا «إياد»..

فأشار إليهم، ورفع كتفيه:

- هل هناك من حل آخر؟! ثم نظر إلى «خالد»:

لن تأتيك تلك الفرصة مجددًا.. إن عاد أصحاب هذا البيت فلن تستطيع دخوله على الإطلاق.. أما ذلك الخادم حين استدرجته في الحديث أخبرني أنه قد يعطي البيت لمن يعطيه مائتي وحدة حتى يوم زيكولا حين يعود سيده ومن معه..

فصاح «يامن» مجددًا:

- مائتي وحدة؟!!

ثم سأله «خالد»، وقد تجاهل صيحة «يامن»:

- ومن يحفرون النفق؟

فابتسم «إياد»: - أعلم ثلاثة من العمال الماهرين.. قابلتهم من قبل، إنهم بارعون في تلك الأعمال.. إنه عمل يحتاج إلى براعة، وقد يتجاوز معهم حفر هذا السرداب عشرين يومًا.. هذا لأنهم سيعملون نهارًا فقط حتى لا يسمع ضجيجهم أحد مع ضجيج السوق.. ولكن عليك ألا تنسى أنهم سيأخذون أجرًا إضافيًّا مقابل صمتهم.. ثم صمت، وأكمل:

- قد يأخذون ثلاثمائة وحدة..

فقاطعه «خالد»:

أنا ممكن أحفر معهم، وأوّفر أجر عامل، وكذلك «يامن»:

فابتسم:

كما أخبرتك.. إن حفر النفق يحتاج إلى براعة نفتقدها.. وأعتقد أنهم لن يريدوا مساعدتك لهم.. لن يوّدوا أن يشاركهم أحد أجرهم.. إنهم سيأخذون الثلاثمائة وحدة.. سواء عملت معهم أو لا، حتى تحدّثت «أسيل»، ونظرت إلى «خالد»..

«خالد» هل جننت؟!!.. مائتي وحدة، وثلاثمائة وحدة؟!.. تفقد خمسمائة وحدة من ذكائك؟!!

فصمت «خالد»، ولم يجبها.. حتى نطق «إياد»:

-لم أجد إلا ذلك الحل أيتها الطبيبة.. ثم ابتسم:

- يمكنكِ الآن أن تعرفي كم استنزفت من ذكائي اليوم.. عليكِ أن تخبري به صديقك كي يعوّضه لي..

فحدّثه «خالد» مبتسمًا:

حسنًا يا «إياد».. سأعطيك ما تريد كما وعدتك.. ثم نظر إلى «أسيل» مجددًا، وسألها في هدوء:

-«أسيل».. أريدك أن تخبريني، كم أمتلك من وحدات الذكاء الآن..

***

(١٦)

صمتت «أسيل» قليلًا بعدما طلب «خالد» منها أن تحدد له نسبة مخزونه من الذكاء، ثم نظرت إليه، وتأمّلته كثيرًا، ثم أمسكت برأسه، وأمسكت ثنية من جلده بين أصبعيها:

«خالد».. إن مخزونك الآن لا يتعدى ستمائة وخمسين وحدة.. وقد يكون ستمائة فقط بعد استنزافك الكثير من الوحدات في تفكيرك..

فصمت ثم سألها مجددًا

-وكم يتبقى لامرأة الحاكم حتى تضع مولودها؟

فأجابته:

-أعتقد أنه يتبقى شهران وعشرون يومًا أكثر أو أقل بأيام..

بعدها نظر إلى «إياد»:

- هل سيستغرق حفر هذا النفق عشرين يومًا فقط؟

فابتسم «إياد»:- أعتقد ذلك.. وإن شئتَ أحضرتُ هؤلاء العمال من الغد..

فصمت «خالد»، وقد طال صمته تلك المرة ثم نظر إليهم:

- أريدكم أن تتركوني وحدي الآن..

فابتسمت «أسيل»:

- «خالد».. أريد أن أبقى معك..

فوضع وجهها بين كفيه برقة:

أريد أن أكون وحدي يا «أسيل».. عليكِ أن تعودي إلى المسكن مع «يامن» الآن.. أريد أن أتخذ قراري بمفردي.. ثم نظر إلى «يامن»:

اصطحب «أسيل» إلى المسكن.. وأنا سأتبعكما لاحقًا..

ثم نظر إلى «إياد»، وشكره على تفكيره في إيجاد الحل له.. ثم غادروا جميعًا..

***

غادر «إياد» ومع «يامن» و «أسيل» التي ظلت تتلفت وهي تسير مبتعدة عن «خالد»، وتنظر إليه حيث يجلس وكأنها لم تُرِد أن تفارقه حتى اختفى عن نظرها.. بينما جلس هو على صخرة عريضة أمام ذلك السور.. ينظر إليه ويفكّر فيما أخبره به «إياد»، ويتحدث إلى نفسه.. إما البقاء في زيكولا، أوالعودة إلى بلده..وهو غبي.. ويسأل نفسه:

هل يجد ذلك السرداب حقًا إن عبر هذا السور أم أنه سراب سيظل يطارده.. ثم يبتسم، ويتحدث إلى نفسه، وكأنها شخص أمامه يحدّثه ويقنعه:

أنت شايف إن فيه حل تاني؟.. زي ما قلت قبل كدة مبقاش فاضل غير المجازفة.. ثم ضحك وأكمل مناقشته لذاته:

- قررت أيه يا «خالد»؟.. ترجع بلدك ومعاك ميت وحدة ذكاء بس.. ولاّ تبقى هنا طول حياتك؟

- لو وافقت على اللي قاله «إياد» لازم تحس بلذة اللحظات دي.. لأنها ممكن تكون آخر لحظات ذكاء تعيشها..

ثم عاد بجسده للخلف.. وأسند ذراعيه خلفه، وتذكّر جده حين كان يبتسم، ويداعبه صغيرًا.. ويخبره بأنه ذكي.. حتى كبر، وعاد إليه يومًا بعدما لم يجد وظيفة بشهادته.. وأخبره أنه لا فائدة لذكائه في بلده.. ماذا يفعل به، لاشيء.. يبتسم، ويتحدث إلى نفسه بصوتٍ مسموع :

مش هتفرق كتير لما أرجع لبلدي.. الذكي مبيختلفش عن الغبي كتير.. يشعر كم اشتاق إلى جده، وإلى رؤيته، ويعلم أنه لم يشغله عن

التفكير فيه سوى سعيه للعودة إليه من جديد.. وينظر إلى السور، ويحدثه بصوت هامس:

- أنت الحاجز الوحيد بيني وبين اللي بحبهم، ثم نظر إلى البيت الذي يسكنه الخادم..

-وأنت الحل الوحيد اللي هيخليني أشوف اللي بحبهم.. ثم أمسك برأسه ومرر شعره بين أصابعه ، وتحدّث:

- أصعب قرار بحياتي.. أصعب قرار.. هتقرر أيه يا «خالد»؟ . هتقرر أيه؟

وظل هكذا لا يتوقّف عقله عن التفكير..حتى اقترب الليل من الزوال، وبدأ خيط النهار يظهر.. فنهض واتجه إلى المسكن الذي يسكن به «يامن» و«أسيل».. وما إن وصله حتى دلف إلى غرفة «يامن» فوجده نائمًا، فهمس إليه:

«يامن».. «يامن» ..

فلم يستيقظ فنكزه بيده حتى فتح عينيه.. وكاد يتحدث فأشار إليه «خالد» أن يصمت ، وتحدّث بصوت منخفض:

«أسيل» في الغرفة المجاورة.. ولا أريدها أن تصحو.. إن كانت نامت من الأساس..

فنهض «يامن»، وجلس على سريره فاتحًا عينيه بصعوبة.. حتى أكمل «خالد» بصوته المنخفض:

-أريد أن أتحدث إليك..

«يامن»:- حسنًا..

فأكمل «خالد»:- لقد اتخذت قراري..

فنظر إليه «يامن».. ينتظره أن يكمل حديثه سريعًا.. حتى أكمل:

- أرى أن «إياد» على حق.. سأعبر سور زيكولا من خلال النفق..

فقاطعه «يامن»:

- «خالد».. وذكاؤك؟

فأجابه:

لقد فكرت كثيرًا في ذلك.. لقد أخبرنا إياد أن حفر ذلك النفق سيستغرق عشرين يومًا.. وسيعطينا ذلك الخادم البيت حتى يوم زيكولا، حتى يعود أصحابه إن عادوا..

- فقاطعه «يامن»:

نعم سيعودون.. هكذا تجار زيكولا، سيطير خبر يوم زيكولا قبله بأيـام.. فيـستعد كـل مـن يريـد العـودة، حتـى يُفـتَح بـاب زيكـولا فيدخلونها..

- فواصل «خالد» حديثه:

هذا ما أقصده... يتبقى على يوم زيكولا شهران وعشرون يومًا.. سيُحفَر ذلك النفق، ولكني لن أغادره حتى يوم زيكـولا.. إنهـم ثمانـون يومًا.. إن عملت هنا مقابل ست وحدات باليوم، سأوفر حتى يـوم زيكولا ربما ربعمائة وثمانين وحدة.. مع ما تبقى لدي من المائة وحدة.. سيكون لدي ما يقرب من ستمائة وحدة.. أي أنني لـن أختلف كثيرًا حين أخرج من النفق.. وستنفعني كثيرًا تلك الوحدات حين أصل إلى سرداب فوريك.. فابتسم «يامن»: إنَّه قرار حياتك يا صديقي.. ولا دخل لي به..

ثم أكمل:

إنك ذكي حقًا يا «خالد»، وكم أنا مسرور بذلك.. فأنت ستبقى معنا شهرين آخرين.. خشيت أن ترحل بعد عشرين يومًا فقط..

فابتسم «خالد»:

هذا إن وضعت زوجة الحاكم ذكرًا.. ربما تطول المدة إن وضعت أنثى وانتظرنا يوم زيكولا في موعده الأساسي بعد خمسة شهور.. فابتسم «يامن»:

- الآن أتمنى أن تضع أنثى..

فابتسم «خالد» ثم زالت ابتسامته:

أردت أن أحدّثك بعيدًا عن «أسيل» لأنني لا أريد أن أسبب لها الكثير من التعب.. وأخشى أن يؤثّر ذلك على عملها كطبيبة زيكولا الأولى.. اليوم سأفقد ذكائي.. سأصبح في عداد أغبياء زيكولا وفقرائهم.. لن أستطيع التفكير.. وإن فكّرت ربما ستكون قراراتي غبيّة ثم نظر إليه، وأمسك بذراعيه:

- «يامن».. من اليوم أنت من ستتخذ أي قرار يخصُّني..

فسأله «يامن» مندهشًا:

- أنا؟!!

فأجابه «خالد»:

نعم.. أخشى أن يكون تفكيري بغباء يسبب الكثير من المتاعب.. ولهذا سأحمّلك مسئوليتي بعد اليوم.. سأطيعك مهما كان قرارك.. بالطبع ستكون أذكى منّي.. فصمت «يامن»، وفرك شعره..

- إنها حقًا مسؤولية كبرى..

فأكمل «خالد»:

ما عليك سوى أن تجعلني أعمل.. حتى أسترجع ذكائي.. فإن فعلت ذلك فلن أنساه طوال عمري ثم هدأ صوته، واقترب منه..

- أريد أن أخبرك بشيء آخر..

«يامن».. إنني أحب «أسيل».. وأخشى أن أكون غبيًا فتبتعد عني.. سأطيعك فيما تراه أن أفعله تجاهها أيضًا..فرد «يامن»:

- أرى أنها تحبك أيضًا، وتحبك كثيرًا..

- فابتسم «خالد»:

أعلم ذلك.. ولهذا فكّرت أن آخذها معي إلى أرضي.. لقد فكرت كثيرًا في ذلك.. ولكنني أتردد أن أخبرها بحبي لها، وقررت أن أخبرها بذلك حين أجد الطريق ممهدًا لعودتي إلى بلدي.. سأتركك وقتها تخبرني ماذا أفعل..

فابتسم «يامن»:

- أتمنى لكما السعادة يا صديقي..

فابتسم «خالد»:

حسنًا لننهض.. علينا أن نذهب إلى «إياد».. وأعتقد أن «أسيل» قد استيقظت.. لا تخبرها بشيء مما قلناه.. فابتسم «يامن»، وقد نهض:

- حسنًا..

***

استيقظت «أسيل» فوجدت «خالد» و«يامن» في انتظارها، فسألت «خالد» على الفور:

- هل اتخذت قرارك؟

- فابتسم «خالد»:

نعم.. لقد قررت أن أجازف، وأفعل ما أخبرنا به «إياد».. فصمتت «أسيل» حتى أكمل:

وسأنتظر حتى يوم زيكولا حيثما كان.. بعد ثمانين يومًا أو بعد خمسة أشهر.. وسأعمل كي أسترجع جزءًا كبيرًا من ذكائي حتى عودتي..فسألته، وقد بدا الحزن على وجهها:

- ألم تجد حلًّا آخر؟.. فهزّ «خالد» رأسه نافيًا.. فسألته مجددًا:

ولماذا لا تنتظر حتى تعمل أولًا فيزيد مخزونك.. ثم تحفر نفقك قبلها بأيام، وتحافظ على ذكائك.. كما فعلت حين اشتريت كتابك؟..فابتسم «خالد» ابتسامة حزينة:

فكرت في ذلك.. ولكنني أصبحت أعلم جيدًا طبيعة أهل زيكولا، ومدى انتهازهم.. كلما اقتربنا من ذلك اليوم.. سيطلب من يحفرون النفق الكثير من الأجر.. ربما يطلبون ضعف الثلاثمائة وحدة أو ضعفين.. ثم نظر إليها، وابتسم:

- سأكون بخير يا «أسيل».. سأكون بخير.. أريدك فقط أن تكوني معي

فابتسمت «أسيل» حتى تحدّث «يامن»:

-هيا.. علينا أن نجد «إياد»..

ولم يكد يكمل جملته حتى وجدوا «إياد» يدخل عليهم فابتسم «يامن»:

- كنا في طريقنا إليك..

فضحك «إياد»:

- أعلم ذلك.. ولذا أردت أن أوّفر القليل من الوقت.. ثم نظر إلى «خالد»

-هل اتخذت قرارك؟

- فرد «خالد»:

-نعم.. وسأترك لك المسؤولية لمتابعة ذلك النفق، وسأعطيك مقابلًا.. ولكنه ليس كبيرًا، وليس الآن..

- فابتسم «إياد»:

-لا بأس.. ثم أكمل:

كنت أعلم أنك ستقرر ذلك.. ثم تحرّك خطوات إلى الخارج، وعاد ومعه فتى ملابسه بالية، ثم أشار إلى «خالد»، وحدّث الفتى:

- إنه من يريد أن يستأجر بيت سيدك..

فتحدث الفتى:

حسنًا، ولكن سأكررها.. إلى يوم زيكولا فقط.. بل اليوم السابق له حتى يوم يفتح باب زيكولا.. إن عاد سيدي فلن يتركـكم لحظة واحدة ببيته.. وربما يقتلني إن علم أنني من أدخلتكم بيته..

فأومأ «خالد» إليه برأسه موافقًا دون أن يتحدث ثم نظر إلى «إياد»:

-ومتي يأتي عمالك؟

فهمس إليه «إياد»:

- سيأتون بعد قليل.. لا تخبرِ الفتى بما سنفعله أسفل بيت سيده..

ربما يضيع كل شيء إن علم بذلك.. سيأتون بعد أن يرحل.. بعدها نظر

-«خالد» إلى الفتى:

-حسنًا.. أستأجر منك البيت حتى يوم فتح باب زيكولا مقابل مائتي وحدة ..

فابتسم الفتى وأخرج مفتاحًا حديديًا كبيرًا:

- وهذا مفتاح بيت سيدي..

وما إن أخذه «خالد» حتى شعر بألم شديد برأسه.. فنظرت إليه «أسيل» في لهفة، واقتربت منه، بعدما أمسك برأسه:

تماسك.. أرجوك تماسك.. أعلم أن اليوم شاقٌّ عليك ..فلم يرد، وظل ممسكًا برأسه، وبدأ شحوب جلده يزداد.. حتى سألته مجددًا:

«خالد».. هل أنت بخير؟

فأجابها «خالد» بصوت منخفض:

- نعم..

ولم يترك رأسه حتى مر قليل من الوقت.. وقد خرج «إياد» وعاد مجددًا، وتحدّث إليه:

لقد أتى زعيم العمال الذين سيحفرون ذلك النفق.. ولكنه يريد أن يأخذ الثلاثمائة وحدة دفعة واحدة.. هل ستعطيهم أجرهم دفعة واحدة كما طلبوا؟

- فنطقت «أسيل» على الفور:

-لا.. لن يدفع لهم ثلاثمائة وحدة الآن..

فأمسك «خالد» بيدها.. ثم تحدث إلى «إياد»:

- هل يأخذون أجرهم دائمًا هكذا؟

فرد «إياد»:- نعم.. وهذا ما سيجعلهم يكتمون أمر ذلك النفق.. الذي قد يودي بحياتنا جميعًا..

فنطق «خالد» في صوت هادئ:

- حسنًا.. سأعطيهم ما يريدون..

فصرخت إليه «أسيل»:

- «خالد».. إن هذا قد يودي بحياتك..

فابتسم إليها «خالد»:- إنني قوي.. سأدفع لهم مايريدون، سواء الآن أو بعد ذلك.. ولا أريد أن يخبروا أحدًا.. فتحدث «إياد»:

حسنًا.. سأدخله إليك الآن، ثم أذهب معهم إلى ذلك البيت لأنهم سيبدأون عملهم من اليوم.. وأنت ستواصل عملك.. وستجد

نفقك كاملًا بعد عشرين يومًا.. وقد أكّدوا لي ذلك أيضًا.. وبعد أن تغادره -متى تشاء- سأجعلهم يملأون جزءه القريب من البيت بالصخور مجددًا.. وأتمنى ألا يثير ريبة صاحبه حين يعود إليه.. حتى إن حدث ذلك فلا يهمنا سوى أن تغادر وحسب.. فحدّثه «خالد»:

- حسنًا.. أدخله..

فخرج «إياد».. وعاد مجددًا، ومعه رجل ضخم شعره مجعد، وشاربه كثيف، وشفتاه غليظتان، وبيده آلة حفر يدوية سنُّها حديدي مدبب، وتخرج منه عصا خشبية سميكة.. ثم نطق بصوته الغليظ

- إننا نريد ثلاثمائة وحدة الآن..

فتحدث إليه «خالد»:

- لا أريد أن يعلم أحد بذلك أبدًا..

فردّ الرجل، وقد تقوست حاجباه:

- حسنًا، كما تريد.. إننا نعلم كيف نصون السر جيدًا..

فابتسم «خالد»:- حسنًا، لك ما تريد..

فابتسم الرجل، وهمّ ليغادر قائلًا:

- سنبدأ العمل اليوم.. وسترى كم نحن بارعون..

ثم غادر، ومعه «إياد» الذي أخذ المفتاح الحديدي معه.. أما «خالد» فأمسك رأسه من جديد، وتزايدت ضربات قلبه، وتسارعت

أنفاسه، وزاد شحوبه للغاية، وشحبت شفتاه، واحمرّت عيناه، ونهض من مكانه، وسار مترنّحًا بين أرجاء المكان، ونظر إلى «يامن» و«أسيل» في ذهول، وترنح مجددًا، وأمسك برقبته كأنه يختنق، وقد برزت عيناه، و«أسيل» تناديه وقد تساقطت دموعها:

«خالد».. عليك أن تصمد.. لم يفعل أحد من قبل مثلما فعلت.

«خالد».. ستصمد.. إنك قوي.. أعلم أنك ستصمد.. ستصمد..

ثم أمسكه «يامن»:

«خالد».. ستعود إلى بلدك.. ستعود قويًا كما كنت.. ستسترجع ثروتك..

و«خالد» ما زال يتحرك، ويهذي، ولا يحس بشيء من حوله، وينظر إلى ذراعه التي أصبحت صفراء شاحبة، وإلى كفيه اللتين ارتعشتا قليلًا.. ثم أراد أن يتجه نحو الباب، وما إن تحرّك خطوات نحوه حتى سقط على الأرض، وظل جسده ينتفض، وقد ضمت «أسيل» رأسه إلى صدرها، ورجلاه تنتفضان بقوة، حتى هدأتا رويدًا رويدًا، وأغمض عينيه.. فنظرت «أسيل» باكية إلى «يامن»:

كنت أعلم أن ذلك سيصيبه.. ولكني لم أعلم أنني لن أستطيع أن أراه هكذا.. وزادت دموعها، ومررت يدها فوق شعره، وأكملت:

إن اليوم سيكون أصعب أيامه في زيكولا.. إن مخزونه الآن لا يزيد عـن مائـة وحـدة.. عليـه أن يأخـذ قـسطًا كبـيرًا مـن الراحـة اليـوم.. فرد «يامن» :

حسنًا.. سأتركه ينام حتى الغد، وأنا سأذهب كي أرى عملنا الجديد.. لابد وأن نعمل من الغد.. لقد أصبح هدفي الآن أن يستعيد «خالد» ذكاءه قبل أن يغادر زيكولا.. وسأتابع مع «إياد» أيضًا حفر ذلـك النفـق.. فابتـسمت «أسـيل»، ومازالـت دموعهـا عـلى خـدّيها

- حسنًا.. عليك أن تحمله إلى سريره الآن.. وأنا سأظل بجواره حتى تعود..

***

غادر «يامن» بيت ضيافة الطبيبة بعدما حمل «خالد» إلى سريره.. وترك بجواره «أسيل» التي ظلت تنظر إليه، وتحاول أن تتمالك نفسها من البكاء مجددًا، وتسكب القليل من الماء البارد على يدها ثم تمررها على وجهه وعلى لحيته الناعمة، ثم على شعره الناعم.. و«خالد» مُغلَقةٌ عيناه، ويهذي بكلمات غير مفهومة، و«أسيل» تنظر إليه، وتتذكر حين اصطدم حصان عربتها به ورأته لأول مرة.. ثم تتذكر حين قرأت

كلماته التي كتبها عنها، وأنها حورية زيكولا، وتمسح مجددًا وجهه بالماء، وابتسمت حين تذكّرت حديثه إليها حين رأى نجمًا لامعًا فريدًا، وأخبرها بأنه قد سمّاه «أسيل».. تشعر بأنها تراه أمامها كما رأته حين وقف أمام عمال المنطقة الشرقية كقائدهم، وجعلهم -بكلمات منه- يتخلّون عن خوفهم، ويتّحدُون ضد آخذي وحدات الحماية.. وبدأت تتحدث إليه بصوت هادئ:

- ستكون على مايرام يا «خالد».. ستكون بخير

ثم نهضت لتحضر المزيد من الماء، فوجدته يهذي، ويعلو صوته: جدي.. «منى».. «منى».. جدي

فتوقفت قدماها حين سمعته.. ثم أكملت طريقها لتحضر الماء.. حتى عاد «يامن»، وظلَّا بجواره ساعات طويلة دون أن يغفو لهما جفن.. حتى مرّ ذلك اليوم..

في صباح اليوم التالي، فتح «خالد» عينيه فوجد «أسيل» و«يامن» بجواره فضحك، فسألهم:

- لماذا تجلسون هكذا؟!

فابستم «يامن»، وابتسمت «أسيل»، وردّت:

- لقد أصابنا القلق فحسب..

فصمت «خالد»، ولم يتحدث بعدما نظر إلى ذراعه ثم نظر إلى «يامن»، وحدّثه بصوت هادئ:

- هل بدأوا العمل؟

فأجابه:

- نعم.. لقد بدأوا بالأمس..

فسأله مجددًا:

- ونحن لماذا لانعمل معهم؟!!

فابتسم «يامن»:

- لدينا عملنا..

فصاح به في غضب:

- ولماذا نجلس هنا؟ !

فابتسمت «أسيل»، ونظرت إلى «يامن»:

- نعم.. لماذا تجلسان؟.. هيا انهضا إلى عملكما؟

فنظر «خالد» إلى «أسيل» مندهشًا:

- ألن نساعدك؟

فابتسمت:

كنت أتمنى ذلك.. ولكن مرضى تلك المنطقة أغلبهم من النساء.. لقد وجد «يامن» لك عملًا ستوفر منه ست وحدات باليوم

فركل «يامن» بقدمه:

- حسنًا.. هيا بنا إلى العمل..

فضحك «يامن»:

-حسنًا يا صديقي.. انتظر حتى أغسل وجهي بالماء.. أراك أصبحت متسرِّعًا قليلًا..

***

اتجه «خالد» مع «يامن» إلى عملهما الجديد في المنطقة الغربية.. و«خالد» يسير واجمًا، وقد بطأت حركته وكلما سار بمكان ما؛ تلفّت حوله كثيرًا، وظل يسأل «يامن» الكثير من الأسئلة والتي أجابها له «يامن» من قبل، و«يامن» يبتسم، ويجيبه مجددًا.. حتى وصلا إلى عملهما الجديد.

- فتحدث إليه «يامن»:

- هنا سنكسر الصخور مثلما كنا نكسرها في المنطقة الشرقية.. أتتذكر؟

فرد «خالد»:

- نعم.. أتذكر

فأكمل «يامن»

حسنًا.. أعلم أن كفاءتك ستكون أقل.. ولكن ما عليك سوى أن تقلّدني في عملي.. إنه عمل لا يحتاج إلى ذكاء.. وحين ننتهي من عملنا سننال أجرنا.. ثم نذهب إلى «إياد» لنرى نفقك يا صديقي..

بدأ «خالد» يعمل مع «يامن».. وكانت كفاءته أقل كما أخبره.. وكلما اشتد بعمله زاد تعبه، وإنهاكه، وأراد أن يستريح.. فيحدّثه «يامن» بأن يعمل مجددًا، ويحمّسه:

هيا يا «خالد».. هيا.. إنك بحاجة إلى كل وحدة.. فيعمل مجددًا، ويحاول أن ينافس «يامن»، ولكنه لا يستطيع.. فيُهدِّأ «يامن» من عمله، ويكسر مثله ببطء.. ثم يوحي إليه بأنه من تفوق في تلك المنافسة.. حتى انتهيا من عملهما، وأخذا أجرهما، واتجها إلى ذلك البيت الذي استأجره.. فوجدا «إياد» هناك بمفرده، وعمال الحفر قد انصرفوا، فسأله:

«خالد» في غضب:

- أين العمال؟

فأجابه «إياد»:

إنهم قد انصرفوا.. لن يستطيعوا أن يعملوا مع هدوء الليل.. إنَّ ضجيج النهار يستر خلفه ضجيج الحفر..

- فصاح به «خالد» غاضبًا:

-إننا نريد أن نسرع..

فأشار «يامن» إلى «إياد» بأن يُهدِّأ من حديثه.. وأن «خالد» ليس كطبيعته، ثم أمسك بيده، وتحرّك بهما إلى إحدى غرف الطابق السفلي بالبيت:

انظرا.. لقد تخلصوا اليوم من أرضية تلك الغرفة، ومعها الطبقة الصخرية الصلبة.. إنها أصعب ما في الأمر.. بعد ذلك أعتقد أن الحفر سيكون سهلًا.. وسينتهي في موعده بعد عشرين يومًا.. ثم نظر إلى «خالد»:

اطمئنَّ.. سأجعلهم يعملون ليلًا أيضًا، ولكن مع اقترابهم من نهاية النفق.. ثم ضحك:

من سيزيل تلك الصخور والرمال التي سيخرجونها من النفق، غيرهم؟!

-فهدأ «خالد»، وهمّ للمغادرة:

- افعلوا ما تشاؤون.. ثم نظر إلى «يامن»:

- «يامن».. أريد أن أعود إلى المسكن..

- فابتسم إليه «يامن» في هدوء:

- حسنًا يا «خالد».. سنعود.. ثم نظر إلى «إياد»:

- «إياد».. إن مصير «خالد» مصيري.. لن أوصيك..

- فضحك «إياد»:- لا أنسى أنني سأنال أجرًا لمتابعة هؤلاء العمال..

***

توالتِ الأيام يومًا تلوالآخر، و«خالد» يعمل مع «يامن»، ويترك كل ما يريد أن يأخذ قرارًا بشأنه إليه ولا يناقشه بشيء.. ما يريده فقط أن يعمل، وينال أجره.. ثم يتجها إلى «إياد» ومن معه من عُمال، وتأتي إليهم «أسيل» حين تنتهي من عملها، و«خالد» ينظر إلى ما يفعلونه من بعيد.. ولا يتدخّل بعملهم مطلقًا.. وقد تعمّقوا بالأرض.. مسافة عمودية قد تصل إلى مترين، ووضعوا بها سُلّمًا خشبيًّا صغيرًا.. ومنها

بدأوا يحفرون نفقًا أفقيًا.. وقد اندهشت «أسيل» حين نزلت تلك الحفرة، ونظرت إلى النفق الأفقي.. وتعجّبت من تلك البراعة التي يحفرون بها.. وكلّما حفروا مسافة معينة دعّموها بالأخشاب حتى لا ينهار ما فعلوه.. وتنظر إلى «خالد» ضاحكة:

لقد بدأ العمل بحق يا «خالد».. ستحقق أملك قريبًا.. ثم نظرت إلى «إياد»، وطلبت أن تتحدث إليه بعيدًا عن «خالد» ثم سألته:

-هل سيستطيع أن يسير بذلك النفق..

-فضحك «إياد»..

بالطبع لا.. إن ارتفاع النفق ليس كبيرًا.. لا يتجاوز مترًا.. عليه أن يزحف به..أو يتحرّك على ركبتيه.. إنها ليست مسافة كبيرة..فصمتت «أسيل» ثم سألته مجددًا:

- حسنًا.. وماذا عن تهويته.. أخشى أن يختنق داخله، فابتسم «إياد»:

أرى أنك تخشين عليه كثيرًا.. لا أرى أنها مشكلة على الإطلاق.. إن النفق سيكون مفتوحًا من الجانبين..وهذا بالطبع سيمرر الهواء.. أعلم أن النفق لا يصلح للسير به..ولكن في الوقت ذاته لن يكون ضيقًا للغاية حتى يسبب اختناق «خالد».. فردت «أسيل»:

-أتمنى ذلك..

واستمرت الساعات في مرورها.. ومرتِ الأيام معها.. و«خالد» يواصل عمله.. والعمال يحفرون نفقه.. ويسرعون في عملهم دون أن يدرى أحد بما يحدث تحت الأرض الخالية بين سور زيكولا والبيت القريب منه.. يحفرون نهارًا، ويتخلصون من صخور الحفر ليلًا.. و«يامن» يزداد الأمل أمامه، وكلما نزل ذلك النفق، وزحف على ركبتيه أمتارًا به، ومعه شعلة من النار يضحك، ويتحدث إلى «خالد» الذي ينتظره عند فتحه ذلك النفق.. ويعلو صوته إليه:

انظر يا «خالد».. لم يعد سوى مسافة قليلة إلى سور زيكولا.. انظر يا «خالد».. ستخرج من زيكولا كما تريد.. و«خالد» يستمع إليه، ويبتسم ، ويتحدث إلى نفسه:

- سأخرج يا «يامن».. سأخرج..

وتمر الأيام أكثر وأكثر، و«أسيل» تنهي عملها كل يوم لتذهب إلى ذلك النفق.. فتجد «خالد» و«يامن» هناك فتجلس بجوارهما، ويداعبان «خالد» ولا يتركانه حتى يعود معهما إلى ذلك المسكن.. دار الطبيب.. بعدما رفض أن يسكن بالطابق العلوي بالبيت ذاته.. وقد وافقاه فيما أراد..

حتى جاء اليوم الثامن عشر من بداية الحفر، وكان «خالد» يجلس مع «يامن» بمفردهما، فنظر إليه:

-«يامن».. لقد أخبرتك من قبل أنني أحب «أسيل».. فرد «يامن» مبتسمًا:

- نعم..

فأكمل «خالد»:

لم يعد يتبقى على إتمام ذلك النفق ومروره أسفل سور زيكولا سوى القليل.. وأنا أود أن أخبر «أسيل» بأنني أحبها.. وأن أطلب منها أن تأتي معي إلى بلدي..

- فابتسم «يامن»:

- مازال هناك وقت حتى يوم زيكولا..

فصمت «خالد» ثم نظر إليه:

أعتقد أنني تأخرت كثيرًا كي أخبرها بذلك.. أرى أن الوقت قد حان لتعلم كم أحبها..

فساله «يامن»:

-هل تريد أن تخبرها بذلك الآن؟

فأجابه:

-لا أعلم.. ما أعلمه أنني لا أمتلك من الذكاء سوى مائتي وحدة أو أكثر بقليل.. وأخشى ألا أكون ذكيًا في حديثي معها..

فابتسم «يامن»:

-إنها تعلم من أنت يا «خالد».. وهي تحبك..

فابتسم «خالد» ابتسامة حزينة:

أريدك فقط أن تخبرني ماذا أفعل.. كنت أظن الأمر سهلًا.. ولكنني لا أجده بتلك السهولة.. أخشى أن يكون تواجدها معي تعاطفًا ليس حبًا فصمت «يامن» قليلًا، ثم ضحك:

- حسنًا.. سأخبرك ماذا تفعل، ثم سأله:

- أين أوراقك التي كنت تكتبها؟

فأشار «خالد» إلى أغراضه:

- إنها هناك بين أغراضي..

فسأله مجددًا:

- أكتبت بينها أنك تحب «أسيل»؟

فأجابه «خالد»:

-نعم..

فسأله مبتسمًا:

-وهل قرأتها «أسيل»؟

فأجابه:

- لا.. إنها قرأت الأوراق الأولى فقط.. حين كنت أمدحها.. ولكنها لم تقرأ أنني أحبها منذ دخولي إلى زيكولا..

فابتسم «يامن»:

حسنًا سآخذ تلك الأوراق، وسأجعلها تقرأها وستتأكد من حبك لها، ولن تنتظر حتى تذهب إليها.. أراهنك بخمس وحدات من الذكاء.. أنها حين تقرأ تلك الأوراق ستأتي إليك مسرعة وتقول.. أحبك يا «خاااااالد»..

- فابتسم «خالد»:

حسنًا، افعل ما تشاء.. أما أنا فأريد أن أذهب إلى «إياد» ومن معه من عمال.. الآن.. ثم أتجول بين شوارع المنطقة قليلًا.. لا أريد أن أنام

الليلة.. أشعر أنها ليلة مختلفة.. لم يعد سوى يومان على انتهاء العشرين يومًا التي أخبرني بها «إياد».. بعدها أخرج.. أما «يامن» فقد حمل أوراقه، واتجه بها إلى غرفة «أسيل»، وطرق بابها برفق.. ففتحته فابتسم، وأظهر إليها أوراق «خالد»، وتحدّث:

إنَّ «خالد» قد خرج ولا أعلم أين هو.. وأنا سأخرج الآن.. حين يأتي، أريدك أن تخبريه بأنني قد وجدت أوراقه مبعثرة.. ثم أعطاها لها، فابتسمت «أسيل»:

-حسنًا سأعطيها لـ«خالد» حين يعود:

ثم أخذتها، وأغلقت بابها على الفور، وأسرعت إلى سريرها، وبعثرت الأوراق أمامها في سعادة.. تريد أن تقرأ ما كتبه «خالد» عنها.. وزادت من إضاءة غرفتها، وأمسكتهم ورقة ورقة.. وكلما انتهت من قراءة إحداهن تناولتِ الأخرى.. وظلت تقرأ ما كتبه «خالد» عنها في البداية، والذي قرأته من قبل، وأنها حورية زيكولا.. ثم بدأت تقرأ ما كتبه «خالد» عن زيكولا، وعن أهلها، وعن مناطقها.. حتى قاطع تركيزها الشديد صوت طرقات شديدة على باب غرفتها، وحين نهضت وفتحت بابها مجددًا.. فوجئت ببعض الجنود، وقائدهم يتحدّث

-أيتها الطبيبة.. إننا من حراس الحاكم.. لابد أن تأتي معنا على الفور..

- فسألته في دهشة:

-لماذا؟

فأجابها:

- لا أعلم سيدتي.. لقد أمرني سيدي الحاكم أن آتي بك على الفور..

يبدو أن سيدتي ليست على مايرام..

فهدأت «أسيل»:

- حسنًا.. سآتي معاك..

ثم أغلقت باب حجرتها مرة أخرى، وبدّلت ملابسها، ولملمت أوراق «خالد» سريعًا لتحملها معها.. ولم تدرِ أن هناك ورقة قد أسقطتها دون أن تشعر..

***

خرجت «أسيل» مسرعة مع حُرّاس الحاكم.. وأرادت أن تخبر «خالد» أو «يامن» بأنها ستذهب إلى المنطقة الوسطى فلم تجد أي منهما.. فركبت العربة الفخمة التي جاءوها بها، وبدأتِ العربة في التحرُّك،

وهي تنظر عبر نافذتها لعلها تجد «خالد»، ولكن دون جدوى..
فابتسمت، وحدّثت نفسها:

-إن المنطقة الوسطى ليست ببعيدة.. سأذهب إلى هناك، وسأعود على الفور..

ثم طلبت من قائد الحراس الذي كان يجلس أمامها في العربة أن يزيد من إضاءة المصباح النّاري كي تتمكن من قراءة باقي أوراق «خالد» التي أحضرتها معها حتى تصل إلى قصر الحاكم.. وقد بدأت تقرأ ما كتبه مجددًا بينما تسير العربة، وقد بدا السرور على وجهها.. حتى وصلت إلى آخر ورقة معها، وقد زادت ضربات قلبها حين وجدت «خالد» قد كتب بها أنه قابل فتاة أثناء عمله بتكسير الصخور تشبه «منى» حبيبته، التي أحبها ست سنوات، وكادت دموعها تسقط حين انتهت الورقة، وقد كتب «خالد»:(ما أعلمه جيدًا أنني لم أحبَّ غير «منى» طوال عمري)

وانتهتِ الأوراق معها، فحاولت أن تتمالك نفسها..حتى شعر قائد الحراس بذلك بعدما بدا التوتر على وجهها، ولمعت عيناها بالدموع وتسارعت أنفاسها، وكأن صدمة أصابتها فسأله:

- أهناك مكروه، سيدتي؟

فأجابته في حزن:

لا شيء.. ثم نظرت عبر النافذة، ولم تحرّك ساكنًا..في الوقت ذاته عاد «يامن» إلى المسكن مجددًا، وقد وجد فتاة تخرج من حجرة «أسيل» كانت تقوم بتنظيفها؛ فسألها:

-أين الطبيبة «أسيل»؟

فأجابته:

-إننى لا أعلم.. لقد خرجت مع جنود الحاكم.. ثم أكملت ، وقد أخرجت ورقة صفراء:

- وقد تساقطت منها تلك الورقة يا سيدي..

فأمسك «يامن» بالورقة فوجدها إحدى أوراق «خالد»، والتي كُتب ببدايتها:(لم أحب غيرها طوال عمري قبل أن آتي إلى زيكولا.. حتى وجدت «أسيل» التي يزداد شعوري كل يوم بحبها لي.. أما أنا فأشعر تجاهها بحب لم أشعر بمثله من قبل).

فظهرت خيبة الأمل على وجهه ثم سأل الفتاة مجددًا:

-ألا تعلمين لماذا جاءها جنود الحاكم في ذلك التوقيت المفاجئ؟

فأجابته:

- لا أعلم يا سيدي..

***

مر الوقت قليلًا، وقد خرج «خالد» إلى شوارع المنطقة الغربية.. يسير في هدوء ليلها بعدما نزل ذلك النفق الذي أوشك على انتهائه وخرج منه.. يتمنى أن ينتهي حفره، وأن تمرّ الأيام سريعًا، ويستكمل جزءًا من ذكائه حتى يخرج من زيكولا، وظل يسير، ويفكّر هل قرأت «أسيل» أوراقه.. هل علمت بمدى حبه لها.. حتى فوجئ بالكثير من الجنود يقتربون منه ويحيطون به، ويمسكونه فسألهم على الفور:

- لماذا تمسكون بي؟!.. إنني لم أفعل شيئًا..

- فأجابه قائدهم في غلظة:

- نعم.. إنك لم تفعل شيئًا.. ثم أكمل:

-لقد وضعت زوجة الحاكم ولدها الليلة أيها الفقير.. وسيكون يوم زيكولا بعد سبعة أيام من اليوم..

فصاح «خالد»:

- ماذا.. لا.. مازال هناك شهران على وضعها.. فضحك القائد ساخرًا إلى جنوده..

- أرى أنه أفقر من قابلنا.. ثم سأله:

ألا تعلم أن هناك من يولدون بعد سبعة أشهر فقط، ثم أشار إلى جنوده، وقد استدار بحصانه:

-أمسكوا به، وضعوه مع غيره من فقراء منطقتنا.. حتى يُعرَضوا على أطباء زيكولا..

***

(١٧)

كان ما حدث من أمر الجنود صدمة بالنسبة لـ«خالد».. وقد وقعت كلمات قائد الجنود على سمعه كالصاعقة التي أنسته كل شيء من حوله.. وحاول أن يتملّص من الجنود الممسكين به ولكنه لم يستطع، واقتادوه معهم إلى قصر كبير يوجد بالقرب من الطرف الشرقي للمنطقة الغربية.. ثم أدخلوه إحدى غرف القصر الخالية بالطابق السفلي.. وأوصدوا بابها الحديدي من خلفه، فأصبحت إضاءتها شاحبة يغلبها الظلام.. فجلس بأحد أركانها، ووضع رأسه بين يديه، وكأن صدمته قد شلّت تفكيره.. لكنه نهض مجددًا، واتجه نحو الباب الحديدي، وصاح:

- لابد أنكم مخطئون.. لابد أنكم مخطئون.. لابد أن أغادر.. حتى سكت فجأة حين سمع صوت من خلفه:

- تغادر إلى أين؟!

***

إلتفت «خالد» فوجد رجلًا يجلس بركن بعيد بالغرفة، ولم تكن ملامحه قد ظهرت حتى اقترب منه فبدأت ملامحه في الظهور شيئًا

فشيئًا، ووجده رجلًا يبدو من هيئته أنه في الأربعين من عمره.. يتخلل شعره الأسود القليل من الشيب، كما تخلل لحيته وشاربه .. وجسده عريض، ولكنه يصغر «خالد» قليلا فسأله:

- من أنت؟

فرد الرجل في هدوء:

- فقير مثلك..

فصمت «خالد» حتى سأله الرجل:

- لماذا لا تجلس؟!

فأجابه:

- أريد أن أخرج من هنا.. لابد أن أخرج..

فابتسم الرجل وقال:

ليتنا نخرج جميعًا.. اجلس لا تضيِّع وقتك.. طالما جئت هنا لم يعد لك أمل سوى أن يكون هناك من هو أكثر فقرًا منك.. ثم تابع بعدما صمت برهة:

- أو يكون لك حظٌّ مع الزيكولا..

فجلس «خالد» بجواره ثم سأله:

- ما اسمك؟

فرد الرجل:- أنا «جواد» ..

فأكمل «خالد»:- ألا يوجد غيرنا؟!

فأجاب جواد:

- انتظر.. مازال أمامهم يومٌ آخر حتى يأتينا أطباء منطقتنا.. وإلى أن يأتي الأطباء سيحضرون هنا الكثيرين من الفقراء.. ألم تشاهد تلك الأيام من قبل؟!

فأجابه «خالد»:

لا.. إنني أشاهدها للمرة الأولى.. إننى لست من أهل زيكولا..

فصمت «جواد» ثم ابتسم، وأكمل:

- كان لابد أن تحافظ على مخزونك من ذكائك ليوم مثل هذا.. فسأله «خالد» ساخرًا:

- ولماذا لم تحافظ أنت على ذكائك؟!!

فأخرج «جواد» زفيرًا طويلًا ثم نظر إليه:

تستطيع أن تقول إنه القدر.. من كان يراني منذ أيام لم يكن ليظن لحظة واحدة أن أكون من فقراء زيكولا.. ولكنه الزمان ينقلب رأسًا على عقب دون مقدمات..

- فقاطعه «خالد» في حزن:

تُذكِّرني بنفسي.. كنت أمتلك كثيرًا من الذكاء، وقد فقدته أيضًا فجأة ولكن لسبب قوي.. فقدته من أجل عودتي إلى وطني.. أمَّا أنت فلماذا فقدت ثروتك؟

فأجابه جواد:

إنها قصة طويلة .. قد تحكيها لمن تعرفهم إن نجوت.. تعلم، عندي ثلاث وأربعون سنة.. ثم تنهّد، وأكمل:

مثلي مثل رجال زيكولا.. كنت أعمل من أجل أن أعيش ولا آتي إلى تلك الغرفة يومًا.. لم أكن غنيًّا، ولم أكن فقيرًا أيضًا.. كنت أعمل يومًا بيوم، وأقضي حاجاتي التي تكفي لعيشي سعيدًا دون أن أدّخر شيئًا زائد عن حاجتي.. وطالما كان هناك الأفقر مني فلم يشغل لي الفقر بالًا..حتى جاء يوم وأحببت فتاة هنا.. فتاة تسكن بتلك المنطقة، وأصبح حلمي أن أتزوّجها، ثم صمت فسأله «خالد» أن يكمل، فأكمل:

كنت جريئًا للغاية، فذهبت إليها، وأخبرتها أنني أريد أن أتزوّجها.. ولكن أبوها طلب مهرًا باهظًا للغاية، فابتسم «خالد»، وقاطعه:

أعلم البقية.. ظللت تعمل من أجل هذا المهر، حتى أعطيتَه لأبيها، فجاء يوم زيكولا.. فأومأ «جواد» برأسه موافقًا على ما قاله «خالد» الذي أكمل قائلًا:

إنها تشبه قصّتي.. كلانا سعى من أجل ذلك المهر..أنت من أجل حبيبتك.. وأنا من أجل عودتي إلى وطني..

فتابع «جواد»:

- إنها تنتظرني.. إن خرجت من هنا سنتزوج .. إنها تحبني للغاية، لقد أخبرتني أنها تريد أن تنجب أطفالًا يكونوا من أثرياء زيكولا..

- فسأله «خالد» مندهشًا:- هل ستترك أطفالك يعيشون هنا في زيكولا؟!!

فأجابه «جواد»:- بالطبع..

فتابع «خالد»:

- كنت أظن بعد وجودك هنا أنك إن نجوت من تلك المحنة، ستغادر زيكولا بعدها..

فسأله «جواد» متعجبًا:- إلى أين؟!!.. إن زيكولا وطننا ونحن نحبها..

فنظر إليه «خالد»:- إنكم تُقتلون في وطنكم هذا..

فصمت «جواد» قليلًا، وطال صمته تلك المرة.. ثم أكمل:

ربما تظن ذلك.. ولكن رغم ما أنا به، فلا أعتقد أنني سأجد أفضل منها وطنًا لي.. ولأولادي.. لقد أعطتنا زيكولا الكثير.. أعطتنا القوة والفخر بأننا أبناؤها.. فخرٌ يشعر به الغني والفقير.. ثم ابتسم، وكأنه يتذكّر:

حين يذهب منّا المرء يوم فتح باب زيكولا إلى مدينة أخرى فإنه يتباهى أنه زيكولي، والجميع يقدم له وافر الاحترام .. لا يستطيع أحد مساس شعرة من رأسه.. ثم أكمل:

أنا فقير اليوم.. وربما يختارني الأطباء بين الأكثر فقرًا، وربما أذبح.. ولكني سأذبح من أجل سعادة حاكمنا بولده، وكم نحب حاكمنا.. لطالما جعلنا حكّامنا أقوياء.. فقاطعه «خالد» مندهشًا:

- لماذا لا أراك قلقًا أوحزينًا؟!.. كيف تمتلك هذا البرود؟

- فأجابه «جواد»:

لا أخفي عليك، كنت ممن يعملون بحرص ألا يأتوا هنا يومًا.. وسأفرح كثيرًا إن نجوت.. ولكنني أرى من العار أن أحزن إن لم أنجُ

ثم نهض، وتحرك خطوات مبتعدًا عنه فسأله «خالد»:

- ألا تريد أن تعود إلى حبيبتك؟!

فتوقف «جواد»:

لقد عملت ما في وسعي، وهي الآن تعلم كم أحبها، وأعلم أنها ستفخر بي باقي عمرها، إن كنت أنا الذبيح.. إنها تعلم أنني لم أكن كسولًا يومًا..

- فتحدّث إليه «خالد» في هدوء:

أتمنى أن تعود إليها وتنجبا أطفالًا ينعمون بذلك الحب.. ثم نهض هوالآخر، وتحرك إلى ركن بعيد بالغرفة، وأكمل بصوت يشوبه الحزن:

- ولكنني لا أريد أن أُذبح.. أنا لست منكم.. أريد أن أعود إلى بلدي.. إلى أهلي.. سأشعر بالفخر حين أعود إليهم..

ثم سكت حين فتح باب الغرفة، وزجّ أحد الجنود بشخص شاحب اللون إليهم ثم أوصد الباب من خلفه..

كانت شوارع المنطقة الغربية مزدحمة بالكثير من أهاليها حين علموا بوضع زوجة الحاكم مولودها، وحلول يوم زيكولا بعد أيام قليلة.. و«يامن» يتحرك بينهم يبحث عن «خالد» بكل مكان بعدما لم يعد إلى المسكن الخاص بـ«أسيل» منذ خروجه، وظل يسأل من يقابله عن «خالد».. ذلك الشاب الطويل العريض ذو الشعر الأسود الطويل واللحية السمراء الناعمة، ولكن لم يجبه أحد.. وبدأ القلق يتسرب إلى قلبه بعدما وجد جنود المنطقة ينتشرون بشوارعها، ويبحثون عن الأكثر فقرًا بينهم.. حتى تيقَّنتْ شكوكُه حين أخبره فتًى صغير بأنه قد رأى «خالد» والجنود يجرّونه نحو قصر الفقراء.. فتسمّرت قدماه دون أن يدري ماذا يفعل..

***

عاد «يامن» إلى المسكن الخاص بـ«أسيل» على الفور.. وسأل خادمة هناك إن كانت «أسيل» قد عادت، فأجابته بأنها لم تعد بعد.. فزاد توتُّره وضيقه، ولم يشغل باله سوى «خالد» الذي قد يُذبح بعد أيام، ومصيره بيد «أسيل»، وظل يتحرك جيئة وذهابًا لا يستطيع أن يتمالك نفسه.. بعدها أمسك بالورقة التي أسقطتها «أسيل»، وخرج مسرعًا

خارج المسكن إلى أطراف المنطقة الغربية حتى وصل إلى الطريق الممهد إلى المنطقة الوسطى، وظل واقفًا على جانبه حتى تمر عربة متجهة إلى تلك المنطقة.. يعلم أن الوقت قد تأخّر، والليل يكسو زيكولا ولكنه لم يفقد أمله في ذلك.. حتى مرت أمامه عربة فطلب من صاحبها أن يصطحبه معه فرفض، وكلما مرت عربة إما أن يرفض سائقها أو يخبره بأنه لن يمر بالمنطقة الوسطى.. حتى جاءت عربة يركبها عجوز قد يتجاوز عمره الثمانين فأوقفه «يامن»:

- أريد أن أذهب معك إلى المنطقة الوسطى..

فأجابه العجوز الذى ضحك وظهرت أسنانه المتآكلة:

- إنني لا أصطحب غرباء .. ثم أكمل:

- ما لكم أيها الشباب، لماذا لا تسيرون؟!! .. إنني كنت في مثل عمركم أجوب زيكولا على قدمي..

فأجابه «يامن» :- حسنًا.. سأجوبها على قدمي..

فأمر العجوز حصانه أن يواصل حركته، وتمتم بكلمات وكأنه يسب «يامن»، وتحركت العربة قليلًا، و«يامن» ينظر إليه حانقًا.. حتى ابتعدت العربة عنه فأسرع خلفها، وتشبث بمؤخرتها، وظلت رجلاه

تهرولان كي تجاري سرعة حصان العربة، وكلما حاول أن يسندها على لوح خشبي بمؤخرة العربة تفلتان.. حتى استطاع أن يتشبث جيدًا، وظل متشبثًا بها بينما يجلس العجوز بمقدمتها، ويضرب حصانه كي يسرع، ويبدأ يغني بصوته الضعيف المتقطع، وكأنه يريد أن يؤنس وحدته، و«يامن» يستمع إليه، ويريد أن يضحك، ولكنه خشي أن يعلم بوجوده.. فآثر أن يكتم ضحكاته بداخله..

***

مر الوقت، و«خالد» حبيس بغرفة الفقراء، وقد تزايد عددهم، وبين الحين والآخر يُفتَح باب الغرفة ليُزجَّ بفقير جديد إليهم ثم يوصد مجددًا .. و«خالد» يجلس بركنه صامتًا، وينظر إلى «جواد» الذي كلما حلّ فقير بالغرفة يذهب إليه ليعرف قصته.. ثم يتحدّث إلى نفسه، ويسألها:

- ماذا يفعل «يامن»؟، وماذا تفعل «أسيل»؟، وهل ستنتهي حياته في زيكولا أم أن هناك أملًا قد يغير هذا المصير..

وصلت عربة العجوز إلى المنطقة الوسطى، والتي سادها الهدوء والصمت.. ولم يكن بشوارعها إلا قليل من الجنود وحراس القصور المتواجدين بها والذين تظهر ملامحهم واضحة مع المصابيح النارية التي

تنير شوارع تلك المنطقة.. وما إن أبطأتِ العربة حتى قفز «يامن»، وترك العجوز يكمل طريقه دون أن يدري بوجوده.. ثم عدَّل من ملابسه، ونفض عنها ما أصابها من غبار، وأسرع إلى قصر الحاكم فقابله أحد حراس القصر وسأله على الفور:

- من أنت؟

فأجابه «يامن»، وقد علا صوته وتحدّث بثقة:

- أنا مساعد الطبيبة.. ثم صاح به:

- ألم تعلم من أنا؟!.. من أنت كي تسألني؟!

فأجابه الجندي:

- أعتذر.. لم أكن أعرفك..

فرفع «يامن» رأسه:

- حسنًا.. هيا أدخلني، وإلا أثرتَ غضبي.. وأنت تعلم أنني بعملي هذا قد أجعلك أفقر شخصًا بزيكولا.. هيا..

فبدا التوتر على وجه الجندي:

- حسنًا سيدي.. تفضل إنها بحجرتها، ولكن لابد وأنها نائمة.. إن الشروق قد قارب..

فصمت «يامن» ثم أكمل:

- إنني لا أستطيع الانتظار.. أخبر إحدى الوصيفات بأن تخبرها أن مساعدها ينتظرها بالأسفل لأمر هام..

فرد الجندي:

-حسنًا.. تفضّل إلى أولى حجرات الطابق السفلى، وستأتيك إلى هناك

***

كانت «أسيل» بحجرتها تجلس، وتقلب أوراق «خالد» من جديد، ويكسو وجهها حزن شديد.. حتى سمعت طرقات على باب حجرتها ثم وجدت إحدى الوصيفات تدلف إليها، وتخبرها بأن مساعدها ينتظرها بالأسفل، ويريد أن يخبرها بأمر هام، فنطقت «أسيل» على الفور:

- «خالد» !!

ثم تمالكت نفسها، وسألت الوصيفة:

- ماذا يريد؟

فأجابتها:

- لا أعلم سيدتي.. إنه ينتظرك بالأسفل..

فصمتت «أسيل» برهة ثم أشارت إلى الوصيفة:

- حسنًا..فغادرت الوصيفة .. وظلت «أسيل» كما هي تفكّر، وتسأل نفسها:

- ماذا جاء بك إلى هنا يا «خالد»؟!!

- أعلمت أن أوراقك جاءت إليّ صدفة فتريد أن تخبرني أنها ليست أوراقك .. أم تريد أن تخبرني أنك حقًّا تحب تلك الفتاة، أمّا أنا فلا أمثّل لك سوى شخصًا تحب مساعدته.. ثم نظرت إلى مرآة أمامها، وابتسمت:

- ربما كانت ليست أوراقه حقًا..

- ربما كان يريد أن يختبر مدى حبي وغيرتي..

ثم عادت لتسأل نفسها مجددًا:

- وماذا لو كانت تلك هي الحقيقة؟..ماذا لو كان يحب الفتاة الأخرى؟.. ماذا تفعلين؟..

ثم نظرت نحو باب غرفتها:

- حسنًا.. سأنزل لأرى ماذا تريد يا «خالد»..

ثم بدّلت ملابسها، وغادرت حجرتها، وهبطتِ السلم إلى الطابق السفلي، واتجهت نحو الغرفة التي أخبروها بأن مساعدها ينتظرها بها..

وما إن دلفت إليها وكادت تتحدث حتى فوجئت بأنه «يامن»:

- «يامن»؟!!

فأجابها: نعم.. أعتذر أنني جئتك في هذا الوقت المتأخر..

فأكملت:- حسبتك «خالد»..

فصمت ثم أكمل:

- لقد أمسكوا بـ«خالد» من أجل يوم زيكولا..

فردّت:- ماذا؟!!

فأكمل «يامن» واجمًا:

- نعم ..لقد أمسك به الجنود عندما كان يتجول بين شوارع المنطقة الغربية..

فصمتت «أسيل» حتى أكمل «يامن»:

- إنكِ تعلمين أنه لا يستحق ذلك.. لابد أن نساعده.. لابد وأن يخرج.. لابد أن يعود إلى بلده يا «أسيل».. لقد وعدناه بذلك..

فأجابت «أسيل» في برود:

- ماذا نفعل..أنت تعلم قوانين زيكولا أكثر مني..

فصاح بها «يامن»:

- نعم أعرفها.. ولكن عليكِ أن تفعلي المستحيل كي ينجو من تلك المحنة.. كيف أراكِ بهذا الهدوء.. وأنت تعلمين كم يحبك؟!!

فصاحت به «أسيل»:

- يحبني؟!!.. ثم ضحكت ساخرة:

- تقصد أنه لم يحب في حياته سوى «منى».. حبيبة عمره.. أم تريد أن تُكذِّب ما كتبه بين أوراقه..

فصمت «يامن» مفكِّرًا ثم أخرج ورقة من ملابسه:

- اقرئي هذه الورقة.. إنها أيضًا كتبها، ولكنها سقطت منكِ حين جاءك جنود الحاكم..ثم أعطاها الورقة، وأكمل وهو يتجه نحو باب الغرفة:

لو علمت أن أحدًا يحبني هذا الحب.. لفعلت المستحيل من أجله.. ثم غادر، وأمسكت «أسيل» الورقة، وقرأت ما بها، وعلمت أنها تكملة لحديثه في الورقة السابقة لها.. وأنه يحبها منذ أن جاء إلى زيكولا.. فلم تستطع أن تتمالك نفسها، وتساقطت دموعها بغزارة ثم أسرعت إلى

غرفتها بقصر الحاكم.. تصعد بخُطى سريعة درجات السلم، ودموعها على وجهها وسط دهشة وصيفات القصر الذي يملؤه الفرحة منذ قدوم المولود الجديد.. ثم دلفت إلى حجرتها، ووضعت رأسها على سريرها، وواصلت بكاءها..

***

أشرقتِ الشمس، وتبعها نهار بطيء مرّ على «خالد» كسلحفاة تسير وانتشرت الأخبار في كافة أرجاء المدينة بأن فقراء زيكولا من الرجال والنساء قد جُمعوا بكل مناطقها، وجميعهم ينتظرون الأطباءها حتى يقلِّصوا عددهم إلى أكثرهم فقرًا، ومن بعدهم تقول الطبيبة «أسيل» كلمتها بشأن الفقراء الثلاثة الذين يتنافسون أمام الزيكولا.. و«يامن» لا يستطيع أن يتمالك أعصابه، وينتظر ماذا سيكون قرار أطباء المنطقة الغربية في اليوم التالي.. و«أسيل» تنتظر في قصر الحاكم، وتتوسل إلى الوقت كي يمر سريعًا، والجميع يلاحظون توتّرها وتغيرها المفاجئ منذ قدوم مساعدها إليها..

***

في اليوم التالي كان «خالد» ومن معه من فقراء حبيسين بغرفتهم.. حتى فُتح بابها فجأة، ودخل إليهم قائد الجنود:

- هيا.. ستُعرَضُون الآن على الأطباء..

اصطفَّ الجنود صفَّين، وبينهما ممر أمام الغرفة، وبدأ «خالد» ومن معه يمرون بين هذين الصفّين.. حتى وصلوا إلى رِدهة واسعة، واصطفّوا بها كما أمرهم قائد الجنود، وقد لاحظ «خالد» بأن هناك نساء شاحبات سيعرضن معهم على الأطباء.. وعلم أنهن قد حُبِسنَ بغرفة أخرى، وبنظرة منه وجد عدد الفقراء والفقيرات لا يتجاوز العشرين فردًا.. ثم نظر إلى جانبه فوجد «جواد»، فهمس إليه:

- كم سيختارون منا؟

فأجابه:

- لا أعلم.. سيختارون أقلّنا ثروة..

حتى صاح به أحد الجنود بأن يصمت ثم دخل رجلان، وعلم من يقفون بأنهما الطبيبان حين وجدوا زيهما الأنيق، وقمصانهما الراقية، ونعالهما الفخمة..

ثم أشارا إليهم بأن يجلسوا، وسأل أحدهما قائد الجنود بأن يأتي بالفقراء واحدًا تلو الآخر..

***

بدأ الفقراء يتجهون إلى الطبيبيّن واحدًا تلوالآخر.. و«خالد» يراقب من بعيد ما يفعلانه، وينظر إليهما، وهما يفعلان مثلما كانت تفعل «أسيل» حينما كانت تمسك بثنية من جلده لتخبره كم يمتلك من وحدات ذكاء.. ويراقبها حين يمسك أحدهما بقلم ويدوّن شيئًا بأوراقه بعدما ينتهي من فحص أحد الفقراء، وكأنه يدوّن ملاحظاته عن ذلك الفقير.. وقلب «خالد» يدق بقوة، وينظر إلى جلد ذراعيه، ويقارن شحوبه بشحوب من معه ثم ينظر إلى السماء، ويدعو ربه أن ينجّيَه من هذه المحنة حتى أمره جندي بأن يتقدم إلى الطبيبيّن، وما إن تقدم إليهما حتى سأله أحدهما:

- هل أنت مريض؟

فأجابه «خالد»:

- لا..

ثم أمسك الطبيب بثنية من جلده، وأمسك الآخر بثنية أخرى من جلد ذراعه بين أصبعيه.. ثم نظرا إليه يتأملانه، ثم أمراه أن يعود إلى مكانه مجددًا.. فعاد وقد تحرك إليهما «جواد» الذي قابله مبتسمًا.. وظل الطبيبان يواصلان عملهما، والوجوم على وجوه الكثيرين من الفقراء والفقيرات.. حتى نهض الطبيبان مجددًا ، ونظرا إلى أوراقهما، وما دوّناه بها من ملاحظات، ثم تحدّثا إلى قائد الجنود، والذي بدوره اتجه إلى «خالد» ومن معه من رجال ونساء ثم نظر إليهم:

- لقد أخبرنا الطبيبان من منكم الأكثر فقرًا..

- من ينجو اليوم عليه أن يعمل بجد مجددًا كي لا يعود إلى هنا مرة أخرى.. ومن اختاره الأطباء سنصطحبه غدًا إلى المنطقة الوسطى حتى يُعرض على طبيبة الحاكم بعد غد.. وأتمنى أن يجد من هو أفقر منه هناك

ثم نظر إليهم مجددًا، وقد احتبست أنفاس «خالد» حين أشار إلى «جواد»:

- أنت.. ستأتي معي إلى المنطقة الوسطى..

ثم أشار إلى «خالد»:

- وأنت أيضًا.. ستأتي إلى المنطقة الوسطى.. أمَّا الباقون فعليكم أن تعودوا إلى بيوتكم، واحتفلوا مع أصدقائكم بمولود الحاكم..

فسقط «خالد» على ركبتيه :

- أنا؟!!

فأجابه القائد:

- نعم إنكما الأكثر فقرًا هنا.. هيا انهض.. ما زال أمامك فرصتان كي تنجو..

- فنظر «جواد» إلى «خالد»، وقد قلّ بروده، وبدا متوترًا قليلًا:

- يبدو أن أحدنا سيكون الذبيح أيها الصديق...

***

(١٨)

عاد «خالد» إلى غرفة الفقراء مرة أخرى ومعه «جواد»، وقد أُغلِقَ الباب الحديدي من الخارج.. و ظلّت أنفاسه متسارعة، وزاد قلقه وتوتُّره كثيرًا، وكلّما حاول «جواد» أن يتحدث إليه لم يجبه.. ولا تتوقف رأسه عن التفكير.. لا يرى أمامه سوى ما رآه يوم زيكولا السابق حين ذُبح الفقير وَسْط احتفالات أهل زيكولا.. أما «أسيل» فمازالت في قصر الحاكم تتمنى أن تجد «يامن» الذي اختفى منذ مجيئه إليها في المرة السابقة .. لا تعلم ماذا حدث بالمنطقة الغربية.. تريد أن تعلم هل عاد «خالد» إلى حريته مجددًا أم تجده أمامها يوم تختار الثلاثة الأكثر فقرًا.. تتمنى أن تغادر القصر إلى المنطقة الغربية، ولكنها لا تستطيع أن تترك زوجة الحاكم في هذا التوقيت.. فلم تجد أمامها سوى أن تنتظر حتى يمر ذلك اليوم وما يليه، ووقتها سيتضح كل شيء ..

***

الموسيقى تنتشر في كافة أرجاء زيكولا، والأخبار تتناقل بين هذا وذاك.. الجميع يتحدثون عن فقراء زيكولا، ويتهامسون بأن أطباءها قد

اختاروا فقيرين بكل منطقة بها.. وينتظرون طبيبتهم الأولى حتى تعطي كلمتها الأخيرة.. يريدون أن يفرحوا.. يريدون أن يُهنِّئوا حاكمهم بهذا اليوم.. الجميع في أوج سعادتهم طالما ابتعدوا عن منصة الذبح.. يعملون نهارًا، ويتراقصون ليلًا.. يعلمون أنها أيام وستَمُر، وسيعودون مجددًا إلى حياتهم، وأعمالهم الشاقة.. فأرادوا أن يقتنصوا كل ذرة سعادة في تلك الأيام.. حتى سور زيكولا قد بدا وكأنه في أيام عُرسه بعدما عُلِّقت فوقه رايات عديدة مختلفة الألوان ترفرف بقوة، وتتوسطها نيران مشتعلة تعلن عن احتفال أهل مدينته، والذين بدأوا يتجهون إلى المنطقة الوسطى أفواجًا متتالية ليشاهدوا منافسة الزيكولا ومعهم ما يكفيهم من طعام حتى ذلك اليوم، وحتى يوم زيكولا حين يتنقلون إلى المنطقة الشرقية حيث أرض الاحتفال ومنصة ذبح الفقير..

أما أهالي المنطقة الغربية فقد تجمّعوا أمام القصر الذي حُبس به «خالد» و «جواد» حين اصطف أمامه العديد من الجنود إيذانًا برحيل الفقيرين إلى المنطقة الوسطى حيث قصر الحاكم، وقد صاحوا وهللوا حين رأوا «خالد» وجواد مُكبَّلَين يدًا وقدمًا، ويتقدمهم قائد الجنود إلى

عربة تقف أمام القصر.. ثم بدأتِ العربة في التحرك في طريقها لمغادرة تلك المنطقة..

***

تسير العربة وتشق طريقها، و«خالد» بداخلها ينظر عبر نافذتها إلى الصحراء الشاسعة على جانب الطريق، وكلما حاول «جواد» أن يتحدث إليه لا يرد مجددًا، ويظل محدِّقًا خارج العربة حتى ابتسم «جواد»، وتحدّث في هدوء:

- أعلم أنك حزين للغاية، وأعلم أنك تسخط على حاكمنا وولده.. ولكن لا تيأس يا صديق.. ما زال أمامك فرصتان كي تنجو بحياتك.. و«خالد» يواصل صمته ولا يرد.. ثم تحدّث «جواد» مجددًا:

- أحدنا سينجو بالطبع.. وقد ينجو كلانا ثم صمت، وأكمل:

- أريد أن أطلب منك شيئًا.. ثم تابع:

- إن نجوتَ وكنتُ أنا من سيذبح، وجاء يوم زيكولا ووقفت بين من يحتفلون بذبحي، ورأيت سيدة تبكي وسط من يفرحون، فاذهب إليها وأخبرها أنني لم أحب بحياتي مثلما أحببتها..

ثم سالت بعض دموعه على وجهه فالتفت إليه «خالد»، ووضع كفه على ركبته، وابتسم إليه:

- ستعود إليها يا «جواد».. وستنجبان أطفالًا تعيش وتفخر بزيكولا.. فابتسم «جواد»، والدموع تلمع على وجهه، وأكمل:

- وأنت ؟.. لا تريد أن توصيني بشيء؟..

فصمت «خالد» قليلًا ثم نظر عبر النافذة مجددًا ، وعاد لينظر لـ«جواد»:

- إن وجدت شابًا في مثل عمري يدعى «يامن»، ويقف حزينًا فأخبره بأنني لم أجد صديقًا وأخًا مثله، ثم صمت مجددًا، وأكمل:

- وإن رأيت طبيبة زيكولا تنظر كثيرًا إلى السماء ليلًا تبحث عن نجم بها.. فأخبرها أنها أفضل حقًا من ذلك النجم ..

فسأله «جواد» على الفور:

- هل تعرفك طبيبة زيكولا؟

فأجابه «خالد»:

- نعم..

فابتسم، وأكمل:

- هل تحبها؟

فردّ «خالد»:

- نعم..

فسأله مجددًا:

- وهي؟.. هل تحبك؟

فصمت «خالد» ثم أجابه:

- لا أدري..

فأكمل «جواد»:

- إن كانت تحبك فلن تتركك لتكون ذبيح زيكولا..

فصمت «خالد» مرة أخرى ثم عاد هائمًا يتأمل الطريق عبر نافذة العربة.. وأكملت العربة سيرها، وقد أمر سائقها حصانه بأن يسرع ولسعه بسوطٍ بيده.. حتى وصلت مع اقتراب غروب الشمس إلى المنطقة الوسطى، والتي أصبحت شوارعها مزدحمة بالكثير من الناس وواصلتِ العربة تحركها.. حتى توقفت أمام قصر الحاكم..

***

كانت «أسيل» تجلس بغرفتها حين أخبرتها وصيفتها بأن فقراء مناطق زيكولا قد بدأوا في القدوم.. فدقّ قلبها بقوة، وسألتها على الفور:

- هل وصل فقيرا المنطقة الغربية؟

فأجابت الوصيفة:

- نعم سيدتي..

فسألتها «أسيل» مجددًا:

- هل رأيتِهما؟

فأجابتها:

- لا.. لم أرهما.. إنهما قد وصلا منذ لحظات قليلة، وسيتجهان نحو بَهْو القصر..

ثم أكملت:

- أستطيع أن أشاهدهما من تلك الشرفة.. ثم أشارت إلى شرفة الغرفة، وأكملت:

- وهم يمرون نحو بهو القصر..

فالتفتَتْ «أسيل» إلى الشرفة:

- لا.. عليكِ أن تغادري الآن.. وأخبريني حين يكتملون..

فابتسمتِ الوصيفة:

- حسنًا سيدتي.. ثم غادرت ..

أما «أسيل» فأسرعت إلى الشرفة، ووقفت أمامها تنتظر أن يمر فقراء مناطق زيكولا.. تنتظر وتتسارع أنفاسها.. تخشى أن يكون ما تظنه حقيقة.. وتسأل نفسها مجددًا:

-أين «يامن»؟.. ولماذا لم يأتها ليخبرها بما حدث لـ«خالد» ؟! وكلما مرّ أحد بالأسفل نظرت إليه في لهفة، وتشعر بسعادة حينما تتحقق أنه ليس «خالد» .. حتى انتفض قلبها، وكأنه انتُزِعَ منها حين وجدت أحد الجنود يتقدم، ويأتي من خلفه «خالد» مطأطأ الرأس، ويسير ببطأ ومعه فقير غيره قد كُبِّلا مع بعضهما، ويصيح بهما الجندي:

- أسرعا أيها الفقيران..

فأمسكت برأسها، وعادت خطوات إلى الخلف، ووضعت يدها على فمها من الصدمة.. ثم نهضت وتحركت نحو الشرفة مجددًا، وظلت تنظر إلى «خالد» وهو يتحرك بصعوبة خلف الجندي إلى بهو القصر.. فتسارعت أنفاسها، ولمعت عيناها بالدموع، وتحدّثت إلى نفسها:

- ماذا أفعل؟.. ماذا لو كان «خالد» أكثرهم فقرًا؟!.. ماذا؟..

تنظر إلى وريقاته المبعثرة في غرفتها، وتقرأ كلماته.. أنه لم يحب غيرها ثم حدّثت نفسها بصوت مسموع:

- إن مصيره بيدي الآن..

وتتحرك جيئة وذهابًا بالغرفة، وتسأل نفسها حين تقف أمام المرآة:

- ماذا أفعل؟

ثم نظرت إلى الأوراق مجددًا، وكأنها تحدّثها:

- «خالد» ماذا لو كنت الأفقر بينهم؟ ماذا تريدُني أن أقرر يا «خالد»؟

وتعود إلى حركتها جيئة وذهابًا، وتمسك برأسها، وتمرر يدها فوق شعرها ثم تنظر عبر الشرفة، وترى الفقراء الآخرين الذين يتجهون نحو بهو القصر.. حتى سمعت طرقات على باب غرفتها، ودلفت إليها وصيفتها:

- سيدتي لقد اكتمل عدد الفقراء ببهو القصر، والجميع في انتظارك..

فزاد انتفاض قلبها ثم حدّثتها:

- حسنًا.. سآتي على الفور..

فأغلقتِ الوصيفة باب الغرفة مجددًا، وجلست «أسيل» على سريرها، ووضعت رأسها بين يديها وكأنها لا تدري ماذا تقرر.. ثم نهضت مجددًا، واتجهت مرة أخرى نحو الشرفة، ولكنها لم تنظر إلى أسفل.. بل نظرت إلى السماء التي امتلأت بشفق الغروب، وبدأت تتحدث والدموع على وجهها:

- رأيت «خالد» كثيرًا ينظر إلى السماء كلما وقع في محنة، وسمعته يقول.. يارب ساعدني..

- أنا أنظر مثلما كان يفعل الآن.. وأقول مثله.. يارب.. يارب ساعدني.. أريدك أن تساعدني.. ثم أغمضت عينيها، وزادت دموعها.. وأكملت:

- ساعدني.. لا أريد أن أفقد «خالد» ثم تابعت:

- ولا أريد أن أظلم أحدًا.. لا أريد أن أظلم أحدًا..

***

كان الصمت يسود بهو قصر الحاكم، وكأنه لا يوجد أحد به.. الجميع صامتون، كلٌ يفكر بمصيره وينتظر أن تأتي الطبيبة.. عشرة من الفقراء.. سبعة رجال، وثلاث فتيات.. ينتظرون أن يمر الوقت سريعًا.. أي منهم سينجو، وأي منهم ستختاره الطبيبة لمنافسة

الزيكولا، و«خالد» يقف وينظر إليهم في صمت.. ثم ينظر إلى أعلى وكأنه يناجي ربه.. حتى كُسر ذلك الصمت حين دلفت «أسيل» بفستانها الفضفاض إلى بهو القصر، ومعها قائد حرس الحاكم الذي قد أتاها ليلة وضَعَتْ زوجة الحاكم، وقد تحدّث بصوت غليظ:

- ستختار سيدتي الآن الثلاثة الأكثر فقرًا..

فتقدمت «أسيل» في صمت، ومرت أمامهم، و «خالد» ينظر إليها، وقد تعمدت ألا تنظر إليه حتى أنها أرادت أن تلمحه بطرف عينها، ولكنها أبعدت نظرها على الفور.. ثم همست إلى قائد الحرس أن يقدم إليها فقيرًا تلو الآخر..

***

بدأت «أسيل» تفحص كل من يتقدم إليها وتتأمله، وتضع ثنية من جلده بين إصبعيها، ثم تسأله إن كان قد مرض من قبل، وإن أجابها بأنه قد مرض تسأله المزيد من الأسئلة عن ذلك المرض، وتزيد من فحصها لأكثر من مكان بجسده حتى تعلم إن كان قد مرض حقًا أم أنه يفتعل ذلك كي ينجو.. حتى تقدم إليها «جواد»، وبدأت تفحصه، وقد نظرت إلى «خالد» بطرف عينها فابتسم «جواد»، وتحدّث:

- إنه يحبك أيضًا..

فنظرت إليه، ولم تتحدث، ثم أمرت أن يأتي مَن بعده.. فوجدت «خالد» يتقدم إليها فدقّ قلبها بقوة، ولامست وجهه ويدها ترتعش قليلًا.. و«خالد» ينظر إلى عينيها دون أن ينطق ببنت شفة.. وتحدّث نفسها.. ماذا أفعل يا «خالد» إن كنت الأفقر.. ماذا أفعل؟.. ثم نظرت إلى قائد الحرس أن يأتي بمن بعد «خالد»، والذي فوجئ بعدما استغرق فحص «خالد» وقتًا أقل كثيرًا ممن فُحصوا قبله، ولكنه طلب من فقير أخر أن يتقدم إلى الطبيبة، وظلت «أسيل» تفحص جميع الفقراء المتواجدين بالبهو حتى انتهت.. ثم عادت لتجلس على أحد الكراسي الفخمة المتواجدة، وأمسكت بقلم وبعض الوريقات، وبدأت تدوّن بعض كلماتها.. والجميع ينظرون إليها في صمت.. لا يُسمع فقط سوى صوت الأنفاس المتسارعة من بعضهم.. حتى نهضت مجددًا، وتحركت نحوهم.. ثم تحركت أمامهم جيئة وذهابا ونظرت إلى فتاة:

- أنتِ.. اخرجي إلى أهلك..

فصرخت الفتاة من الفرحة ثم نظرت «أسيل» إلى فقير آخر:

- وأنت.. عُد إلى أهلك..

فصاح فرحًا.. وواصلت «أسيل» تحركها بينهم، وكلما تحرّكت تشير إلى أحدهم بأن يعود إلى أهله.. حتى توقفت مكانها بعدما لم يتبق سوى أربعة فقراء فقط.. بينهم «خالد» و «جواد»، واحتبست الأنفاس مجددًا، والجميع ينتظرون من هو الأخير الذي سيعود إلى أهله..

«أسيل» تقف أمامهم، و«خالد» ينظر إليها في ترقُّب، و«جواد» ينظر إلى «خالد» وكأنه يوقن بأنه من ستختاره «أسيل»، ويقف بجوارهما فقيران يزداد الوجوم على وجهها.. حتى نظرت إليهم «أسيل»، وأشارت إلى جواد:

-أنت عُد إلى أهلك..

ثم نظرت إلى «خالد» والفقيرين الآخرين:

- أنتم الأكثر فقرًا بينهم.. الزيكولا ستحدد من منكم ذبيح يومنا..

فسقط «خالد» على ركبتيه، ونظر إلى «أسيل»، وكأنه لا يصدق ما سمعته أذناه.. وصاح بصوته:

- «أسيل» ..

فغادرت «أسيل» على الفور، واتجهت إلى غرفتها، وما إن دلفت إليها حتى واصلت بكاءها مجددًا، وتحدّثت إلى نفسها بصوت عالٍ:

- لم أجد أمامي سوى ما فعلته.. لا أستطيع أن أظلم أحدًا.. لا أستطيع..

ثم أغمضت عينيها، وتحدّثت:

- ستنجو من الزيكولا يا «خالد».. ستنجيك الزيكولا.. إنك لا تستحق أن تذبح في مدينتنا.. ستنجو.. ستنجو..

أما «خالد» فقد أمره قائد الحرس بأن يتبعه هو ومن معه إلى قصر مجاور لقصر الحاكم، وسمع «جواد» الذي مازال يقف بجواره يهمس إليه:

- ستذهبون إلى قصر النحَّاتين الآن..

فنظر إليه «خالد» دون أن يرد، ثم تابع «جواد»:

- إن كانتِ الطبيبة تحبك لأبعدتك عن ذلك المصير..

فصاح به قائد الحرس:

- هيا.. أنت.. عليك أن تغادر القصر..

فتحدّث «خالد» إليه:

- عُد إلى حبيبتك يا «جواد».. وإن مِتُّ فابحث عن «يامن»، وأخبره كما قلت لك..

فابتسم «جواد» ثم تركه وغادر، وتحرك «خالد» مُكبل اليديّن والقدميّن خلف قائد الحرس الذى طالبه بأن يسرع.. حتى غادروا قصر الحاكم، واتجهوا إلى قصر مجاور وسط تجمع كبير من أهالي زيكولا الذين وقفوا أمام القصر ليَرَوْا من الذين سيخوضون تلك المنافسة رغم حلول الليل، وما إن رأوا «خالد» والفقيرين الآخرين مكبَّلِين ويتجهون نحو قصر النحاتين حتى صاحوا، وصاح أحدهم بصوت مميز:

- إنه الغريب الذي كان يعمل معنا بتقطيع الصخور..

وصاحت أخرى:

- لقد رأيته من قبل يبحث عن مالك لكتاب غريب..

والجنود يحاولون أن يبعدوا الناس عنهم حتى وصلوا إلى قصر مجاور، ودلفوا إليه، وعلم «خالد» منذ دخوله إلى ذلك المكان بأنه قلعة النحاتين.. حيث يصنع تمثال من الصلصال لكل فقير منهم..

***

كان قصر النحاتين ذا واجهة فخمة، ونقوش خارجية على هيئة تماثيل لأشخاص وحيوانات تظهر خلف النيران المضيئة، والتي توهجت بقوة مع ظلام الليل مما أعطته جمالًا خاصًا كان لينال إعجاب

«خالد» إن لم يكن بتلك المحنة.. أما داخله فقد أُنير بمصابيحَ نارية عديدة، وكأن النهار قد حل به، ولكنه لم يكن يمتلك ذلك الجمال بالخارج، ولم تكن به سوى بضعة تماثيلَ قديمة يبدو أنها نُحِتت لفقراء من قبل.. وكتل طينية بأركان صالاته الكبرى، ورائحة الصلصال تفوح بارجائه.. حتى توقفوا جميعًا حين ناداهم شخص قصير القامة ممتلئ البطن، ورأسه صلعاء، ولحيته طويلة جعل منها ضفيرات صغيرة متعددة:

- عليكم أن تمكثوا هنا.. ثم أكمل:

- سيتولى كل نحّات بعد قليل صناعة تمثال كل منكم..

فتوقفوا جميعهم عن الحركة، وبعد لحظات وجدوا ثلاثة رجال تتراوح أعمارهم ما بين الشباب والكهولة، وقد وقف كل منهم أمام فقير من الثلاثة، و«خالد» ينظر إلى من يقف أمامه وكأنه في حلم عميق، وهزّ رأسه لعله يفيق من ذلك الحلم حتى ناداه من يقف أمامه، ويمسك بأدوات النحت في يده:

- عليك ألا تتحرك أيها الفقير.. أتريد تمثالك مشوّها؟!! ثم ضحك ساخرًا.. وتابع:

- الزمِ السكون.. أمامك أمهر وأسرع نحات بزيكولا.. سأنتهي من تمثالك في زمن قياسي..

فنظر إليه «خالد»، وقد أخرج زفيرًا قويًّا.. ثم بدأ النحّات عمله، وجلب كتلة ضخمة من الصلصال، وبدأ يشكل أجزاءها بعدما يلمح بطرف عينه «خالد»، وبين الحين والآخر يقترب منه ليضع يده على رأسه ، وكأنه يستخدمها للمقارنة بين قياساته.. ثم يعود مجددًا إلى تمثاله الذى بدأت ملامحه تظهر شيئًا فشيئًا..

***

النحاتون يعملون بمهارة وسرعة فائقة.. ويقف «خالد» ومن معه دون حراك.. ينتظر كل منهم أن ينتهي من صنع تمثاله عله يغادر ذلك المكان، وأسرع الوقت من مروره، حتى انتهى النحاتون من عملهم مع شروق الشمس، وقد صنعوا ثلاثة تماثيلَ من الصلصال يشبهون أصحابهم، وقد نظر «خالد» إلى تمثاله الذى كان يقف شامخًا، وتعتلي وجهه نظرة حزن واضحة، وهزّ رأسه في حزن ثم نظر إلى أحد الفقيرين بجواره:

- ماذا سنفعل الأن بعد نحت تماثيلنا؟

فرد الفقير بصوت واهن:

- لم يعد لنا سوى أن نخوض منافسة الزيكولا..

فسأله «خالد»:

- هل سنخوضها الآن؟

فرد قائد الحرس:

- لماذا تتعجل أيها الفقير؟!

إنَّ الوقت مازال باكرًا.. ستكون المنافسة بعد ساعات من الآن.. حين تكون الشمس عمودية.. أي منتصف النهار.. ثم أكمل:

مع شروق شمس اليوم فُتح باب زيكولا، وهناك الكثيرون ممن كانوا بخارجها، واشتاقوا إلى احتفالاتنا مرة أخرى، وسيستغرق مجيئهم إلى هنا العديد من الساعات..

فتمتم «خالد»:

- فُتح باب زيكولا؟!!!

ثم تجاهل ذلك الأمر، وسأل قائد الحرس:

- إنني لا أتذكر جيدًا ماذا سنفعل في تلك المنافسة.. لقد أخبرني أصدقائي من قبل عنها.. ولكنني لم أعد أتذكّر..

فضحك القائد ساخرًا:

- أيها الفقير ستحدد الزيكولا مصيرك.. كي لا تقول إن الطبيبة هي من أختارت لك الموت.. ما عليك سوى أن تختار ثلاثة أماكن من تمثالك هذا، وتحميهم بدروع صغيرة، وستُطلق سهام الزيكولا نحو تمثالك.. وإن أصابتك سهام أكثر من غيرك كنت أنت ذبيح يومنا..

فصمت «خالد» مجددًا، ونظر إلى أعلى:

- يارب ساعدني..

***

مر الوقت، واقتربتِ الشمس من تعامدها ظهرًا على الأرض، واجتمعت الألوف من أهالي زيكولا بساحة كبيرة بالمنطقة الوسطى، واصطفوا أمام منصّة خشبية عالية، وأخذوا يرقصون، ويغنون، وينشدون الأهازيج، وحمل الكثيرون منهم أطفالهم فوق أكتافهم حتى أشار أحدهم إلى طفله:

- أنظر.. إنها الزيكولا..

ثم أشار إلى المنصة حين قام مجموعة من الجنود بإزاحة قطعة قماشية كبيرة.. كانت تخفي أسفلها عمودَين خشبيَّين سميكين

ومتوازيَين، ويصل طول كل منهما إلى ثلاثة أمتار، وبينهما قرص خشبي دائري يصل قطره إلى ما يقارب مترًا واحدًا، وتبرز منه ثلاثة أسهم طويلة، وتظهر من خلفه تروس حديدية تتباين أحجامها، ويزداد لمعانها تحت آشعة الشمس، وبجوار تلك الآلة يقف رجل ضخم حليق الرأس، لا يرتدي سوى بنطالًا واسعًا، وتبرز عضلاته القوية، وذراعه الضخم الذي يمسك بذراع حديدي قد امتد من أحد العمودين الخشبيَّين للزيكولا، ويمسك ذراعه الآخر بذراع خشبي أقل طولًا، ويتصل مباشرة بشريط يخرج من القرص الخشبي.. حتى صاح الجميع حين دقَّتِ الطبول، وظهر الحاكم بشرفة قصره.. تجاوره زوجته وعلى ذراعيها رضيعها، وتجاورهما «أسيل»، والتي وقفت واجمة والقلق ينبعث من عينيها.. ثم جلسوا جميعًا ينتظرون بدء المنافسة..

***

الجميع ينتظرون.. الجميع يتراقصون، و«أسيل» تنتظر أن ترى «خالد».. يدق قلبها بقوة.. تنظر إلى السماء مجددًا، وتتحرك شفتاها متمتمة بهمسات غير مسموعة.. حتى وجدتِ الجنود يحملون التماثيل الثلاثة، ويصعدون بها إلى المنصّة الخشبية، ويسير من خلفهم «خالد»

ومن معه فتسارعت أنفاسها، وهللت الألوف المتواجدة حين وجدوهم يصعدون المنصة..

بعدها التفت قائد الحرس إلى شرفة قصر الحاكم، وانحنى إليه فأشار إليه بأن تبدأ المنافسة، فالتفت مجددًا إلى «خالد» والفقيرين معه.. ثم أشار إلى أحد الفقيرين:

- ستبدأ أنت.. أين ستضع دروعك الثلاثة؟

فنظر إليه الفقير في صمت.. ثم تقدم بعدما فُكَّت قيوده، ونظر إلى الزيكولا، ثم التفت إلى تمثاله، ونطق:

سأحمي ذراع تمثالي الأيمن من أعلى، وفخذ تمثالي الأيسر، وأسفل بطنه

فصاح قائد الحرس بأحد جنوده:

- ضع دروعه كما أراد..

فوضع الجندي دروعًا حديدة صغيرة تلائم الأماكن التي أرادها الفقير.. ثم حمل التمثال ومعه جندي آخر إلى أمام الزيكولا.. لا تفصلهما سوى أمتار قليلة..

صمتت الأهازيج، وصمت من يتواجدون، وكأن أنفاسهم قد حُبست، ثم نطق قائد الحرس مجددًا إلى الفقير:

- سينطلق كل سهم من سهامك الثلاث حين تشير إلى حارس الزيكولا..

فرد الفقير بصوت واهن:

- حسنًا..

ثم أشار القائد مجددًا إلى الرجل الضخم الذي يمسك بذراع الزيكولا الحديدي بأن يحرك أحد ذراعيها.. فابتسم الرجل مبرزًا أسنانه الصفراء الكبيرة.. ثم جذب الذراع الحديدي نحوه فبدأت التروس الحديدية تتحرك ببطء، وتسرع من حركتها شيئًا فشيئًا، ويتحرّك معها القرص الخشبي وما عليه من سهام، حتى زادت سرعته كثيرًا، وأصبح يدور دون أن تظهر ما عليه من سهام، ويدور حول نفسه ثم يتنقل بين العمودين الخشبيَّين في حركة عشوائية، لا يستطيع أحد توقّعها، و«خالد» ينظر إلى ذلك القرص، وقلبه يدق بقوة، ويحدّث نفسه:

- مستحيل أن أحدد اتجاه السهام..

حتى أشار الفقير الأول إلى حارس الزيكولا فجذب الرجل الذراع الخشبي القصير على الفور.. فانطلق السهم الأول نحو تمثاله فأصاب عنق التمثال.. فصاح الحضور.. ثم أكمل القرص دورانه،

وبعد لحظات أشار الفقير مجددًا إلى الحارس فانطلق السهم الثاني فاخترق ذراعه الأيسر، فصاح الناس مجددًا، وظهر التوتر على وجه الفقير، ونظر إلى الزيكولا كثيرًا، وإلى قرصها الذي يدور .. ثم أشار إلى الحارس من جديد فانطلق سهمه الأخير فاصطدم بدرعه الحديدي فوق أسفل بطن تمثاله.. فزاد صياح أهالي زيكولا، ودُقت الطبول، وابتسم الفقير قليلًا بعدما لم يصب تمثاله سوى سهمان.. ثم أشار قائد الحراس إلى الفقير الآخر:

- هيا تقدم لتحمي تمثالك..

فتقدم هوالآخر، وفعل مثلما فعل الفقير الأول، وكلّما أشار إلى حارس الزيكولا صاح الناس مجددًا.. حتى صاحوا حين انتهى من سهامه الثلاث، ولم يصب تمثاله سوى سهم واحد اخترق بطنه السفلى، وقد رقص فرحًا مع دقات الطبول بعدما أيقن أنه قد نجا بذلك.. حتى أشار قائد الحرس إلى «خالد»:

هيا، لم يعد سواك.. إما أن تنجو بألا يصيب تمثالك سهام، أو يصيبه سهم واحد.. أو يصيبك سهمان فتُعاد المنافسة بينك وبينه.. ثم أشار إلى الفقير الأول.. أما غير ذلك فستكون ذبيح غد..

فتقدم «خالد» نحو تمثاله، ووقف أمامه دون أن يفعل شيئًا..

فصاح به القائد مجددًا:

- هيا.. أسرع..

فنظر «خالد» إلى قرص الزيكولا، والذي زُرعت به السهام من جديد.. ثم نظر عاليًا إلى شرفة قصر الحاكم حيث تجلس «أسيل».. بعدها نظر إلى تمثاله، وأغمض عينيه، وتمتم بآيات قرآنية ثم فتحهما، ونظر إلى القائد:

- أريد أن أضع دروعي كي تحمي صدر تمثالي، وعضد ذراعه الأيسر.. ثم صمت مجددًا، ونظر إلى الزيكولا ثم التفت إلى تمثاله:

- وأريد أن أحمي رأس تمثالي..

فأشار القائد إلى جنوده بأن ينقلوا تمثاله أمام الزيكولا، وأن يضعوا دروعه مثلما أراد.. ثم أمر حارس الزيكولا بأن يبدأ دوران قرصها.. فبدأت التروس تتحرك من جديد، و«خالد» يراقب القرص الذي يدور مسرعًا، ويتحرك بين العمودين الخشبيَّين.. حتى سمى الله ثم أشار إليه فانطلق السهم الأول فصاح الجميع حين أصاب فخذ تمثاله الأيمن.. فدقّ قلب «خالد» بقوة، ودقّ قلب «أسيل»، وانتفض وكأنها تسمع

دقّاته، والقرص يواصل دورانه، و«خالد» لا يعلم ماذا يصنع.. لا يرى تلك السهام بالقرص، وأيهما سينطلق.. ثم أشار إلى الحارس مجددًا فانطلق السهم الثانى فأصاب فخذه الأيمن مرة أخرى.. فأمسك «خالد» برأسه، وحدّث نفسه، وكأن أنفاسه قد تقطعت:

- تمالك يا «خالد».. تمالك..

- عليك أن تفكر قليلًا.. لم يعد سوى سهم واحد.. إما أن تُعاد المنافسة.. وإما إن تكون ذبيح غد..

و«أسيل» تحدّث نفسها:

- تمالك يا «خالد».. تمالك..

ثم نظر إلى القرص مجددًا، والجميع أنفاسهم محتبسة.. ينتظرون إشارته الأخيرة، وحارس الزيكولا يبتسم، ويتأهّب كي يجذب ذراعها، ومازالت عينا «خالد» تتحرك مسرعة بين قرص الزيكولا وبين تمثاله الواقف أمامه، و«أسيل» تتمتم وتتحرك شفتاها في توتر، وتلمع عيناها بالدموع .. حتى أنها لم تستطع أن تواصل جلوسها، ونهضت لتقف مكانها، وأغمضت عينيها بعدما وجدت «خالد» يشير إلى حارس الزيكولا بأن يطلق سهمه الأخير...

(١٩)

أشار «خالد» إلى حارس الزيكولا بأن يطلق سهمه الأخير.. وقد احتبست أنفاسه حين بدأت يد الحارس تجذب ذراع الزيكولا ثم انطلق السهم الثالث فأصاب فخذ تمثاله الأيمن مرة أخرى.. فصاحت الألوف المتواجدة بأنه ذبيح زيكولا، ودقت الطبول من جديد وقد اختلفت دقاتها عما قبل المنافسة، و«خالد» ينظر إلى تمثاله في ذهول وقد أحمرّ وجهه وزاد العرق على جبينه، ثم نظر إلى من يرقصون ويحتفلون وكأنه لا يصدق نفسه، وحدّث نفسه في ذهول:

- أنا؟!! سأذبح غدًا؟!!

تتسارع أنفاسه، ويدق قلبه بقوة، ويضع يده حول رقبته يتحسسها وكأنه في كابوس يود أن ينتهي منه، أما «أسيل» فقد غادرت شرفة الحاكم على الفور بعدما لم يستطع «خالد» النجاة من الزيكولا، وقد أثار مغادرتها فجأة دهشة الحاكم وزوجته، و أسرعت إلى حجرتها تحدّث نفسها:

- لو وضعت دروعك لتحمي فخذ تمثالك الأيمن لنجوت..

- ماذا أفعل؟.. سيذبح غدًا..

ودموعها على وجهها، وتسرع وعقلها لا يتوقف عن التفكير، وتتحدث الى نفسها مجددًا بصوت مسموع:

- أنا من سبّب كل ذلك..

- أنا من أخبرته عن مكان رأس المثلث..

- أنا من تركته يدفع من وحداته الكثير دفعة واحدة دون أن أوقفه..

- كان لي الحق أن أعترض على ذلك..

- أنا من دفعت به إلى الزيكولا..

ثم دلفت إلى حجرتها، وما زالت تصيح إلى نفسها..

- ماذا أفعل؟.. ماذا أفعل؟.. سيذبح من أحبه غدًا..

- ثم وضعت رأسها بين يديها، وصمتت وكأن أصابها الهدوء..

***

أصبح الطريق الممهد بين المنطقة الوسطى والمنطقة الشرقية مزدحم بالكثير من العربات والأحصنة والمشاة من أهالي زيكولا بعدما بدأ الكثيرون منهم ينتقلون إلى المنطقة الشرقية حيث أرض الاحتفال،

وكانت بينهم عربة بها «خالد» مكبل اليدين والقدمين، وأمامه قائد حرس الحاكم، والذي نظر إلى «خالد»:

- ستبيت الليلة ببيت فقراء المنطقة الشرقية..

فلم يرد «خالد»، وظل صامتًا فأكمل القائد:

- عليك أن تسعد بها أنت به.. ستموت فداءً لمولود الحاكم..

- ترى كم ستجلب السعادة لكل هؤلاء الأشخاص..

ثم أشار إلى خارج العربة، وصمت ثم أكمل بعد لحظات:

- أترى ذلك الزحام؟.. إنه ليس الزحام الأكبر.. إن الكثيرين لم يحضروا الزيكولا اليوم.. هناك من خرجوا بعد فتح باب زيكولا.. ولكن مع شروق شمس غد سيغلق بابها، وسترى كم من أهل زيكولا سيحتفلون معك بيوم عيدنا..

فصاح به «خالد» غاضبًا:

- أريدك أن تصمت.. أريدك أن تصمت..

فظهر الغضب على وجه قائد الحرس، وتقوّست حاجباه ثم صمت، وتابع «خالد» نظره عبر نافذة العربة..

***

مرّ الوقت، وقد وصلت العربة إلى المنطقة الشرقية مع غروب الشمس، ومرت أمام البحيرة التي طالما مكث «خالد» على شاطئها ثم أسرعت بأحد شوارع تلك المنطقة حتى توقفت أمام بيت يتواجد أمامه الكثير من الجنود فنظر القائد إلى «خالد» في غلظة:

- هيا.. لقد وصلنا بيت الفقير..

***

مازالت «أسيل» بحجرتها بقصر الحاكم.. تجلس على أرضية الحجرة مسندة ظهرها إلى الحائط، وتنظر إلى أوراق «خالد» أمامها حتى نهضت، وأحضرت ورقة جديدة، وأمسكت بقلمها، وأزادت من إضاءة المصباح الناري، وكتبت:

- سيموت من أحبه غدًا..

- وأنا من سيحتفل..

ثم توقفت يدها عن الكتابة، ونظرت إلى ما كتبته فمزقت الورقة ثم نهضت لتتحرك جيئة وذهابًا، والتوتر يكسو وجهها حتى نظرت خارج شرفتها فوجدتِ الظلام قد حل، وبدأت الألعاب النارية تضيء سماء زيكولا، ثم سمعت صوت وصيفتها يأتيها من الخارج:

- سيدتي.. سيدي الحاكم يسألك إن كنت تودين الذهاب ضمن موكبه غدًا إلى المنطقة الشرقية..

فلم تجبها «أسيل» ثم حملت أوراق «خالد» وأوراقًا أخرى معها، وهمت لمغادرة الحجرة..

***

زُجَّ بـ«خالد» إلى إحدى غرف بيت الفقير بالمنطقة الشرقية، وظل قابعًا بها وسط ظلامها.. ينام على جنبه، لا يستطيع أن يفكر في شيء.. يستمع إلى صوت الألعاب النارية بالخارج، وإلى احتفالات الأهالي، ولكنه لا يرى أمامه سوى الذبيح الذي أطاح السياف برأسه .. لا يعلم هل يريد أن يمر الوقت سريعًا كي تنتهي تلك اللحظات التي يعيشها.. أم يمر ببطئ لعل تلك اللحظات تحمل أملًا جديدًا.. حتى فُتح باب الغرفة، ودلف إليه أحد الجنود، ومعه رجل آخر قصير القامة، وتحدث الجندي إلى «خالد»:

- أيها الفقير.. انهض..

- ستحلق رأسك الآن..

فرد «خالد» مندهشًا: - ماذا؟!!

فأكمل الجندي: - لابد وأن يكون ذبيح زيكولا حليق الرأس..

فصمت «خالد».. ثم أشار الجندي إلى من معه بأن يستعد لبدء عمله فاقترب من «خالد»، والذي بدا عليه اليأس والاستسلام، ولم يتحرك.. ثم وضع على رأسه مادة خضراء لزجة أخرجها من وعاء زجاجي بحقيبته، وبدأ يدلِّكها بين شعر «خالد» الطويل، ويضع المزيد منها، ويزيد من تشبُّع الشعر بها، ثم وضع القليل منها على لحيته، ودلّكها هي الأخرى، ثم أخرج آلة حادة تشبه السكين الصغير، ولكنها أقل سُمكًا، وبدأ يحلق شعر «خالد» والذي بدا عليه الاستسلام كصاحبه، وتساقطت خصلاته بجواره متلاصقة، و«خالد» يجلس صامتًا.. ينظر إلى الجندي أمامه، وكلما سأله الحلّاق عن شيء لم يجبه.. حتى انتهى الحلاق من رأسه، ثم أسرع فقصّ لحيته، وابتسم إلى «خالد»:

- لقد انتهينا أيها الفقير..

ثم أخرج سطحا لامعًا من حقيبته:

- انظر إلى نفسك..

ثم وضعه أمامه بمكان تتخلّله الإضاءة عبر باب الغرفة، فلمح «خالد» نفسه وقد أُزيل شعر رأسه ولحيته بالكامل.. وبدا وكأنه أصلع

الرأس فهزّ «خالد» رأسه في حزن، ثم تحرّك بجسمه إلى ركن بالغرفة، ونام على جنبه مجددًا واضعًا ذراعيه أسفل رأسه..

***

مرّت ساعات قليلة، واقترب فجر يوم زيكولا، وقد سيطرت الدهشة على قصر الحاكم بعدما اختفتِ الطبيبة فجأة، ولا أحد يعلم أين ذهبت.. إن غادرت فلماذا تركت أغراضها بحجرتها؟!.. لا يعلمون أنها قد وصلت إلى المنطقة الشرقية، واتجهت إلى بيت الفقير حتى أوقفها أحد الجنود فابتسمت إليه:

- أنا طبيبة زيكولا، وأريد أن أرى الفقير الآن..

- فصمت الجندي ثم أجابها:

- حسنًا سيدتي.. ولكن عليكي المغادرة سريعًا..

ثم فتح باب الغرفة، ودلفت إليها.. فوجدت «خالد» نائمًا فاتحًا عينيه بأحد أركانها، وقد حُلِق رأسُه.. فحاولت أن تتمالك نفسها، وأن تمنع سقوط دموعها.. ثم جلست بركنٍ آخر بالغرفة دون أن تتحدث، ومرت دقائق وهي تنظر إليه، وكلما أرادت أن تتحدث تصمت مجددًا، و«خالد» ينظر إليها صامتًا.. حتى نطقت:

- كيف حالك يا «خالد»؟

فلم يرد «خالد» فصمتت مجددًا ثم أكملت بصوت هادئ:

- كنت أحذّرك دومًا حين كنت تفقد ذكاءك..

- أنقذت الفتى، ولم تأخذ مقابلًا..

- أنقذت الطفل من المرض، ولم تقبل أن تأخذ شيئًا مقابل الخير..

ثم علا صوتها، واختلط صوتها بالدموع:

- أخبرتك أننا في زيكولا.. لابد أن تأخذ مقابلًا لكل شيء..

ثم صمتت قليلًا، ورشفت بعض دموعها:

- أرى أنك غاضب مني.. ثم تابعت:

- ولكنني أعلم أنك تحب الخير..

-أريدك فقط أن تسأل نفسك.. هل كنت ستظلم أحدًا آخر إن كنت مكاني..

ثم نظرت إليه، وعلا صوتها مجددًا:

- لماذا لا تحب؟!!

ثم نهضت، وتحركت نحوه، واقتربت منه.. وأكملت:

- أعلم أنك تحبني يا «خالد»، ولكن عليك أن تضاعف حبك الكثير من المرّات كي تعلم كم أحبك..

فنهض «خالد» من نومته، وجلس في مكانه ثم تابعت «أسيل»:

- «خالد».. لن أتركك تموت هنا..

فرد «خالد» في ضعف، وقد أسند رأسه إلى الحائط:

- ماذا ستفعلين؟.. هل ستعطينني من ذكائك؟!!

- وإن كنتِ ستعطينني.. فمقابل ماذا ؟!.. لا أمتلك شيئًا أُعطيه لك مقابلًا..

ثم ضحك ساخرًا، ونظر إلى سقف الغرفة:

- أعلم جيدًا أنه في تلك المدينة لابد أن يكون هناك مقابلًا لانتقال الذكاء..

ثم تحدّث في هدوء:

- اذهبي، واحتفلي غدًا مع من يحتفلون.. إنهم ينتظرون وَرْدَك غدًا.. إنهم ينتظرون ابتساماتك إليهم..

- فصمتت «أسيل» حتى دلف الجندي إلى الغرفة، ونظر إليها:

- سيدتي.. عليكِ أن ترحلي الآن..

فنظرت «أسيل» إلى «خالد» ثم بدأت تخطو خارجة من الغرفة.. وما إن وصلت بابها، وكاد الجندي يغلقه حتى أسرعت عائدة إلى «خالد»، ونظرت إليه، ووضعت رأسه بين كفيها:

- «خالد».. أريدك أن تقبِّلني..

فنظر إليها «خالد»:

- ماذا؟!!

فأكملت:

- أريدك أن تقبِّلني فحسب..

ثم تساقطت دموعها من جديد:

- أريدك أن تقبِّلني يا «خالد».. إن كنت تحبني حقا فقبِّلني..

فصمت «خالد» فابتسمت والدموع تملأ عينيها:

- حسنًا.. سأقبِّلك أنا..

ثم بدأت تقبِّله، والجندي ينظر إلى ما تفعله «أسيل» في دهشة، ويبتسم وكأنه يتمنّى لو كان هو الفقير بعدما طالت قُبلة «أسيل» وكأنها لا تأبه بشيء مما حولها.. حتى انتهت ثم نظرت إلى «خالد» مرة أخرى، وغادرت على الفور..

أشرقتِ الشمس، وأُغلق باب زيكولا، وتعالت مع غلقه دقات الطبول حتى فُتح باب غرفة «خالد»، وتقدم إليه قائد الحرس:

- هيا.. ستبدأ الاحتفالات بعد قليل..

ثم أمر جنوده بأن يحضروه، وأركبوه عربة يغطّيها قماش أسود اللون يستطيع «خالد» أن يرى الناس من خلال فتحة صغيرة به دون أن يراه من خارج العربة.. وتحركت العربة، و«خالد» ينظر إلى الكم الهائل من الناس الذين يسيرون بانتظام، ويرتدون ملابس تبدو جديدة.. الرجال يمسكون بأيدي النساء.. والفتيان يمسكون بأيدي الفتيات.. ويسيرون في فرحة شديدة.. يضع كل منهم حول رقبته عقدًا من الورد، وتظلهم الموسيقى التي يعزفها مجموعة من الأشخاص أصحاب زي مختلف.. ثم نظر حزينًا إلى الشبان الذين يمتطون أحصنتهم وخلف كل شاب فتاته تلف يدها اليسرى حول خصره واليمنى تمسك بها ورد وتلوح بها.. ينظر إلى الحركات البهلوانية ويزيد حزنه بأنهم يحتفلون بذبحه.. يتحدث إلى نفسه بأنه قد احتفل معهم منذ شهور بذبح فقير غيره.. إنهم لا يشعرون بما يشعر به الآن..

تسير العربة وسط الزحام، وقلب «خالد» يدق بقوة حين يجد الصبيان يشيرون إلى عربته ذات القماش الأسود، ويصيحون:

- انظروا.. إنها عربة الذبيح..

والذين صاحوا مجددًا حين أشاروا إلى عربة فخمة تسير بالموكب:

- إنها عربة الطبيبة.. هيا لنلتقط الورد..

و«خالد» ينظر إليهم في أسى، ويتذكر حين التقط وردة «أسيل» وابتسمت إليه حتى أصابته الدهشة بعدما ظهرت فتاة أخرى غير «أسيل»، وبدأت تلقى بالورد وسط تعجّب من يسيرون، وأكمل الموكب مسيره.. حتى وصل الجميع إلى ساحة الاحتفال..

***

ألوف من أهالي زيكولا متواجدون .. الجميع يقفون أمام منصة الذبح ينتظرون وصول الحاكم كي يبدأوا الاحتفال.. و«خالد» يمكث بعربته، يعلم أنها لحظات وسينتهي كل شيء.. الجميع يتراقصون.. الفتيان يداعبون الفتيات، والفتيات ترقصن وتهتز أجسادهن مع الموسيقى، وتبدو عليهن السعادة الشديدة، والزحام بكافة أرجاء ساحة الاحتفال، وبينهم «يامن» الذي يتحرّك بصعوبة، ويريد أن يصل إلى

الصفوف الأمامية القريبة من المنصة، وقد بدا عليه التعب الشديد، وربما كان الوحيد بين من يحتفلون، الذي لا يرتدي ملابس تليق بذلك الاحتفال.. بل كانت ملابسه بالية تلائم وجهه الذي يكسوه الحزن.. حتى سألته فتاة:

- لماذا لا ترقص؟!

فلم يجبها، وأكمل سيره وسط الزحام.. حتى دقت الطبول، وعلا معها صوت النفير بعدما وصل الحاكم وزوجته ومساعديه، واتخذوا أماكنهم بسرادق فخم مرتفع أمام منصة الذبح ثم صعد رجل ضخم إلى المنصة الخشبية وبيده سيف طويل، ونظر إلى الحاكم وانحنى له.. بعدها دقتِ الطبول كثيرًا، وصمتتِ الموسيقى، وصعد جنديَّان أقوياء يجرّان «خالد» حليق الرأس، مكبَّل اليدين والقدمين.. فدقتِ الطبول مرة أخرى، ونزل أهل المدينة جميعهم على ركبهم بعدما أُسقط «خالد» على ركبتيه، والناس ينظرون إليه، وبينهم «يامن» الذي آثر أن يغمض عينيه ثم نظر السياف مجددًا إلى الحاكم فأشار إليه بأن يتابع عمله، وكاد يوخِزُ ظهر «خالد» كي يشهق برأسه.. حتى صاح فتًى بين من يقفون:

- إنه غني.. إنه غني..

فنظر إليه «خالد» فوجده ذلك الفتى الذي أنقذه من الغرق من قبل.. ثم صاح رجل آخر:

- نعم.. إنه ليس فقيرًا..

ففتح «يامن» عينيه.. ثم نظر إلى «خالد» فوجده ليس شاحبًا.. فصاح هو الآخر:

- نعم.. إنه ليس فقيرًا..

و«خالد» ينظر إلى ذراعيه في دهشة، وقد زال شحوبها، ثم وجد الفتى يسرع إلى المنصة ويجثو على ركبتيه بجواره، ويتحدث إلى الحاكم ومن معه، وقد علا صوته:

انظروا إليه.. إنه ليس فقيرًا.. وأنا أيضًا لست فقيرًا.. إن كنتم تريدون إن تذبحوا من ليسوا فقراء احتفالًا بمولودكم.. فاذبحوني معه..

ثم فوجئ «خالد» بأم الصبي الذي أنقذه من ضربة الشمس تسرع مع طفلها إلى المنصة، وتجثو على ركبتيها، وصاحت:

- لقد أنقذ هذا الشاب ولدي، ولن أتركه يموت ظلمًا.. حسنًا أنا وولدي لسنا فقراء أيضًا.. فاذبحونا معه..

ثم صاحت فتاة بين من يقفون بالأسفل، وكانت فتاة الليل بالمنطقة الشمالية:

- أقسم أنه ليس فقير.. أنا أعرف هذا الشخص جيدًا.. أنظروا إلى جلده.. كيف يكون هذا جلد فقير..

ثم صاح «يامن» مجددًا:

- منذ متى يذبح الأغنياء هنا..

حتى فوجئ بجميع من كانوا يعملون معه بتكسير الصخور يصيحون جميعًا:

- إنه ليس فقيرًا.. إنه ليس فقيرًا..

وسادتِ الضوضاء ساحة الاحتفال، وصعد الكثيرون إلى المنصة، وسقطوا على ركبهم بجوار «خالد»، وجميعهم يقولون إن كان سيذبح فإنهم يريدون أن يذبحوهم أيضًا طالما تواجد الظلم بذلك اليوم.. حتى نظر السياف إلى الحاكم، وكأنه لا يدري ماذا يفعل بعدما امتلأتِ المنصة بالكثير من عمال زيكولا.. فنهض الحاكم، وسأل أحد مساعديه:

- أين طبيبة زيكولا؟

فأجابته إحدى الوصيفات:

- ليس لها وجود منذ الأمس سيدي..

فصاح إلى مساعده:

- أريد طبيب تلك المنطقة على الفور..

فتقدم أحد الأشخاص، وانحنى إليه ثم تحدث:

- أنا طبيب المنطقة الشرقية بعد الطبيبة «أسيل»..

فنظر إليه الحاكم:

- أريدك أن تخبرني كم يمتلك هذا الشاب من ذكاء..

فانحنى إليه الطبيب مجددًا:

- حسنًا سيدى..

ثم اتجه الطبيب إلى المنصة، واقترب من «خالد»، والصمت قد خيم على الجميع.. يترقبون ذلك الطبيب، وقلب «يامن» ينتفض بقوة واحتبست أنفاسه.. وهو يراه يضع يده على جلد «خالد»، ويمسك بثنياته ثم نظر إليه كثيرًا.. ثم عاد إلى الحاكم مجددًا:

- سيدي إنه ليس فقيرًا.. إنه يمتلك الكثير من وحدات الذكاء تجعله أكثر ثروة من الكثير من أهالي زيكولا..

فسأله الحاكم:

- وكيف لم ينجُ من الزيكولا..

فابتسم الطبيب:

- نعلم جميعًا إن الزيكولا تمثل القدر سيدي.. وقد لا ينجو منها أكثرنا ثروة..

فصمت الحاكم ثم نظر إلى الطبيب مجددًا:

- ولماذا اختارته الطبيبة، وهو يمتلك تلك الوحدات من الذكاء.. أتريد أن يكون الاحتفال بولدي بأن أظلم أحدًا..

ثم تابع:

- إنها بما فعلته خائنة لزيكولا..

ثم نظر إلى أحد مساعديه:

- لم تعد تلك الفتاة طبيبة زيكولا بعد اليوم.. بل لم يعد لها مكان بزيكولا.. لا يوجد بيننا مكان لخائنة..

ثم نظر إلى «خالد» الذي كان يترقب الحاكم دون أن يسمع حديثه بينه وبين مساعديه وطبيبه:

- لقد عفونا عنك يا بني.. إننا لا نظلم أحدًا.. ليست زيكولا أرضًا للظلم.. سيكون مولودي أكثر سعادة وفخرًا باحتفالك معنا..

ثم أمر قائد الحرس بأن يطلق سراحه.. فصاح الجميع مهللين، وأسرع «يامن» إلى المنصة، واحتضن «خالد»، ودموعه تتساقط:

لقد نجوت يا صديقي.. لقد فعلتها.. كنت أعلم أنك ستنجو..

ثم اقترب «خالد» من ذلك الفتى الذي صعد إلى المنصة فابتسم الفتى، واحتضنه:

- مبارك عليك أيها القوي..

فابتسم «خالد»، وعيناه تلمعان بالدموع:

- لقد أنقذت حياتي..

فابتسم الفتى:

-أنت من أنقذت حياتي أولًا..

ثم بدأتِ الاحتفالات من جديد، وتعالتِ الموسيقى والتي بدت وكأنها أكثر بهجة.. وبدأت الفتيات ترقصن من جديد.. والكثير من أهل زيكولا يتجهون إلى «خالد» ليصافحوه، و«خالد» يسير بينهم، وتتقلب عيناه بكل مكان.. يتحرك بين الزحام بصعوبة.. يبحث عن شخص واحد لا يريد سوى أن يجده.. إنها «أسيل».. يتحرك في كافة الاتجاهات يتمنى أن يجدها.. ويسأل كل من يقابله.. هل رأيت

الطبيبة.. والموسيقى تتزايد، و«خالد» يبحث بين الفتيات، وكلما وجد فتاة تشبهها يقترب منها.. حتى يعتذر حين لا يجدها هي.. حتى أصابه اليأس، وغادر ساحة الاحتفال، وجلس على جانب أحد الشوارع وحيدًا بعدما فقد «يامن» وسط الزحام، وظل يفكر بما حدث له، وكأنه لا يَعِي شيئًا مما عاشه، وينظر إلى ذراعيه مجددًا، ويسأل نفسه كيف حدث ذلك ؟.. وأين «أسيل» ؟.. ولماذا لم تحتفل مع أهل زيكولا كعادتها؟.. حتى اقتربت منه طفلة صغيرة:

- سيدي.. عليك أن تذهب إلى البحيرة الآن..

فابتسم «خالد» إليها:

- لماذا؟

فابتسمتِ الطفلة ثم جلست بجواره، وأكملت :

-لا أعلم.. لقد أخبرتني الطبيبة بالأمس.. بأن أخبر من ينجو من الذبح بأن يذهب إلى البحيرة...

***

(٢٠)

اتسعت حدقتا عيني «خالد» بعدما سمع هذه الكلمات: الطبيبة؟!!.. «أسيل» ..

ثم أسرع عَدْوًا إلى البحيرة.. يدق قلبه بقوة.. لا تنطق شفتاه سوى بكلمة واحدة.. «أسيل».. وينطلق بين من يحتفلون، ويرتطم بهم ثم ينحني لهم ليقدم اعتذاره.. ثم ينطلق مجددًا، وقد ارتسمتِ البسمة على وجهه .. حتى وصل إلى شاطئ البحيرة، وظل يبحث عنها بكل مكان به، وصاح بصوته.. «أسيل».. «أسيل».. ولكنه لم يجدها، وظل يصيح بصوته يناديها، ولكن دون جدوى حتى اقترب من شجرته التي طالما جلس بجوارها، وقد بدا على وجهه الحزن، فلمح ورقة قد عُلِّقت بتلك الشجرة، وتتحرك مع الرياح، فالتقطها على الفور فوجدها تبدو كرسالة تركتها «أسيل».. وقد كتبت بها:

(لا أعلم كيف أبدأ حديثي.. ولكنني أتمنى أن تقرأ كلماتي تلك يا «خالد».. ربما لست ماهرة في الكتابة مثلك.. ولكنني أريد فقط أن أُعَبِّر عما يدور بذهني.. أريدك أن تعلم كم كنت أحبك.. لقد أحببتك منذ رأيتك تنقذ الفتى من الغرق.. وأنت من جعلني أشعر بالأنانية بعدما لم

أردك أن تغادر وتترك زيكولا.. كنت أظهر لك مساعدتي، ولكنني لم أتمن لحظة واحدة أن تغادر...

«خالد» لم أستطع أن أراك ذبيح زيكولا، وأظل أنا أحتفل بذلك اليوم.. أريدك بعد أن نجوت أن تخبر غيرك بأنك تمتلك أغلى كتاب بتاريخ زيكولا.. كما أنك تمتلك أيضًا أغلى قُبلة بتاريخها..

أتتذكر حين أخبرتني أنك لا تمتلك شيئًا تنال مقابله وحدات ذكاء.. إنك لا ترى ما تمتلكه يا «خالد».. لقد رأيت ذلك.. كانت تكفيني تلك القُبلة كي أدفع لك أغلى الأثمان مقابلًا لها.. كي تنجو من ذلك اليوم، وتعود إلى حبيبتك ذكيًّا كما كنت.. أريدك فقط أن تعود إليها وتعيشا سعيدَين.. أنا أعلم أنها لن تجد مثلك، وأعلم أيضًا أنك لن تستطيع العيش هنا، وأعلم جيدًا أنني لن أستطيع العيش بعالمك.. عُد إليها، وأتمنى أن تتذكّرني بين الحين والآخر..

ربما تجد ذلك النجم بالسماء.. فإن وجدته فأعلم أنني أراه أيضًا وأتمنى لك السعادة وقتها.. أعتقد أنني لن أترك السماء ليلة دون أن أتأمّلها بحثًا عن ذلك النجم..

لقد أخبرتك أنني إن تركت زيكولا سأتركها لسبب قوي للغاية ولا أعتقد أنني سأجد سببًا أقوى من إبقائك على قيد الحياة، وأريدك أن

تخبر «يامن» أنني أعلم جيدًا أنه من يحب سيفعل كل شيء من أجل من يحبه..

سأذهب إلى بلدي بيجانا، وسأعمل هناك طبيبة أيضًا.. أعلم أنهم في حاجة إليّ، وسأخبرهم دومًا عن ذلك الشاب الذي أتى إلى زيكولا، وعمل الكثير من الخير دون أن يتقاضى مقابلًا له..

في النهاية اسمح لي يا «خالد».. لقد احتفظت بأوراقك التي طالما جعلتني أشعر بسعادة لم أذقها من قبل.. وأتمنى أن تكون قد شعرت بكلماتي، وأعلم أنني لست ماهرة بالكتابة.. ولكن عليّ أن أرحل الآن قبل أن تشرق الشمس، ويغلق باب زيكولا..

فهمس «خالد» إلى نفسه هائمًا:

- باب زيكولا..

ثم أسرع يعدو تجاه باب زيكولا.. يجري ولا يشعر بشيء من حوله.. يجرى ولا تدور برأسه سوى كلمات «أسيل».. يجري مسرعًا كأنه لم يجرِ من قبل.. يتمنى أن تنقله الرياح إلى ذلك الباب.. من يراه يندهش، ويرتطم بهذا وذاك.. ويواصل عَدْوَه، ويسقط وينهض ليعدو مرة أخرى.. يستمع إلى أنفاسه المتسارعة، ويكمل عدوه وسقطت منه

الورقة فتركها.. وأكمل طريقه.. حتى وصل إلى باب زيكولا فوجده مغلقًا، وأمامه حارس ضخم الجثة فصاح به «خالد»:

- أريد أن أخرج..

فابتسم الحارس:

- ألا ترى؟!!.. لقد أُغلق الباب مع شروق شمس اليوم..

فصاح «خالد» مجددًا:

- لابد أن أخرج..

فظهر الغضب على وجه الحارس حتى صاح «خالد» مرة أخرى، وحاول أن يزيح الحارس بذراعه فدفعه الحارس بدرعه فعاد خطوات إلى الخلف، وسقط ثم نهض مجددًا، وعاد إلى الحارس:

- أريد أن أخرج..

فضربه الحارس ضربة قوية بدرعه أسقطته على ظهره، وجعلتِ الدماء تنزف من وجهه فاقترب منه «يامن»، وأمسك بكتفيه:

- هيا يا «خالد».. لابد أن نرحل عن هنا..

فنهض «خالد» مجددًا، ونظر إلى الباب الضخم.. وانتفخت عروق رقبته، وصاح بصوته وكأنه يود أن يهز جدران تلك المنطقة:

- «أسيييل».. «أسيييل»..

فجذبه «يامن»:

- هيا يا «خالد».. هيا.. لابد أن نرحل عن هنا..

ثم أعطاه ورقة «أسيل» التي سقطت منه، وابتسم إليه:

- لا تستطيع «أسيل» العودة إلى هنا مجددًا..

-كانت تعلم أنها ستصبح في نظر تلك المدينة خائنة.. ففضلت أن تتركها بكافة ما تمتلكه..

فصاح به «خالد»:

- إنها ليست خائنة..

فابتسم «يامن»:

- أعلم ذلك يا صديقي.. لقد قرأت تلك الورقة ثم نظر إليه:

- لقد ضحت بكل شيء من أجل حياتك يا «خالد»..

-أنت تعلم ما كتبته إليك.. ما تمنته لك أن تعود إلى حبيبتك في عالمك..

وأن تعيش حياتك سعيدًا.. هذا سيكفل لها السعادة..

- «خالد» عليك أن تفعل ما يجعلها سعيدة الآن..

فنطق «خالد» حزينًا:

- كان لابد أن تعرف أن حبيبتي تلك قد تزوجت.. فصمت «يامن» ثم ابتسم إليه:

- لن تستطيع «أسيل» العودة إلى هنا.. ولن تستطيع أنت اللحاق بها.. عليك أن تعود إلى بلدك.. لقد فعلنا الكثير كي تتحقق أمنيتك بعودتك إلى بلدك..

فجلس «خالد»، وأمسك برأسه.. وحدّث نفسه بصوت مسموع:

- لم أكن لأرضى أن تفعل ذلك..

فصاح به «يامن»:

- ولكنها فعلته ، ولم يعد هناك وقت لما تفعله الآن.. هيا انهض..

ثم جذبه:

- أعلم أنك صديقي، ولكن أيها الصديق لا أريدك أن تظل هنا ببلدي.. عليك أن تعود إلى بلدك ..

فضحك «خالد» ساخرًا:

- بلدي؟! كيف؟

- لابد وأن صاحب البيت بالمنطقة الغربية قد عاد إليه، وانتهى كل شيء

فصمت «يامن» ثم أكمل مبتسمًا:

- أو ربما لم يعد بعد..

ثم أكمل:

- سيعود إلى بيته بعد غد..

فنظر إليه «خالد» متعجبًا:

- كيف وقد أخبرنا الفتى بأنه سيعود إلى بيته مع يوم زيكولا..

فابتسم «يامن»:

- أعتقد أن مائتي وحدة ذكاء كافية لتجعله يترك بيته ليلتين..

فنظر إليه «خالد» في دهشة:

- مائتا وحدة؟!!

فابتسم «يامن»:

- نعم..

فسأله «خالد» مجددًا:

- أعطيته مائتي وحدة؟!

فأجابه «يامن»:- نعم..

فنظر إليه «خالد»:

- كيف تدفع تلك الوحدات؟

فأجابه «يامن»، وما زالت الابتسامة على وجهه:

- ليست «أسيل» فقط من تقدم المساعدة.. حين جعلتنا نتخلص من آخذي وحدات الحماية كي نأكل دجاجًا، ونوفر وحدتين كل يوم.. لم أكن آكل الدجاج.. ثم زادت ابتسامته:

- لم أخبرك من قبل أنني لا أحب الدجاج.. وسامحني لأنني لم أحضر منافسة الزيكولا بالأمس.. كان لابد وأن أمكث هنا أمام ذلك الباب، وانتظر النهار بأكمله كي أجد صاحب البيت، وأقدم له عرضي قبل أن نفقده ويضيع كل شيء..

فسأله «خالد»:

- وما مقابل تلك الوحدات يا «يامن»؟..

فنظر إليه «يامن»:

-لا تكفي تلك الوحدات مقابلًا لتلك الشهور التي كنت بها صديقًا وفيًّا لي..

فابتسم «خالد» ثم احتضنه، فهمس «يامن» إلى أذنه:

هيا عليك أن ترحل الآن.. الطريق إلى المنطقة الغربية طويل.. هناك ينتظرك «إياد».. ستعطيه ذلك الحصان حين تصل إليه.. ثم أشار إلى حصان أسود قد عقله بالقرب منهما وتبدو عليه القوة..فسأله «خالد»، وكأنه لا يصدق مفاجآت «يامن»:

- ومن أين لك بهذا الحصان أيضًا..

فابتسم «يامن»:

- لا تقلق، لقد استأجرته كي آتي به إلى هنا.. كان لابد أن أسرع إلى هنا.. ولكنني تذكرت أن الحصان لابد وأن يعود إلى صاحبه بالمنطقة الغربية، وأنا إن ذهبت إلى هناك كي أعيده.. فكيف أعود هنا مجددًا؟!!..

ثم أكمل ضاحكًا:

- أنا جئت به.. وأنت ستعود به..

فابتسم «خالد»:

- أكيد مش هلاقي صاحب زيّك يا «يامن»..

فابتسم «يامن»:

- هاأنت قد عدت إلى لهجتك الجميلة يا صديقي..

- هيا لا تضيع وقتك، وتذكّرني دائمًا، وأنا سأظل هنا لأحكي للصغار أن صديقي صاحب أغلى كتاب وأغلى قُبلة بتاريخ زيكولا.. القُبلة التى أنقذت حياته يوم زيكولا.. ثم أتى بالحصان إلى «خالد» فامتطاه «خالد»، ونظر إليه:

- «يامن».. تعلم أن هناك شابًا قد يكون أخي بالمنطقة الشمالية.. إن قابلته يومًا، وكان في حاجة إلى مساعدة فلا تتأخر عنه..

فابتسم «يامن»:

ثم ضرب مؤخرة الحصان بيده، وصاح:

- هيا إلى طريقك.. سيعطيك «إياد» كتابك حين يجدك.. أما أنا سأذهب لأحتفل مع أهل زيكولا.. أشعر أنني في حاجة كي أرقص مع إحدى الفتيات.. كفاني تلك الجرعة من الحزن في الأوقات السابقة..

***

بدأ «خالد» يتحرك بحصانه، وينظر إلى «يامن» الذي يقف مبتسمًا ويلوح له بيده، والحصان يتحرك ببطء، و«خالد» ينظر إلى بيوت المنطقة الشرقية وقصورها التي عاش بينها لشهور.. حتى اختفى «يامن» عن أنظاره، وتحرّك نحو البحيرة.. فابتسم ثم اقترب منها، وارتجل ونزل ليشرب من مائها.. ثم امتطى حصانه مجددًا، وأمره أن ينطلق في طريقه إلى المنطقة الغربية، والشمس تسطع فوق رأسه الحليق.. يتطاير قميصه مع الهواء، ويسرع حصانه كأنه سهم يشق الطريق نحو الغرب.. بينما تنطلق «أسيل» بحصانها خارج زيكولا تجاه بيجانا نحو الشرق.. يسير كلاهما في طريقه، ويبتعد كل منهما عن الآخر.. «خالد» لا يفكّر إلا في كلمات «أسيل»، و«أسيل» لا يدور برأسها سوى «خالد».. يبتسم حين يتذكر حديثه إليها عن التليفزيون، وتبتسم هي بعدما تذكّرت احمرار

وجهه حين قبّلته.. ينطلق الحصانان كلٌّ نحو قدره الذي اختاره صاحبه، وتتحرك فوقهما الشمس من الشرق إلى الغرب، وكأنها تراقبهما على ظهر تلك الأرض وهما مجتمعان للمرة الأخيرة، و«خالد» يسرع ويقلب عينيه بين صحراء زيكولا وكأنه يودعها، وينظر إلى مناطقها التي يمر عليها ويشير إليها بيده، وكأنه يخبرها بأنه سيرحل.. و«أسيل» تغمض عينيها كأنها تتمنّى لـ«خالد» أن يحقق ما يريد.. حتى بدأتِ الشمس في الغروب إيذانًا برحيل ذلك النهار..

حل الليل، وقد وصل «خالد» إلى أطراف المنطقة الغربية، واتجه نحو البيت الذي يقصده على الفور، وما إن وصله حتى دلف إليه بحصانه، وهناك وجد «إياد» في انتظاره، والذي صاح:

- لقد سمعت بما حدث اليوم.. هنيئًا لك يا صديق..

- فابتسم «خالد»:

- شكرًا يا صديقي..

- ثم ارتجل، وأشار إلى حصانه:

- هذا هو الحصان الذي استأجره «يامن».. إنه أسرع حصان رأيته بزيكولا.. لقد أحسن «يامن» الاختيار تلك المرة..

فابتسم «إياد» ثم أخرج كتابه:

- وهذا هو كتابك..

فابتسم «خالد»:

- ما زلت أدين لك بأجر متابعة حفر ذلك النفق..

فضحك «إياد»:

- لقد أعطاني «يامن» ذلك الأجر.. لم أطلب الكثير..

فابتسم «خالد»:

- «يامن»..

فسأله «إياد»:

- هل سترحل الآن؟..

فابتسم «خالد»:

- نعم

فأكمل «إياد»:

- لقد قرأت بعض الصفحات من كتابك..

- لقد أسعدك الحظ يا «خالد».. إن الليلة بدر أيضًا.. سيكون سرداب فوريك مضاءً..

فابتسم «خالد» بعدما تذكر أن السرداب يكون مضاءً ليلة البدر ثم نظر إليه «إياد» وأعطاه مصباحًا ناريًّا:

- ذلك المصباح سيلزمك حتى تمر من النفق.. إن التهوية بنفقنا جيدة، ولكن تعلم أن إنارة ذلك المصباح ستنتهي مع انتهاء زيته..

فابتسم «خالد»:

- حسنًا، ولكن عليكم أن تغلقوا طرف ذلك النفق بعد ذهابي..

فابتسم «إياد»:

- بالطبع يا صديقي.. إنِ اكتشف أحد ما فعلناه فسنصبح خائنين لزيكولا..

فوضع «خالد» يده على كتف إياد ثم صافحه، ووضع كتابه بين بطنه وبنطاله أسفل قميصه، واتجه إلى فتحة ذلك النفق، ونزل السلم الخشبي بها، وبيده المصباح.. وأشار الى «إياد» مودِّعًا له..

***

بعدها نظر «خالد» إلى النفق الأفقي فوجده مظلمًا.. فسمى الله، وبدأ يزحف على ركبتيه، وبيده المصباح، وينظر أمامه، ويحدث نفسه ليست إلا أمتار وأكون خارج زيكولا.. يتحرك مسرعًا، ويشعر أن نشاطه قد عاد إليه بعدما افتقده الأيام السابقة.. يحدّث نفسه:

- أرحل من أجل «أسيل».. أرحل من أجل جدك.. أرحل من أجل «يامن»، ويواصل زحفه، ويتجنّب الدعامات الخشبية التي تركها

من صنعوا ذلك النفق.. يتوقف للحظات ليلتقط أنفاسه ثم يبتسم، ويحدث نفسه مجددًا:

- ما زلنا في البداية يا «خالد».. هيا.. ثم يكمل تحركه حتى لمح الفتحة الأخرى للنفق، والنور يتسرب خلالها فأسرع من تحركه.. يجذبه الأمل نحوها.. هيا.. يا «خالد» هيا.. إنها لحظات.. هيا.. هكذا كان يحفّز نفسه، ويزحف بقوة حتى وصل إلى تلك الفتحة، وقفز إلى خارجها، ومازال مصباحه بيده حتى وجد نفسه بأرض رملية يظهرها نور البدر الذي يسطع بالسماء، والتفت ليدق قلبه بقوة حين وجد سور زيكولا بشموخه خلفه.. فصاح فرحًا:

- أنا خارج زيكولا.. أنا خارج زيكولا..

وظل يعود بقدمه خطوات للخلف، وينظر الى سور زيكولا وإلى ارتفاعه الشاهق الذي طالما كان عائقًا له.. حتى انزلقت قدماه في الرمال فجأة، وسقط على ظهره، وسقط المصباح بعيدًا عنه، ومالبث أن يمد يده كي يلتقطه حتى وجد جسده يسقط بحفرة وسط الرمال، وظل جسده يهوي لأسفل، ويرتطم بجدران تلك الحفرة، ويهوى أكثر فأكثر دون أن يتوقف، ويمسك برأسه التي ارتطمت كثيرًا، وبدأتِ الدماء تنزف منها.. حتى بدأت حركته تقل شيئًا فشيئًا.. ثم توقف جسده عن

الارتطام لينظر أمامه ليجد نفقًا ممهّدًا يتجه بانحناء لأسفل ولأحد الاتجاهات فصاح «خالد»:

- نعم.. إنه أحد فرعي سرداب فوريك..

ثم أخرج الكتاب من بنطاله وقبّله، وصاح:

- إنني لست في حاجة إلى مصباح.. إنه مضاء بنور البدر..

ثم أسرع به يجرى .. الطريق يأخذه لأسفل، ولا يفكر بشيء سوى أن يسرع بذلك الطريق.. يريد أن يصل إلى ما يريده.. يعلم أن انحناء الطريق لأسفل ربما لسبب لا يعلمه.. إنه صمم كذلك.. ربما كان سببًا كي يحتوي فرعي زيكولا بالكامل.. أو ربما كانت هناك فروع أخرى.. يتحدث إلى نفسه، وتدور بعقله تفسيرات لايأبه بها كثيرًا.. حتى سقط وتدحرج بجسده مجددًا فابتسم ونهض، وأكمل عَدْوَه، وكلما سقط تدحرج جسده قليلًا ثم ينهض مجددًا، ويكمل عدوه، وظل يواصل طريقه، والوقت يمرّ.. وكلما أصابه التعب وقف للحظات كي يلتقط أنفاسه ثم يسرع مجددًا، ويحدّث نفسه ليحفزها:

- هيا يا «خالد» .. هيا.. لم يعد سوى القليل..

حتى زاد تعبه فجلس، وأسند ظهره إلى جدار، ومسح بذراعه حبات العرق التي أغرقت جبينه.. ثم نهض مجددًا، وسار بضع خطوات

حتى وجد صورة تشبه الصورة التي وجدها حين نـزل السرداب لأول مرة، والصورة التي نُقشت عـلى سـور زيكـولا بالمنطقة الغربيـة فوقـف أمامها، وابتسم:

- فوريك..

وما إن مرّ أمامها حتى شعر بذات الهزة العنيفـة التـي حـدثت مـن قبـل حـين مجيئـه للسرداب للمـرة الأولى، ونظـر خلفـه ليجـد جـدران السرداب قد بدأت في الانهيار.. فابتسم وبدأ يعدو.. يسرع.. والجدران تنهار من خلفه.. تخطو قدماه مسرعة.. يعلم أن الانهيار من خلفه يدفعه لطريق مقصود.. يسرع ويخشى أن يلحقه الانهيار فتتحطم معه آمالـه.. هيا يا «خالد».. يحفز نفسه.. هيا.. حتـى بـدأ الـصوت يقـل مـن خلفـه، وهدأتِ الحركة العنيفة، ولم تعد هناك انهيارات للجـدران، ومـا إن نظـر أمامـه حتـى وجـد نفـسه في طريـق للـسرداب أكثـر اتـساعًا، وجدرانـه منقوشة بنقوشٍ كثيرة.. فصاح:

- سرداب فوريك.. سرداب فوريك الأساسي..

وأسرع بـه، وتـرتطم قـدماه بالهياكـل العظميـة المنتـشرة بأرضـيّته، وأكمل جريه حتى وصل إلى سلمه الطويل فأسرع إليه وصعد درجاته.. يخطـو العديـد منهـا بخطـوة واحـدة منـه.. يحدّث نفسه.. لم يعـد سـوى

القليل يا «خالد».. يصعد ولا ينظر خلفه.. ينظر إلى درجات السلم المتبقية، ويخطوها مسرعًا.. حتى وصل إلى أعلاه فتوقف وانحنى يمسك ركبيته ليلتقط أنفاسه، وكأنه يفكر، ويتذكر يوم نزوله السرداب للمرة الأولى، وحدّث نفسه بصوتٍ يسمعه:

- ها أنا قد مررت من السرداب..

- الآن النفق..

- عليك أن تسرع يا «خالد» .. لا يوجد هواء بالداخل..

ثم صمت وأكمل:

- ولا توجد إضاءة.. عليك أن تتذكر جيدًا كيف كان مسارك بهذا النفق..

ثم اغمض عينيه، وكأنه يتذكر ثم فتحهما مجددًا، ونظر إلى الفتحة ذات ألواح الخشب المتكسّرة، والتي تصل سرداب فوريك بالنفق المظلم.. وسمى الله ثم ملأ صدره بالهواء، وأسرع إليها فوجد الظلام يسود بداخله، وأسرع يزيح شباك العنكبوت التي تملؤه، ويسرع، ويتذكر في لحظات طريقه حين نزله.. يسرع في الظلام، وكلما وجد طريقه خاليًا يتقدم أكثر.. يتحرك كأنه يغطس بأعماق محيط.. تحركه كمية الهواء التي التقطها منذ دخوله بعدما لم تكف فتحة ذلك النفق

لتدخل المزيد من الهواء، وكأنه قد صمم ليكون قبرًا للاختناق حتى لو لم يكـن مغلقًـا بالكامـل، وبـدأ «خالـد» يـشعر بالاختنـاق، ولكنـه أكمـل طريقـه، وتـسارعت أنفاسـه، ودقّ قلبـه مـسرعًا، وبـرزت عينـاه حتـى ارتطمت قدماه بشيء صلب، وحين تحسسه أدرك أنه سلّم النفق فصعد درجاته على الفور حتى اصطدمت رأسه ببابه الفولاذي الذي قد أُغلِق حين انكسر اللوح الخشبي، فبدأ يدفعه بقوة.. يعلم أنه يستطيع ذلك.. يدفعه ويحاول أن يرفعه.. يحفّز نفسه، وقد أخرج ما لديه من هواء

- هيا يا «خالد».. إنها لحظات.. هيا..

ويضغط على أسنانه، ويدفع بكتفيه.. حتى بدأ الباب يرتفع قليلًا ، واندفع الهواء إلى صدره:

- هيا يا «خالد»..

حتـى ارتفـع البـاب بأكملـه، وقفـر «خالـد» إلى خارجـه، وسـقط بجواره، وصدره يعلو وينخفض مسرعًا.. وصاح:

- أنا رجعت..

وأمـسك برأسـه وكأنـه لا يـصدق نفـسه.. يجلس بجـوار البـاب الفولاذي، وينظر إليه ويتحسس وجهه وكأنه يتيقن أنه لـيس نـائمًا.. ثـم ينظر إلى ملابسه الزيكولية، ويتحسس رأسـه ليجـده حليقًـا فـأدرك أنهـا

حقيقة .. ثم أغلق باب النفق من جديد، وأسرع إلى الخارج فوجد الظلام يسود السماء ثم عبر السور العالي الذي يحيط بذلك البيت المهجور، وما إن عبره حتى سمع آذان الفجر يهزُّ كافة أرجاء بلدته.. البهوفريك.. فابتسم، وبدأ يكرر الآذان كلّما سمع كلماته، وأسرع بين شوارعها الخالية، وكلما رأى أحد الأشخاص يمر.. حاول أن يختبئ حتى لا يراه بهذا الزِّي.. حتى اقترب من بيته، وما إن وصل إليه، ودقّ الباب بقوة حتى وجده مفتوحًا قليلًا فأدرك أن جده قد فتحه كعادته مع حلول الفجر، ثم دلف إليه فوجد جده يصلي الفجر جالسًا، ويعلو صوته بآيات من القرآن، فجلس خلفه في انتظاره، وتساقطت دموعه حين سمع دعاءه بأن يعود إليه سالمًا حتى انتهى والتفت فوجد «خالد» خلفه فتسارعت أنفاسه وكأنه لا يصدق نفسه، واحتضنه بقوة ودمعت عيناه:

- «خالد»..

أما «خالد» فقد بكى كثيرًا حين احتضنه جده، وكأنه لا يصدق نفسه، وظل يحتضنه ويمسح رأسه بكتفه، ويبتسم بينما يرتشف دموعه:

- كنت بقولك هرجع لك يا «عبده»..

قلت لك إني هرجع..

ثم سقط، وكأنه قد أغشى عليه..

***

ظل «خالد» نائمًا، وبدا عليه أنه لم ينم لأيام طويلة، وبجواره جده.. يجلس لينظر إليه، وقد بدّل له ملابسه، ولم يرد أن يفتح ذلك الكتاب الذي أحضره معه «خالد» إلا بعدما يخبره «خالد» بما حدث له أولًا، وقد مر يوم كامل دون أن يستيقظ «خالد» حتى نهض فوجد جده بجواره، ومعه صديقه العجوز.. مجنون السرداب..الذي كان أول من يخبره عن حقيقة سرداب فوريك، وما أن رآه قد فتح عينيه حتى صاح:

- «خالد» صحي..

فابتسم «خالد»:

- لابد أنكم قد أصابكم القلق..

فاندهش الرجل مما سمعه فضحك «خالد»:

- عارف إن لهجتي أوقات بتتغير.. بس قريب أوي هستعيد لهجة البهوفريك..

فقاطعه جده:

- يلا يا «خالد».. احكي لنا اللي حصل لك..

ثم تدخّل الرجل:

-أنت نزلت السرداب فعلًا؟

فابتسم «خالد»:

- من أين تريدون أن أبدأ قصّتي..

ثم بدأ «خالد» يحكي عما حدث له منذ نزوله ذلك النفق أسفل البيت المهجور بالقرية، وما حدث له به، ونزوله إلى سرداب فوريك الحقيقي، وتلك الصورة به، وما به من هياكل عظمية ثم خروجه إلى أرض زيكولا، وظل يحكي لهما، وهما يستمعان إلى كل كلمة يقولها.. يحدثهما عن قوة تلك المدينة، وعن أهلها وعن طقسها الذي يبدو ثابتًا مع تغير فصول العام.. وعن عمله هناك، وعن يوم زيكولا، وعن «يامن» و«أسيل»، وعن رحلته خلف ذلك الكتاب الذي يوجد بين أيديهم، ولكنه آثر ألا يخبر جده بأن أباه قد قُتل كي يرثه ابنه.. بل إنه لم يذكر سيرة أبيه أو أخيه على الإطلاق، وآثر أن يحتفظ بذلك السر خشية أن يسبب مزيدًا من الحزن لجده، وظلّ يحكي ويحكي، وتمر الدقائق وتتبعها الساعات، ولم يتركاه دون أن يسألاه عن تفاصيل كل جملة يقولها..حتى انتهى فنظر إلى جده وصاحبه:

- أريد أن يظل حديثنا هذا سرًا بيننا..

فاندهش صديق جده:

- وليه منقولش للناس كلّها..أنت بطل..

فأجابه «خالد»:

- لن يصدقك أحد.. لن يقولوا بطل.. سيقولون مجنون..

فقاطعه الرجل مجددًا:

- الكتاب أحسن دليل..

فابتسم «خالد»:

- سيقولون أنك أحضرت ذلك الكتاب من مكان آخر.. أريد فقط أن يظل هذا السر بيننا.. أريدكما أن تعداني بذلك..

فابتسم جده:

- حاضر..

وابتسم الرجل:

- وأنا كمان بوعدك..

ثم ضحك جده:

- أكيد «منى» هتفرح لما تعرف إنك رجعت.. دي على طول كانت بتسأل عليك، وعمرها ما سابتني لوحدي..

فسأله «خالد»:

- هيّ متجوزتش؟!

فابتسم جده:

- لا

ثم أكمل:

- «منى» بتدي لأبيها دروس من جديد.. زي اللي بترد له كل اللي عمله فيك.. كل ما يتقدم لها عريس ترفض.. وتبوّظ الجوازة لأي سبب.. وحلفت قدام الناس إنها مش هتتجوز..

فابتسم «خالد»:

- أكيد طالعة مجنونة لأبوها..

فابتسم جده:

- هيّ مش هتتجوز إلاأنت يا «خالد»..

فابتسم «خالد»:

- لكني لا أريد الزواج الآن..

حتى فوجئوا بـ«منى» تدخل إليهم فجأة، ونظرت إلى «خالد» في سعادة:

- «خالد».. أنا عرفت إنك رجعت..

فابتسم «خالد»:

- نعم..

فأكملت:

- أنا مبسوطة أوي إنك رجعت يا «خالد»..

فابتسم:

- شكرًا «منى».. أشكرك لأنك كنت بجوار جدي تلك الفترة..

فضحكت «منى»:

-أنت بتتكلم كدة ليه؟.. هو السفر أثّر على كلامك ولا أيه؟

فضحك «خالد»:

- نعم..

ثم نهض جده، وصاحبه، وتركاهما فابتسمت «منى»:

- أنا حلفت لأبويا إني مش هتجوز إلا أنت.. وإن متجوزتكش مش هأتجوز طول عمري واللي يعمله يعمله..

فصمت «خالد» دون أن يرد فتابعت:

- «خالد».. أنا مش شايفاك فرحان بكلامي ليه..أنت حبيت حد تاني وأنت مسافر؟

فابتسم «خالد»:

- «منى».. أنا رجعت من السفر زي ما أنا.. اعتبريني هبدأ من جديد..

فابتسمت:

- خلاص.. وأنا موافقة نبدأ سوا..

فنظر إليها «خالد» في هدوء:

- أرجوكي يا «منى».. محتاج شوية وقت عشان أرتب أموري..

فظهر الحزن على وجه «منى» وهمت للمغادرة:

- حاضر يا «خالد» ثم غادرت..

***

كان «خالد» يعلم أن «منى» تحبه، ولكنه أراد ألا يتسرّع في حديثه معها، وأراد أن يتحقّق من مشاعره تجاهها، وخاصة أنه لم يفق بعد مما حدث له بزيكولا وبُعده عن «أسيل»، وعزم على أن يجد عملًا يحقق له ذاته، وظل يبحث عن عمل ملائم لدراسته، وذهب إلى أماكنَ كثيرة.. يبحث عن عمله دون أن يصيبه تعب أو ملل، ويبتسم حين تضيق الدنيا أمامه، ويحدّث نفسه دائمًا:

لابد وأن هناك أملًا.. ماذا بعد نجاتي من الموت قبل لحظات..
يبحث نهارًا ويعود إلى شرفة بيته ليلا ليتأمل سماء بلدته بحثًا عن ذلك النجم.. «أسيل».. حتى يغلبه النعاس فيظل نائمًا لتشرق شمس اليوم الذي يليه.. واستمر في بحثه عن عمل لمدة أيام وأيام، وامتدت لأسابيعَ.. حتى وجد عملًا بإحدى فروع شركة كبرى بمدينة المنصورة، ومرت شهور، وهو يعمل ويشعر بذاته في ذلك العمل، وكلما واجهته مشكلة قابلها بابتسامة يحسده عليها زملاؤه.. وتزداد بسمته حين يعود إلى بيته فيجد جده يقرأ مجددًا بكتاب سرداب فوريك الذي لم يتركه إلا لحظات قليلة منذ عودته، ويطلب منه أن يخبره بالمزيد مما حدث له بزيكولا.. فيحكي له الكثير والكثير.. ويسأله بعد انتهائه ألا يخبر أحدًا بذلك.. حتى جاء في يوم، وعاد إلى جده مبتسمًا:
- يلا يا عبده..أنت مش عاوز حفيدك يتجوّز؟
فنظر إليه جده فتابع «خالد»:
- احنا هنروح للمرة الأخيرة نخطب «منى».. والله أبوها وافق هأتجوزها.. ولوموافقش.. هأتجوزها برضه..

فابتسم جده، واتجه معه إلى بيت والد «منى»، واندهش «خالد» حين وجد والد «منى» قد تغير تمام التغيُّر، وقابلهما بكل حفاوة وتقدير، وما إن تحدّث جد «خالد» بأنه يريد أن يطلب يد «منى» لـ«خالد» حتى نطق والدها بترحيب:

- يلا نقرأ الفاتحة..

فابتسم «خالد»، وابتسمت «منى» التي كانت تقف أمام باب الحجرة، وعلت الزغاريد ببيتها، ونهض «خالد» ليحتضن والدها ثم احتضن جده، وقد حددوا موعدًا قريبًا لإقامة عُرسهما..

***

مرت أيام كثيرة، ومرت أسابيع وتبعتها بضع شهور، و«خالد» يعمل بقوة كي يستعد ليوم عُرسه.. حتى جاء ذلك اليوم الرابع عشر من سبتمبر، وقد عُلِّقت الأنوار أمام بيته، واجتمع الكثير من الأهالي ليهنئوه ويهنئوا جده بهذا العُرس، وقد حلَّ الليل، وبدأ حفل الزفاف، وكم كان حفلًا رائعًا يتراقص به من يعرفون «خالد» و«منى» ومن لا يعرفانهما، و«خالد» ينظر إلى الجميع، وتتشابك ذراعه بذراع «منى» التي ظلت تهمس إليه طوال الاحتفال دون أن يسمع أي شيء، ولكنه كان

يهز رأسه مبتسمًا دون أن يدرك عما تتحدث.. حتى انتهى الاحتفال، ودلفا إلى شقتهما، وامتلأ وجه «منى» بالخجل بعدما دلفا إلى حجرة نومهما.. فضحك «خالد» ثم ضحكت «منى»، ونظرت إليه:

-«خالد».. باين إننا هنبتدي المشاكل من دلوقتي.. «خالد».. الشقة حر أوي.. أنا عاوزة تكييف..

فضحك «خالد»، ولم ينطق ثم اتجه نحو شرفة الغرفة، وفتحها كي يندفع الهواء إليها حتى نظر إلى السماء فدق قلبه بقوة حين وجد ذلك النجم اللامع وحيدًا مميزًا بها، وهمس إلى نفسه في ذهول:

- «أسيل» !!

فأكملت «منى»، وهي تجلس بفستان زفافها على سرير الغرفة:

«خالد».. أنا نفسي نقضي شهر العسل في أي مكان..

فابتسم «خالد» بعدما سمع كلماتها ثم نظر إلى النجم مجددًا، وقد أطال نظره تلك المرة كثيرًا وكأنه يفكّر.. ثم نظر إليها:

- أنا كمان كنت بفكر إننا نقضي شهر العسل في مكان مختلف تمامًا..

ثم أكمل مبتسمًا:

- أيه رأيك في مكان التعامل فيه مش بالفلوس؟

فاندهشت «منى»، وسألته:

- أمّال بأيه؟!

فضحك «خالد» كثيرًا ثم اقترب منها، وهمس إليها:

- هتعرفي لما نروح هناك..

تمت بحمد الله

يجرى خالد سريعا . . و انهيار الجدران يسرع خلفه، و كأنه فريسة يلاحقها أسد مفترس . . لا يصدق عينيه . . يشعر بأنه فى حلم ما ، و يسرع . . و تسمع أذناه صوت ارتطام صخور الجدران الضخمة . . لو أصابته صخرة واحدة لقتلته . . حتى سقطت شنطة كتفه و ما بها . . و لكنه لم يعبأ بذلك . . و واصل عدوه . . تساعده قدماه الطويلتان و خطواته الواسعة . . و يجرى إلى حيث لا يعرف مصيره . . يجرى إلى المجهول . . و يصرخ بداخل نفسه . . كيف يعود إلى بلده مجددا ؟ ! . . إنه الهلاك . . إن السرداب ينهار . . ماذا حدث بالأعلى . . هل هناك زلزال ما ضرب الأرض بالأعلى ؟ ! . .

حتى وجد نفسه أمام طريقين قد انقسم إليهما السرداب . . حتى اندفع إلى أحدهما ، دون رغبته . . بل دفع إليه بعدما انهار الطريق الآخر قبل أن يصل إليه . . و كأن الانهيار يتحكم فى مساره . . حتى فوجئ بنفسه يجرى إلى منحدر يتجه للأعلى . . و يلاحقه الانهيار أسرع و أسرع يريد أن يبتلعه . .

يحاول أن يقاوم صعوبة الصعود . . و يتقدم ، و مازال النور أمامه و الظلام من خلفه . . و يخطو بقدميه سريعا . . حتى وجد نورا شديدا على مرمى بصره ، و كأنه نور النهار الذى يعرفه جيدا حين كان يفتح نافذة حجرته صباحا . . فأسرع إليه . . " إنها النجاة مجددا . .